محمود الورواري

خريف البلد الكبير

رواية

الدار المصرية اللبنانية

محمود الورواري

خريف البلد الكبير

رواية

الدار المصرية اللبنانية

1

ما الذي ذكَّره بي بعد كل هذه السنين؟

وكيف عرف أنني قد وصلت إلى القاهرة؟

أغلقت هاتفي على تلك المكالمة الطويلة وبعدها فتحت خزينة ذكرياتي البعيدة أيام الجامعة، تذكرت صحبة حفرت لنفسها ممرات في طين الروح لتنتهي بمصب واحد في نهر القلب.

مهما تزاحمت الذكريات، وامتلأ صندوقها ستبقى تلك المرحلة تطفو دائما لتبقى، تبقى قريبة من اللسان فيبوح بكل تفاصيلها ومن العقل فلا ينسى شيئا منها.

«سليم»، ذلك الفوضوي، الباحث دائما عن دور، تراه متصدرا بصوته الجهوري ملاعب الجامعة باعتباره المحترف الأوحد، بل أحيانا يحكي لك عن انتصارات من فرط دقة خياله تحسبها صحيحة وهي محض أحلام.

سليم، ابن مدينة رأس غارب في البحر الأحمر، خليط من صفات الصياد والصعيدي، عاشق للبحر دائما، وفهلوي لدرجة تقترب من الاحتيال أحيانا.

يعمل في كل شيء ودائما مشغول بفكرة المشاريع التي عادة تنتهي بالفشل، ربما أكثرها ظرفا حين جمع عددا من أطفال الشوارع واشترى كثيرا من علب المناديل الورقية وأعطى كل طفل كرتونة وأطلقهم في إشارات المرور على أن يعودوا إليه في المساء على أحد المقاهي، ليلتها ظل ساهرا حتى الصباح ولم يأتِ أحد.

في عطلة الصيف التي كنا دائما مشغولين بها نحن المطحونين، جاء لي ذات ليلة في الشقة التي كنت أسكنها وبعض الزملاء في الهرم، ليقترح علينا مشروعا لتصنيع عربات خشبية لبيع الترمس، ثم توزيعها على الكورنيش.

كانت معه دراسة وافية عن المشروع: أجرة النجار الذي سيصنعها، والترمس الذي سيقوم بشرائه من البلد بثمن رخيص، والعمال الذين سيأتي بهم من العاطلين مقابل أجر يومي.

لأول مرة أوافقه على فكرة، وأنا الذي سخرت منه كثيرا بعد خيبة مشروع المناديل، أعطيته وقتها عشرين جنيها من باقي مائة جنيه، وكانت هي مقدار مشاركتي في المشروع.

وبمجرد انتهاء آخر مادة في امتحانات نهاية العام انطلقنا جميعا إلى حي «المناصرة» العريق، حيث كانت العربات الخشبية جاهزة، على شاحنة صغيرة، حملناها إلى الكورنيش في منطقة لا تبعد كثيرا عن مبنى ماسبيرو، لكن فوجئنا بأن هناك مجموعة من الباعة التفوا حولنا ومعهم سكاكين.. كدنا أن نقتل لولا هدوئي في معالجة الأمر.

انسحبنا وتركنا الشاحنة وعليها العربات الخشبية كجثث تبحث عن قبر يؤويها.

انطلقنا إلى المقاهي التي يجلس عليها زملاؤنا من فرق الكاراتيه والمصارعة وكمال الأجسام في الكلية بل في الجامعة، ولم يأتِ الفجر حتى كنا واقفين على الكورنيش وأمامنا تلك العربات وعليها كومات الترمس بصفرته تحفه مجموعة من القلل الفخارية، تنز منها المياه الباردة فتكسبها بريقا يتلألأ تحت شعاع الفجر المتسرب خفية من فوق جدائل النيل.

أمام كل عربة وقف اثنان من زملائنا بأجسادهم وعضلاتهم الملفوفة، وغير بعيد أشعل أحد الباعة صوت الكاسيت يصدح بصوت الراحل حسن الأسمر.

ظللنا كل ليلة نلتقي حتى عقدنا صفقة مع بقية الباعة وتقاسمنا منطقة الكورنيش وأصبحنا جيرانا وزملاء في لقمة العيش كما كانوا يقولون.

ظل «سليم» القائد لهذا المشروع طوال أشهر الصيف الجميلة، التي كانت من أروع ما مر في العمر، وامتلأت بكثير من الحكايات التي تحتاج كتبا لنلملم جمالها.

خرجنا من المشروع رابحين لدرجة أنه ظل مستمرا حتى النصف الأول من العام الدراسي الجديد، كسبنا أيضا براحا للروح كان يتسع كل يوم ونحن نغرق في ضحك لا ينقطع، وقتها تعلمت أشياء كثيرة عن لغة الأرصفة وسر هذا الشعب الذي أنتمي إليه.

أدركت عجينة هذا البلد الطيب الذي خصص أجمل ما فيه للبسطاء يأتونه مجانا وبلا حواجز، إنه النيل العظيم بمياهه التي كانت تشعرني بأنه مارد عظيم يتجلى خفية وسط سكون الليل ليبوح بأسراره للموعودين، وأحيانا كنت منهم.

النيل ذلك المارد الذي لم ينجح مستعمر أو غازٍ أو حاكم ظالم في سجنه، أو الحيلولة دون محبيه، كان دوما ضد الخصخصة وضد التصنيف الطبقي، يستمتع به الأثرياء بالتنزه عبر يخوتهم البازخة الثراء، ويستمتع به الفقراء وفي أيديهم «كوز درة مشوي وحبة ترمس» وهم يتمشون على الكورنيش يستقبلون ريش نسماته الحنون.

سر هذا الشعب في رضاه وفي بساطته، القليل يكفيه بل يسعده، مجرد جلسة على كورنيش النيل تسعد أسرة كاملة، بل تسعد شعبا كاملا.

ما الذي يبعث «سليم» مرة أخرى من بين ركام الذكريات، من ذلك الماضي الجميل؟

ما زال طعم مكالمته ورنين صوته الذي اخشنَّ كثيرا، وانشرخ قليلا ليعطي عمرا غير ذلك العمر الذي كانه، أصواتنا كملامحنا مع العمر تكسوها تجاعيد الزمن.

كان نزقا في حديثه، رسميا وكأنه يتحدث مع شخص غريب.

- أهلا سعادة السفير رشدي وحشتني يا راجل.

- حمد الله ع السلامه.

- عاوزك في موضوع مهم.. سأمر عليك غدا ضروري.

أعطيته العنوان، ولم أسأله من أين جاء برقم هاتفي، وأنا لا أستعمل هذا الرقم المصري إلا حين أجيء إلى القاهرة، ومنذ الثورة وأنا أتنقل من مكان إلى آخر، بالإضافة إلى المهمات الدبلوماسية التي أقوم بها.

عملي كسفير جعلني على قرب شديد من متخذي القرار، أعرف ما يدور، لكنه وللأمانة أكسبني برودا، ومكرا لم أتعودهما حتى الآن، وأنا ابن القرية «اللي في قلبي على لساني» كما كان يردد أبي.

- كن صريحا تكن واثقا يا ولدي.

أنا لا أستطيع أن أكون صريحا الآن، هكذا تتطلب مهنتي التي أمضيت فيها أكثر من ربع قرن، مهنة الدبلوماسي، مهنة المراوغة، أذكر أنني عانيت كثيرا في السيطرة على لساني خصوصا إذا وجه أحد إليَّ سؤالا عن النظام.

كنت شديد الكره للنظام الحاكم، وغير مقتنع به إطلاقا وكثيرا ما تمنيت أن أكتب مقالا أنتقد فيه أداءه بل أداء وزارة الخارجية نفسها.

لكن كلما هممت بالكتابة ولو من باب تفريغ الغضب تذكرت معاناتي في القرية، وتذكرت ذلك الحلم الذي دخلت من أجله امتحان الوزارة أكثر من مرة حتى نجحت، ولولا توسلي لشخصية كبيرة تولت وزارة الخارجية فيما بعد ما دخلت وأنا ابن الفقراء.

منذ أن وطأت قدماي مبنى الوزارة العريق الساكن على الكورنيش وارتديت البدلة ورابطة العنق، انصهرت في أروقتها، ذبت في طرقاتها ومكاتبها لدرجة أنني كنت آتي إلى العمل أيام العطلات.

فـي هذا المبنى كنت أشـعر بقيمتي التي ظللـت أفتقدها طيلة عمر مضى.

مع الوقت تعمدت نسـيان الماضي كاملا، تعمدت الابتعاد عن كل ما يذكرني به، ولما توفي أبي ومن بعده أمي طلقت القرية بالثلاثة.

أحيانا أشـتاق إليها كثيرا، أحن إلى رائحة طينها، وروث مواشـيها، أشتاق إلى خضرة القمح في الحقول ورائحة أزهار الليمون في الربيع، كل أحلامـي التـي تأتيني في المنام تدور أحداثها في تلك القرية، حتى بيـت أبي القديم الذي ولدت فيه هو المـكان الذي يحضر بكل جلاله وبؤسه في منامي.

مـع الوقت انتميت لطبقـة أحببتها، صحيح أنني لسـت منها لكنني الآن أشبهها، بل تنطبق بالكلية على ملامحي، أناقتي، لكنتي الإنجليزية التي حيرت الإنجليز في أصلي.

قال لي أحدهم من لم يعرفك يعتقد أنك ولدت هنا في الغرب.

لم أسأل نفسي هذا السؤال كثيرا:

- هل ما فعلته في حياتي جحود تجاه قريتي وأهلها؟

ربما معرفتي للإجابة جعلتني أهرب.

حتى زملاء الجامعة أمثال «سليم» وغيره لم أفكر في أن أسأل عنهم يوما، ولا عن غير أولئك الذين حققوا نجاحات من أبناء دفعتي، ولو قابلتهم بالصدفة نتبادل الود المؤقت وينتهي الأمر.

ليس جحودا إذن، ربما إخلاصا لحلم ما زال في محطاته الكثير ليكتمل، وما زال يحتاج الكثير من الجهد.

الانشغال بالذات أهم من الانشغال بالآخرين حتى لو سماها البعض أنانية، أنانية النجاح هي نجاح، هذه قناعاتي التي حركتني.

منذ وقت طويل لم أختلِ بتلك الذات، تماما كالذي لم يسمح له الوقت بالنظر إلى المرآة لفترة طويلة، وحين تواجه صدفة مع صورته في تلك المرآة اكتشف وجها آخر وملامح أخرى، لم يتابع لحظات تكونها. «فريدة» زوجتي، «ملك» ابنتي أصبحتا خواجات لا تريدان المجيء إلى مصر، اختارتا إسبانيا لقضاء عطلتهما، وجئت أنا مجبرا لإنهاء كثير من التزامات العمل، والمأموريات الداخلية.

حين أتجول في تلك الشقة التي لم أغيرها منذ زواجي أشعر أن الحيطان تشيخ أيضا بل وتشيب مثلي تماما، كثير من الشعر الأبيض يحتل رأسي، كما يحتله كثير من الأفكار العجوز والشائخة أيضا، خُلقت رؤوسنا لتُحتل!

ابتسمت بسخرية ورحت أكمل المرور كضابط درك يتفقد جنود سريته، الصور المصلوبة على الحوائط كانت كجنود الدرك أمام ضابط متجبر في صباح شتائي قارس البرد، كانت منكمشة.

أتأمل نظرتي وأنا أتسلم شهادة من عميد الكلية، مضحكة هي سذاجتنا، من هذا الذي أندهش أمامه كل هذا الاندهاش؟

صورة أخرى وأنا بجوار عروستي برابطة العنق الضخمة المضحكة التي اشتريتها من أحد المحال في سليمان باشا بوسط البلد.

أتذكر حين لبستها أول مرة أحسست أنني رئيس جمهورية وليس عريسا.

أين هذه الأحاسيس البريئة؟

وما الذي يجعلها تتلاشى أمام وعي ماكر جديد يغزونا مع الأيام؟

نترك أنفسنا للتكلف والافتعال تحت مبدأ «البرستيج»، ونرى براءتنا تموت أمام أعيننا وتلقائيتنا تُمحى ولا نتحرك.

تمنيت أن أكتب رواية تدور كلها عني، عني أنا الذي لست واحدا، أنا «رشدي الشيخ» الذي أصبح أشخاصا كثيرين، أنا الطفل، وأنا الشاب، وأنا الطالب، وأنا القلق بأحلامه، وأنا الآن، أنا الذي أصبحت مثل الكمبيوتر مرهونًا بتلقي الأوامر.

حتى المشاعر باتت تأتي عبر ضغطة زر، كل شيء محسوب، وكل شيء من أجل أحلام لا أدري نهاية لها.

أحيانا أقول سأنهي سيرتي الذاتية ومسيرتي بلقب وزير للخارجية، ثم أتحرر من كل هذه القيود لأعود إلى نفسي مرة أخرى أفتش فيها عن أوراقي القديمة، أقرأ ما فاتني، وأكتب ما تمنيت أن أكتبه.

أنا مشروع كاتب تخلى عمدا عن موهبته حتى لا تفسر كتاباته يوما ضده فتكون عائقا أمام مسيرته.

كل شيء نذرته من أجل حلم أن أكون سفيرا، ولما تحقق الحلم أصبح ضيقا عليَّ، فتحرك ترمومتر الطموح إلى مقاس أكبر، كرسي وزير، وسيتحقق، كل رؤسائي يحضرونني لذلك، وأعرف أنني يوما سأكون وزيرا كما أعرف أنني يوما سأشعر أن لقب وزير يضيق عليَّ، وأعرف أنني وقتها سأبحث عن لقب آخر.

وقفت أمام آخر صورة كانت على الجدار المؤدي إلى حجرة النوم، صورة جمعت فريق المسرح بالكلية وأنا أقدم تحية للجمهور في ختام عرض مسرحي ناجح.

اشتقت للوقوف على خشبة المسرح مرة أخرى كمخرج، وأنا الذي رغم مهامي وانشغالي لم أترك خشبة مسرح من المسارح العالمية إلا وزرتها، وأطلقت خيالي وأنا أتابع أشهر العروض لأرى نفسي فارسا على المسرح مرة أخرى، أعيد رسم مساحة تلك الخشبة، أقيسها بالسنتيمتر، وأعيد تحريك الممثلين، أصمم الديكور بنفسي، ولون الإضاءة، وحتى الملابس.

قالت عني يوما الناقدة الشهيرة: انتظروا هذا الاسم، سيكون علامة فيَّ المسرح المصري، اكتشفت أنني كنت أعشق المسرح لأنه يرضي في شيئا دفينا وهو خلق حياة وهمية أعجز عن خلقها في الواقع، تحقيق أحلام أيقنت بعدم تحققها.

أعيش حياة مع شخوص رواياتي لأنني لا أضمن إن كان ذلك الواقع سيسمح لي بعيشها بشكل حقيقي أم لا.

كنت دائما أشعر أن تلك المسافة الصغيرة على المسرح هي دنيا واسعة، وحين أقف وأمد النظر إلى آخر كرسي في صالة المسرح أشعر أنني حصان عربي جامح ومكبوت، يريد أن يرمح بكل قوته ويملأ الأرض صهيلا.

كالعادة ضحيت بالمسرح ضمن ما ضحيت به من أجل أن أكون ما أنا عليه الآن، أكون مسجونا في بدلة أنيقة ومنصب متحجر، أتحدث بما يريدونني أن أتحدث به، حتى رأيي الشخصي لا أستطيع البوح به ولو لابنتي.

ولكن هي العادة الكئيبة التي ربتني، التضحية بكل شيء من أجل شيء واحد فقط..

أخاف أن أكتشف بمرور الوقت أن هذا الشيء الواحد فقط لا يستحق.ان

***

إلى السرير وصلت، هو نفسه القديم، وأنا لست نفسي، كل شيء يحمل طبيعته، طينته حتى لو شاخت قليلا، بهتت، لكنها هي، ذلك الفراش الذي حمل اللقاء الأول بزوجتي «فريدة عزيز الراوي»، ابنة واحد من شيوخ الدبلوماسية.

اخترتها، بل بحثت عنها ضمن مشروع كبير، فبسبب أبيها تدرجت، قفزت قفزات لم تُكتب لكثير من الزملاء، بل كنت المدلل دائما.

اقتربت منها في إحدى مناسبات الوزارة، بذلت كل جهدي وسخرت كل إمكاناتي لشد انتباهها، كثير من الظُّرف، والشياكة، وساعدني مظهري، قامتي الممشوقه، وجهي الذي يحوي خليطا بين الحَمار المختلط بالسمرة، وعينان ورثتهما عن جدتي بخضرة مختلطة بالبني، كنت أعرف أنها ستعجب بي، وأنا الذي عشت معشوقا للكثيرات في الجامعة وخارجها.

حين تحدثنا أثناء البوفيه، أحسست أن محطة جديدة في قطار الأحلام قد تحققت، لم يمر عام حتى كنا زوجين.

وعلى هذا الفراش جمعنا اللقاء الأول، كنت مفتعلا شياكة وأناقة تمنيت أن أكسرها.

ليلتها قلت لها:

- لا تشغلي بالك.. نحن متعبان وعلينا أن نرتاح.

كانت قلقة.

وهكذا تعودت أن أظهر ما يوحي بشياكتي وفقط، رغم أن الشياكة الحقيقية التي عرفتها في أوربا أن تكون على طبيعتك.

مسحت الفراش بكف يدي، وكأنني كنت أصافحه بعد غياب طويل.

أحسست أن شيئا ما يحدث لتلك الروح التي تستيقظ من ثباتها، أو تريد تكسير زنازينها.

رغم سعادتي البادية تلبسني خوف لم أعرف سره.

استلقيت فاردا قامتي، فشعرت أنها تتمدد لتخرج من أطراف السرير تتخطى حدود الغرفة، إلى صالة الشقة، ثم تتمدد خارجها، تطوف حواري القاهرة، تطير بمحاذاة النيل لتحط فوق الهرم، كطائر الفينيق التاريخي، يبحث عن بعث جديد.

***

2

غريب هو ريش النوم يظل عالقا بالأهداب، محتلا المآقي حتى بعد استيقاظنا!

النوم يحتلني الآن كالذكريات الساخنة التي لم تنجح الأيام ولا الزمن في تبريدها أو إزاحتها قليلا عن واجهة الحضور.

فتحت الباب ببطء خفت أن يفسره «سليم» على أنه بُخل أو رغبة في عدم قدومه، لماذا ظللت نائما حتى هذا الوقت الذي يسبق مجيئه بقليل؟

كان عليَّ أن أستيقظ مبكرا لأرتب نفسي، أو أزيح عني تراب الأرق المتغلغل في المآقي والجفون.

بدا متحفظا، حدجني بنظرة عابرة كأنه لم يكن معنيا كثيرا بكشف ملامح الزمن على ملامحي.

قبل أن أمد يدي لمصافحته حدقت فيه كثيرا خصوصا وجهه.

شدني ما يحمله في كلتا يديه.

أقفلت عدساتي الراصدة ورحبت به.

إلى غرفة الصالون أدخلته وغادرت إلى الحمام، أغرقت وجهي في الماء البارد لأستوعب هذا الكم من التغير الذي طرأ على «سليم».

ما عاد ذلك الشاب الرياضي بقامته الطويلة وشعره الأسود وعنفوانه الظاهر، انحنى، انزاح شعر رأسه إلى الوراء تاركا صلعة متصدرة لجبهته ورأسه، ما بقي من شعره غرق في بياض مختلط ببقايا صبغة بنية باهتة.

العينان اعتراهما الذبول والوهن كأنهما لم تذوقا طعم النوم منذ سنين.

لم يبقَ من «سليم» القديم سوى جاكيت الجلد الأسود الذي ما فارقه وهو طالب.

خرجت إليه مسرعا حتى لا يفسر غيابي على أنه عدم ترحيب.

كان متحفظا، تحدث معي وكأنه يتحدث إلى مسئول حكومي، تحاشى النظر إليّ.

قدم علبة الشوكولاتة التي كان يحملها وترك قريبا من قدمه اليمنى شيئا ملفوفا بعناية في كيس ورقي أنيق.

أعدته إلى ذكريات الزمن الجميل، أردت أن أساعده على التخلص من جموده ورسميته، عاد إلى ما يشبه «سليم» الذي كانه، عَلت ضحكاته كأنه لم يضحك من قبل، تتقافز الضحكة من حنجرته وكأنه يبحث عن صوتها أو كأنها هي تشق لها مخرجا نسيته مع الأيام.

ارتاح إلى الوراء بعد أن أفرغ كوبا من الشاي بنفس طريقته القديمة، تنهد، صمت قليلا وكأنه سيلقي بيانا حربيا.

- أنا عاوزك في حاجة مهمة جدا.

بتلقائية الاهتمام اعتدلت، حدقت فيه وتركته يحكي، كان الذي في خاطري أنه يريد مساعدة مالية، أو وظيفة أو حتى مشروعًا كما كنا في السابق، وربما الذي كان يجعلني أصدق توقعي تمهيده الطويل عن وضعه وحاله.

قال لي إنه ظل لفترة طويلة رافضا فكرة الزواج، ولما شعر بأن العمر بدأ يُعمل فأسه في ملامحه عاد إلى بلدته في «رأس غارب»، تزوج فتاة من هناك، لكن الأمر لم يستمر طويلا فقد طلقها بعد أن أنجب منها طفلا.

منذ سنين فتح بازارا في إحدى القرى السياحية في الغردقة وربح وخسر كثيرا، لكنه كان سعيدا بمهنته التي يفهم فيها جيدا، وبعد الثورة توقفت السياحة وتراكمت الديون، ظل يقاوم حتى وصل إلى درجة باع فيها كل شيء حتى المحل الذي ظل سنين طويله يكافح من أجل الحصول عليه.. بعدها قرر أن يغادر مصر.

أوقفت هذا النزف؛ لأن ملامحه كانت تشي بأنه سينفجر باكيا أو صارخا.

تعابير الوجه تتصاعد مع موجات البوح، كرمشات الوجه، جريان الدموع في المآقي ثم رفضها السقوط، صوته الذي يأخذ ألف «تون»، عرضت عليه المساعدة:

- أنا تحت أمرك تحب فلوس أي شيء.

- لا.. أنت فهمتني غلط.

جاء رده في عجلة كأنه يزيح عنه شيئا سقط فجأة..

وأكمل..

- القصة فيما بين يدي!

مد يده حمل تلك اللفافة التي وضعها على ساقه وكأنه يريح طفلا صغيرا، قشر عنها أوراقها، فظهر صندوق بحجم وسادة صغيرة، صندوق خشبي مرصع بالنحاس الأصفر، تحدده مسامير ذهبية من الأطراف.

لا أدري لماذا تلبسني هذا الخوف؟!

- ما هذا يا سليم؟

أجاب بهدوء المستريح:

- لا تقلق، ليس فيه شيء مخالف أو يضر بمركزك، هنا قصة كبيرة، ليس لديَّ ذلك الرأس الذي يتسع لمثل هذه الحكايات، أشعر أن هذا الصندوق يحوي شيئا شديد الأهمية، لست خالي البال لأهتم بما يجود به الماضي، أنا مهموم بالحاضر الكئيب.

ماذا في داخل الصندوق؟

نظر إليَّ وأزاح وجه الصندوق إلى أعلى وتركه يستريح على [illegible]، أخرج لفافات من جلود أسطوانية الشكل وقال:

- هذا الصندوق جاء به أحد البدو، قال لي إنه اشتراه من شخص ويبغي بيعه فاشتريته وكلما أردت أن أبيعه ترددت، ورغم أزمتي المالية إلا أنني رفضت بيعه خصوصا بعدما بدأت أتأمل ما في هذه اللفافات، هي حروف مكتوبة بطريقة ملتوية وغريبة، لم أستطع أن أفك طلاسمها.

- ماذا في هذه الأوراق؟

اعتدل قليلا، فرد اللفافة الأولى أمامه، وراح يتأملها، فبدا كعالم أثري محترف، وهو يميل برأسه إلى اليمين وإلى اليسار ليتخير زاوية لاقتناص الحرف وقال:

- الأحرف باهتة والكلمات متآكلة، ورغم ذلك جلست أيامًا طويلة ألملم بعضها. لم أستطع أن أكمل لذا حين عرفت من صديق قديم يتابع أخبارك أنك عدت إلى القاهرة في عطلتك قلت لنفسي أنت الوحيد القادر على فك شفرات هذه المخطوطات لعلمي بشغفك القديم بهذا المجال.. أتذكر أنك لم تترك ورشة للتعامل مع المخطوطات إلا وحضرتها ما زلت أذكر جملتك: في الأزمنة الماضية القديمة شيء غريب يشدني ناحيتها. تذكرت ما كنت تحكيه عن قريبك المتخصص في المخطوطات كنت معجبا به. أذكر بعد أحد العروض المسرحية وكنت تلعب دور أمير قديم همست في أذني: في داخلي شيء ملكي، أشعر أنني كنت أنتمي إلى سلالة ملكية. لم أكن أمثل دور الأمير بل كنت أعيشه، في داخلي أمير يسكنني.

عـدت بخيالـي إلى ذلـك الوقت وتلـك الذكريات، لم يسـمح لي بالاستغراق في الماضي بل أعادني إليه مرة أخرى.

- أنـت الـذي يؤتمن علـى هذا الصنـدوق وما فيه. وأنـت الوحيد الذي إن اكتشف أن هناك أهمية لهذه الأوراق لن يبخسني حقي.

فـور إنهاء جملتـه الأخيرة ألقى بظهـره إلى الوراء واسـتراح، كأنه ألقى بحمل كان يثقله.

أخـذت بعضا من هـذه الأوراق ورحت أتأملهـا، كانت تفوح منها رائحة غريبه خانقة، لا أستطيع وصفها أو تحديد ما يشبهها.

لفافات الجلود أخذت شكلا أسـطوانيا، فردت واحدة أمام عيني، أحسست أنني في مواجهة مع مجهول مريب، وأحيانا مخيف.

الحبـر المكتوبـة بـه الحـروف تداخلـت ألوانـه، بيـن زرقـة داكنة وبنفسـجي، الألوان داكنة لكنهـا راكزة، ثابتة، ليسـت حبرا يذوب من أطرافه.

راح الفضـول يلضم الحروف عله يجـد إجابة تريح قلقي، وتهدئ لهفتي.

- هل فكرت في استشارة أحد الأثريين؟

أجاب بقرف:

- ليـس لـدي الوقت، ولا طولة البال، كل الذي كان في رأسـي ألا يُكتشـف أمـر هذا الصندوق فيؤخـذ مني، ولا أحصل علـى حقي وأنا الذي دفعت فيه مبلغا كبير.

أحسست أنه يلمح لي، بأنه يريد بعضا مما دفعه، وجدتها فرصة لأن أساعد صديقا قديما في أزمة كهذه.

- بكم اشتريته؟

ألقيت السؤال دون أن أنظر إلي وجهه، حتى لا يعرف ما أفكر فيه.

- ليس مهما ما دفعته المهم أن نعرف حقيقة هذه اللفافات.

تركته ودخلت غرفتي، تناولت مبلغا كان موضوعا على طاولة صغيرة، وعدت إليه وقد بدأ يحضر نفسه للرحيل. وضعت هذا المبلغ في جاكته الجلد مبتسما.

- هذا لك ولو نجحت في معرفة حقيقة هذه الأوراق سأخبرك لنلتقي ونرى ماذا سنفعل.

رفض في البداية أن يأخذ أي مبلغ، لكن أمام إصراري وافق، قبلني وغادر، أغلقت الباب، وعدت أنظر من بعيد إلى هذا الصندوق، أتأمل كل تفاصيله، أتحسس كل مسمار فيه وقطعة خشبية، كان أنيقا جدا، مصنوعا بعناية فائقة، أفتحه، ثم أغلقه، ثمة فضول وكثير من الخوف.

أشعر أنني في مواجهة مع شيء مجهول، اختارني أنا ليحط بعد تحليق السنين في مطاري ودون أي إنذار بالهبوط.

***

أزحت كل ما كان على طاولة الطعام، حملت ذلك الصندوق اللغز، وضعته في مقدمتها، أخرجت ما في أحشائه، تلك اللفافات

الأسطوانية بكامل رائحتها الخانقة، فردت كل لفافة واضعا فوقها أكوابًا على الأطراف لتبقى مفرودة علها تتخلى عن اعوجاجها.

أتذكر ذلك المشهد الذي تكرر كثيرا في الأفلام التاريخية حين يستلم السلطان رسالة يفردها بكلتا يديه وبمجرد تركها تلتوي على نفسها بتلقائة غريبة، كأنها خلقت لتخفي ما بداخلها!

تحوي كل لفافة من اللفافات العشر عشر لفافات أخرى داخلها، لتكون في مجملها مائة ورقة جلدية ممهورة بهذه الحروف الباهتة.

مع كل واحدة كان فضولي يسبقني مستعيدا ما بقي في الذهن مما تعلمته عن علم المخطوطات عله يساعدني في الوصول إلى عنوان عريض يشي بما تحمله تلك اللفافات المخطوطة، لكن كلها متشابهة، لا فرق بينها سوى ما بدا أنه تبويب.

كانت كل لفافة تحمل إشارة تدل على تسلسلها، فردتها حسب أولوية ترتيبها، وقفت بعيدا أنظر إلى الطاولة وما عليها من لفافات كأنها وليمة تكفي لجيل كامل شاءت الأقدار أن تكون لي فقط.

كيف لي بها وأنا المتعب بوهم الشبع، أنا الذي نذر نفسه للحاضر وفقط؟

استدرت ناحية هاتفي الذي أتعبه الرنين ليأتيني صوت «فريدة» زوجتي محملا بكثير من اللوم والعتاب، كيف أغيب عن عطلتها السنوية؟

كيف أتركها وابنتي وحيدتين في إسبانيا أجمل بقاع الدنيا؟

ابنتي متعلقة بي كثيرا، ربما لأنها وحيدة، ربما لأنني أعطيتها جميع عواطفي المؤجلة.

كلما مر الوقت أشعر أن زوجتي جاءت ضمن مشروع كامل، حلقة من حلقات الطموح، سلمة من سلمات الوصول إلى أحلامي.

مع الوقت أكتشف حنينا ورغبة في أن أكون مع زوجة وفقط، يطفو توقي لقصة حب فوق جميع رغباتي، وفي أحايين كثيرة يحتلني، بل أوقعني في مطبات للعشق برغم جمالها كانت خطورتها أكبر.

«فريدة» زوجتي امرأة تستمد جمالها من شياكتها وأرستقراطيتها، غارقة هي حد التكلف الممل أحيانا، تراعي متطلبات تلك الطبقة بكل تفاصيلها، في حديثها، مشيتها، في ملابسها، كل شيء خاضع لمعاييرها الخاصة.

حين رأيت وجه «ملك» ابنتي أول مرة، أحسست أنني رزقت بحبيبتي، عادت لي أمي بحضنها، بخبزها الدافئ حين يخرج من فرن القرية في الصباح.

كلما كبرت ابنتي، اقتربت منها أكثر حتى أصبحنا صديقين وحبيبين.

هي الآن في الصف الأول الجامعي، خليط من الشرق والغرب، أخذت لون عيني بخليطهما البني والأخضر، ولون بشرة أمها، لون القمح في الحقول، لون وسطي بين الأبيض والأسود، واستعارت قامتي المفرودة بكاملها وتقاسيم جسد أمها.

أما الطباع فكانت ماكرة، حين تكون مع أمها تلبس ثوبها الأرستقراطي، تصبح نسخة منها، وحين تكون معي تتحول إلى «بنت بلد جدعة».

تغرق في بساطة لا تختلف عن بساطة أمي وأهلي في القرية.

هي الآن تجلس مع أمها بعيدة عني، في عطلة لطالما خططنا لها، لنكتشف وهج إسبانيا، وعمق تاريخها، ما كنت أدري أن التاريخ سيجيء إلى منزلي «دلفري» ويجلس على طاولة طعامي يتربص بي، يطل إليَّ بتحفز كبير.

اعتذرت لزوجتي:

– آسف لن أستطيع القدوم إليكما.. استمتعا بوقتكما جيدا. لقد تم تكليفي بمأمورية صعبة لن أستطيع البوح بها.

صمتت، كظمت غيظها، هي تدربت على تحمل أعباء مهنتي وهي ابنة واحد من شيوخ الدبلوماسية في مصر، نشأت في بيت وبيئة دبلوماسية بامتياز، شربت من حكايات أمها ووصاياها.

«زوجة الدبلوماسي تصبح دبلوماسية أكثر منه».

جمل كثيرة كانت تبعثرها في البيت بين الحين والآخر، كنت أفهمها وقتها على أنها تريد دائما أن تذكرني بأنها شريكة في النجاح الذي وصلت إليه، بل كانت الجرعة تزيد أحيانا لتتحول إلى أنها سبب النجاح، خصوصا في أعياد ميلاد والدها كانت تردد دائما:

– لولاه ما وصلنا لما وصلنا إليه.

كان عليَّ دائما أن أبتسم، وأؤكد ما تقوله بل أزيد عليه.

لا أدري لماذا تسرعت في الاعتذار عن الالتحاق بهما؟

كنت في أمس الحاجة لهذه الرحلة وأنا المتعب منذ أعوام كانت من أصعب الأعوام على مصر كلها.

دخلت إلى المطبخ أفتش عن أرقام الخادمات التي كنا نستعين بهن حين نأتي، عثرت على ذلك الدفتر، كانت عليه أكوام من الصراصير، رائحة المطبخ كريهة، قاتمة، تشبه رائحة وليمتي الأثرية.

بلا أي مقدمات أصبحت محصورا بين رائحتين كريهتين واحدة تأتيني من الماضي والأخرى تأتيني من المطبخ.

وجدت الأرقام وبجانب كل رقم اسم صاحبته: أحلام، نعيمة، سميرة.

لم تسعفني الذاكرة لاستحضار أشكالهن، لا فرق بينهن، المهم أن أعيد هذا المطبخ إلى ما كان عليه.

رحت أتنقل من رقم إلى رقم حتى ردت إحداهن، ثرثرت كثيرا، أخبرتني أنها ستأتي صباحا.

لفتت نظري تلك الورقة المعلقة على باب الثلاجة وعليها أرقام المطاعم الشهيرة، تركزت عيناي على أحدها، وعادت ذكريات مليئة بالأطباق الشهية، قفزت إلى أنفي رائحة الملوخية والحمام، وموزة بالفتة.

لـم يمضِ وقت طويـل حتى كانت هذه الأطبـاق أمامي، رصصتها على طاولـة الصالـون، تـاركا طاولـة السـفرة الكبيـرة للمخطوطات المثيرة.

مـلأت معدتـي والباقي وضعته فـي الثلاجة ليوم آخـر، أكلت كما لـم آكل من قبل، وبيـن الحين والآخر كنت أحدق فيمـا ينتظرني على الطاولة الأخرى.

ظهرت المخطوطـات بلفافاتها كأنها امرأة تغرينـي، تتلألأ أحيانا، وتتمايل أمامي لتغويني.

أمام كوب من الشـاي، وعلى وقع إضاءة سـلطتها على مساحة كل لفافة جلست حتى الصباح، أحاول أن أفك التباسات الحروف، ألملم بعض الجمل.. لكن كيف لتلك الذاكرة التي فرمتها طاحونة السنين أن تحتفظ ببعض معلومات تعلمتها في بداية العمر.

هنـا حضـر بـكل وقـاره الدكتـور «عبـد النبـي الهـادي» بدقتـه وموسوعيته، وتساءلت كيف هو الآن بعد كل هذه السنين؟

هـو واحد من القلائل المشـهود لهم في هذا العلـم، تربطه بي قرابة مـن ناحيـة أمي، لذا حين جئت إلى القاهرة للدراسـة فـي الجامعة كنت دائم الزيارة له وهو صاحب فكرة التحاقي بدورات كان يعقدها عن علم المخطوطات، ومع الوقت تحول الأمر بالنسبة لي إلى وسيلة للرزق.

حيـن افتتحت مكتبة الإسـكندرية رحل عن القاهـرة ليعيش هناك، بعدها ذاع صيته أكثر وانتشر.

ومع دوران العمر اكتفى بالجلوس في البيت والاشتغال على بعض الأبحاث والدراسات.

بين الحين والآخر أتواصل معه عبر الهاتف فيأتيني صوته مبحوحا متعبا، وفي ختام كل مكالمة أعده بزيارة ولم أحقق ذلك الوعد حتى الآن.

بعد هذه الوليمة الدسمة من المخطوطات بات الذهاب إليه أمرا مصيريا، فهو وحده القادر على فك رموزها وشفراتها.

***

لم أفق إلا على جرس الباب، جاءت الخادمة ومعها النهار.

أذكر أنها ثرثرت كعادتها لكنني كنت أرى فمها يتحرك فقط، لم أسمع منها شيئًا، تعرف المكان جيدا، دلفت إلى المطبخ، طلبت منها عدم الضوضاء لأنني أريد أن أنام، أعطيتها أجرتها وزيادة، حتى لا تضطر لإيقاظي بعد إنهاء عملها.

دخلت غرفتي، ألقيت بنفسي على السرير، رحت في النوم وأنا محمل بأحلام وكوابيس كلها من وحي ما قرأت.

***

المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية تشبه سرحة خيال متعب، المدى المفتوح على الطريق الصحراوي، انفلات السيارات وعربدتها، كلها محرضات على الاستسلام للخيال والتذكر.

تعـود تلـك الكـرة الخفيفة إلـى الرأس مـن جديد، تترجـرج على الكتفين تريد السقوط، لماذا الانجذاب إلى تلك اللفافات؟

لماذا يأخذ الفضول منتهاه إلى هذه الدرجة؟

لمـاذا لا أعيد الصندوق إلى صاحبه بما فيه من أسـرار وأسـتريح، لسـت فـي بـراح العـودة إلـى الماضي وأنـا المطحـون علـى تغيرات وتعاكسات الحاضر.

لتكن مغامرة اللحظات الفارقة، المغامرة الفاصلة بين تاريخين.

إلـى باب شـقته وصلـت، حملقت فـي حروف الاسـم المخطوط باللـون الأسـود على رخامة بيضـاء مثبتة على الحائـط: «الدكتور عبد النبي الهادي».

لم يكن الاسم مسنودا على أي مناصب كما يحلو للبعض، هل هو إصـرار على التواضع، أم إنه تمادٍ في الغرور، باعتبار أن الاسـم وحده كفيل بالبوح بكل المناصب.

حين فتح الباب، لم يكن هناك ما يشي بالدكتور «عبد النبي» سوى بعض السـمت المخفي خلف شـيخوخة ونظارة سميكة وعصا تمنعه من السقوط.

فـي الصالة التي تفسـح زاويـة لزرقة بحـر الإسـكندرية بالحضور جلسـت في مواجهته، أعيد مقارنـة بين الدكتور «الهادي» القديم وبين الجديد.

هو ذلك الفرق بين سنبلة القمح وهي خضراء يانعة لم تنضج بعد، وبينهـا بعـد أن جفت وأخذت لونـا أصفر قبيل بدء الحصـاد، الزوال، التحول في الكيفية والفائدة.

أغرقني بتساؤلات المُحب..

عن أحوالي، وزوجتي، ووظيفتي.

إخوتي.. أخواتي..

الناس في القرية..

كل شيء.

لم يكن في ذهنه أي بوادر لسـؤاله عما علمه لي في المخطوطات، هو يؤكد لي أنها محض تجارب عابرة.

لم آخذ كامل الصندوق معي، وإنما انتقيت بعض اللفافات وخبأتها في حقيبة صغيرة.

بعد فنجان شاي ساخن اقتربت منه لأسهل على أذنه المتعبة سماع صوتي، حكيت له ملخصا سريعا للقصة التي انتهت بوصول الصندوق إلى بيتي، كانت ملامحه تتدرج في الاهتمام ثم الفضول:

- هل معك شيء منه؟

أخرجـت بعضا مـن اللفافات سـلمتها إليه، عـدل نظارته، وغرس عينيه إلى آخرهما في جسد الأوراق وصمت..

وقف فجأة ودلف إلى غرفة مكتبه وأنا خلفه، وضع الأوراق أسفل أباجورة قديمة، كانت منحنية على مكتبه، أمسك بعدسة مستديرة وراح يقربها من الحروف.

كان وجه الدكتور «الهادي» كشاشة تلفزيون تبوح بكل الحكاية،

وجه يتكرمش على نفسه اندهاشا..

وجه يمتلئ باحمرار الفرحة.

بدا لي أحيانا أنه نسي وجودي، أو تناساه.

مثل جواهرجي عثر على جوهرة.

«رشدي الشيخ».

أطلق اسمي في فضاء غرفة مكتبه كأنه يذكرني باسمي الذي لم أسمعه منذ فترة، اقتربت منه عله يكمل جملته، قال:

- أنت أهديت لي تحديا لطالما حلمت به قبل أن أموت، تحديا يقتل روتينية الحياة اليومية، والاكتفاء بنجاح الأمس، يا ولدي البشرية كلها أمام حكاية تتكشف لأول مرة، تبوح بسرها بلسانها هي..

انهالت أسئلتي:

- من أي زمن تلك الأوراق؟ وأي حكاية تقصد؟

رفع يده في موازاة فمه، وكأنه يغلقه من بعيد:

- لا تتعجل الأجوبة، فكل إجابة تحتاج مجهودًا بحثيا لا نقدر عليه بمفردنا.

أخـرج هاتفا محمولا قديمـا، قلب في أزراره فأصدرت طنطنة، ثم طلب رقما، وراح يحكي:

- عندي وليمة، تطلبك بالاسم، ولا تتحمل التأخير ساعة واحدة.

أغلق هاتفه، ألقى بظهره إلى الوراء:

- هـذا الدكتور فراج البيومي، واحد من أنبـغ تلامذتي، يعتبر الآن مـن أهم علماء المخطوطـات في العالم، يعيش في القاهرة، يعمل بين التدريـس فـي الجامعة ودار الكتـب المصرية، ولـه بعض الإصدارات الروائية، في الطريق الآن إلى هنا، علينا أن نحضر الغداء ليكون جاهزا فور وصوله.

***

هي سـاعات قليلـة وكنت أتوسـط الدكتـور «البيومـي» والدكتور «الهادي» وبيننا وليمة من أسـماك الإسكندرية وفي الفضاء يمتد البحر بزرقته، وغموضه.

الشرفة كأنها معلقة في الفضاء بين سماء الزرقة وبحر الغموض،

لـم ينتظر الدكتور «البيومـي» انتهاء الوليمة، بـل تعجل ودلف إلى غرفة المكتب، حيث تستكين اللفافات على سرها، أسفل الأباجورة.

لملمـت ما بقي من الطعـام، ودخلت إلى المطبـخ العجوز، وقف خلفي الدكتور «الهادي»، وبين أصابعه تغلي القهوة.

حملت الصينية وعليها فناجين بعددنا، جلسـت على مقربة أستمع لبوح عالمين كبيرين، وأتابع اندهاشهما.

انشغلا بتحديد الحقبة الزمنية وانشغلت أنا بتطاير بعض رذاذ حكاية من فرط جاذبيتها تمدد حب الفضول إلى منتهاه، بلد اسمه «البلد الكبير» يفنى على مقصلة أجيال ليست جديرة بأبويته.

وضع الدكتور «الهادي» خططا للعمل يعكف عليها مع الدكتور «البيومي» الذي قرر أخذ عطلة طويلة، والسكن مع الدكتور «الهادي» في منزله ليعكفا على تحقيق هذه المخطوطة.

اقتصر دوري على العودة إلى القاهرة والمجيء ببقية اللفافات ومعها الصندوق، لأنه سيكون فانوسا مهما للوصول إلى معرفة ما احتواه.

قبل المغادرة، طلبت منهما حق سرد الحكاية، وتفاصيل القصة، وأن أترك لهما بقية المعلومات العلمية والمرحلة الزمنية، وقتها لا أدري السر الذي دفعني لذلك؟

كل الذي أشعره أن ثمة شيئا يتغير، يتبدل داخلي.

***

لم يتوقف رنين هاتفي منذ فترة طويلة، لأول مرة لم أعبأ به، وأنا الذي عشت مرهونا برناته، رنات لا تأتي أبدا إلا من أماكن واحدة، الخارجية ومن في الخارجية، ورغم ذلك ثمة سعادة تنتابني دائما حين يرن هاتفي، تحفز لتفاؤل غريب، لا أعرف مصدره، ثمة انتظار في داخلي لشيء كبير لم يحدث بعد، محطات في طريق الأحلام لم يصلها قطار التحقق.

هذه المرة كُشف شيء كان ساكنا في ذاتي، شيء بدأ في التحرك، يعلو فوق تلك الأحلام التي لم تتحقق بعد، شيء له علاقة بتلك المخطوطات التي تدلق أسرارها أمامي في بيتي وعلى أرصفة ذاكرتي.

بلد كامل يصحو من جديد هنا في بيتي، أرواح أجيال ترتص على مقاعد وأركان بيتي كل يريد أن يحكي قصته، وفرحه، وألمه.

كيف لي بكل هذا؟

أنا لست روائيا أو مؤرخا؟

لست أثريا يفتش وينكش في الماضي..

أنا محض رجل نذر نفسه لكل الحاضر والمستقبل معا، رجل مريض بتضخم في غدد الطموح، زيادة في إفرازات الأنانية.

رغم صراخ الهاتف لم أستطع أن أفلت الأفكار التي حاصرتني، محض أفكار فعلت ما فعلته في تلك الروح الظمأى لشيء لا أعرفه.

قاومت حتى نجحت في إيقاف رأسي عن دورانه، التقطت هاتفي الذي تمادى في الصراخ، كأنه طفل نسيته أمه على مقعدها المجاور وهي غارقة في قيادة سيارتها.

بدا كأنه مكشر عن أنيابه..

تأملت شاشته، ستة عشر «ميسد كول» كلها من مكتب الوزير، طلبت فورا الرقم، متحفزا الضخ كم من الاعتذار يليق بتقصيري وتجاهلي.

كانت الإجابة باردة:

- أنت مطلوب فورا إلى مكتب الوزير.

نثرت بعض تساؤلات في وجه المتصل، غطاني ببرود الرد.

- أنت مطلوب إلى مكتب الوزير فورا.

كان يؤكد على «فورا» كأنه يريد قتلها.

اعتذرت منه بلطف طالبا أن يكون الموعد غدا، فأنا مهموم بما هو أكبر من تلك المقابلة العاجلة، عليَّ أن أحمل جثة الماضي وأعود إلى الإسكندرية مرة أخرى، أضعها على مشرحة العارفين بفك شفراتها.

غاب عني الصوت قليلا وترك لي بعض شظايا الحكايات التي تتسرب إليه من مكتبه ثم عاد يعطيني موافقته على التأجيل، مؤكدا بتعسف على عدم التأخير.

حين وصلت إلى شقتي لملمت لفافاتي، رتبتها، أرحتها في بطن الصندوق، كأنني أعيد طفلا مرة أخرى إلى رحم أمه، أو كأنني أعيد عفريتا إلى قمقمه.

نزلت إلى سيارتي، أدرتها، لم أتركها تستريح، وعدت إلى الإسكندرية مرة أخرى.

نفس الطريق الممتد، هرولة السنين على الأسفلت، تحفزي لمعرفة حكاية أسلمت لي نفسها..

لم تكن الإسكندرية بعيدة هذه المرة، أو ربما اعتيادية المرور اختصرت الوقت، واختزلت الزمن.

أرحت الصندوق وما فيه أمام الدكتور «الهادي» والدكتور «البيومي».

كانا كما تركتهما محملقين، مشدوهين، مندهشين، كلًّا منهما يحمل عدسته المكبرة، يقربها ويباعدها عن تلك المخطوطات، ثم يُعيد تسجيل ملاحظات على جملة من الأوراق المستريحة بجواره.

- هل عرفتما شيئا عن تلك الحكاية؟

رميت السؤال وقد سلطت عيني على ما خطته يداهما.

ابتسم الدكتور «الهادي»:

- فككنا رموز مجموعة من الأوراق..

نظر إليّ وأردف:

- كما قلت لك نحن أمام كنز تاريخي بامتياز.

ربت الدكتور «البيومي» كتفي:

- شكرا لك يا صديقي على تلك الوليمة، سنظل أعواما نغرف منها، ستكون كوليمة موسى، تكفي أولنا وآخرنا.

ضحك الدكتور «الهادي»:

- ستكون لأولنا ولآخرنا عيدا.

أخذت تلك الأوراق التي كُتبت بخط يد الدكتور «البيومي»، وانتحيت إلى ركن هادئ..

ارتميت على مقعد عجوز، وأعطيت رأسي كاملا لتلك الحكاية.

***

الورقة الأولى

هذا آخر ما خطه قلمي، وآخر ما فاضت به محبرتي.

يـا من تصل إليك حروفي كن على قدر قيمتها فهي ليسـت محض شخبطات على رقعة جلدية متهالكة.

هـذا مـا تبقـى بعـد الفنـاء، بعـض ممـا تسـاقط مـن دوران عجلة التاريخ.

هذا قدرك يا من استلمت الرسالة أن تسعى لإيصال الأمانة إلى الأجيال الحاضرة ليعرفوا قصة أناس ضيعوا بلدا، ضيعوا تاريخا وضاعوا.

فلتعرفـوا أن التاريـخ ملـيء بالأغبيـاء الذيـن تشـابه الأمـر عليهم فتوهموا أنهم عظماء، ولتعرف أيضا يا من وصلتك رسائلي أن النكران والجحـود والإهمال في توصيل الرسـالة قد يعرضك للعنة الفناء التي أصابت ذلك البلد.

فاحذر الكفر بما بين يديك وانقل قصتنا إلى أبعد مدى علها تكون ذكرى، ودع التاريخ يلعن المتسببين..

لا ترهـق نفسـك كثيرا فـي معرفة العصـر الذي كنا فيـه وكان ذلك البلد الكبير.. فإننا تعمدنا محو كل ما يشير إلى التواريخ.

هـي قصة للماكريـن، والحاقدين، قصـة مَن لم يكونـوا على قدر ما ورثوه، قصة المضيعين للتاريخ وللجغرافيا ولله، إنها حكاية الفارغين.

حكاية «المغضوب عليهم».

***

3

في طريقي من الإسكندرية إلى القاهرة كنت كمَن ضربه مس، زائغا، تائها، مأخوذا إلى دنيا أخرى، حيوات، وحكايات تبعث من جديد.

يلفني الإرهاق وشغف استكمال تفاصيل القصة الغامضة، لكن لا قوة لديَّ على أن أبدل ملابسي، أزيح بعضا من إرهاق روحي وأنطلق إلى مكتب الوزير العجول.

لم تستغرق تلك المسافة من حجرة نومي إلى قلب الشارع الهائج بناسه وضجيجه سوى خمس دقائق، لم أكن قادرا على الجلوس خلف مقود سيارة وأنا المتخم بالقيادة بعد مشاوير «البنج بونج» من وإلى الإسكندرية.

ألقيت نفسي في تاكسي من التاكسيات المنقسمة بين لونين في القاهرة فآثرت أن يكون أبيض.

تذكرت نكاتي لأصدقائي أيام الجامعة، وسخريتي من لون التاكسي في القاهرة، كنت أؤكد لهم أن السياسيين في مصر تعمدوا أن يختاروا هذا اللون الأسود، هم يريدون أن تصبح حياة الناس في هذه المدينة العريقة سوداء.

هم يريدون أن يتماهى سواد الأسفلت مع سواد هذه التاكسيات فيتحول الشارع إلى كآبة مطلوبة.

هم ضد السعادة والفرح، ضد بهجة الناس.

بتلقائية حين وقف أمامي تاكسي من اللون الأسود رفضت، أشحت بغيظ إليه:

- غوورر!

ركبت ذلك التاكسي الأبيض، بمجرد جلوسي كنت لا أزال محتلا بهؤلاء الناس، بحكاية «البلد الكبير» التي كان أول بوحها مشهد موت وفناء.

كنت ألاحظ تساؤل السائق واستغرابه:

- لماذا آثرت الركوب في الخلف؟ المصريون مهما علت مراكزهم يختارون دائما الجلوس بجوار السائق؟

هم يرونه نوعا من التواضع، نوعا من الحميمية، ممارسة الفضول السخيف، أما أنا فأردت الهروب من ثرثرة السائق.

سألني محملقا:

- إلى أين؟

أجبته:

- مبنى وزراة الخارجية على الكورنيش.

انهمرت أسئلته:

- إيه رأيك يا بيه في اللي بيحصل؟

لم أجب عن أي سـؤال، بل تمالكت أعصابـي بعد أن انتابتني نوبة غضب من فجاجته.

أمام باب وزارة الخارجية غادرته، انطلق بعصبية شديدة وأنا رحت أستغرب لماذا لم أستخدم سيارتي الخاصة؟

ابتسـمت، دخلت إلى أروقة الـوزارة بكامل هيبتهـا، في الممرات تبادلت قليلا من التحايا مع من عرفني، كان ثمة إحساس غريب، لم أرَ الوزارة كما كنت أراها أيام تعييني بها أو حتى في أيامي السابقة، كانت باهتة، يغطيها شيء ما بسحابة حزن..

لم أعبأ كثيرا بهذا الإحساس فكنت أحمل بعض التفسير له.

لم أنتظر كثيرا، كان الوزير في انتظاري.

دخلت إلى مكتبه، حملق في مظهري وهيئتي، تفحصني كأنه يراني لأول مرة.

- إنت كويس!

رمى بهذا السؤال وكأنه يقول: «أعرف أنك لست على ما يرام».

هذا الرجل هو صديقي القديم، خدمنا سويا في أماكن كثيرة، دائما يصفني بالأنيق فقد كنت أتعمد أن أشتري ملابسي من أرقى الماركات العالمية.

جمعت خيوط تركيزي أمامه:

- الوضع سيئ ومرتبك، ولا أحد يعرف شيئًا، الكل يقول نفسي نفسي.

- جهات سيادية تريد إجراء تغييرات خصوصا في العواصم الكبيرة، ومضطرين لتغييرك.

أنهى جملته وصمت، قذفها في وجهي، رمى بصره بين ملفاته المكدسة، ربما كان يختبئ مني، ربما أراد أن يهرب من سؤال كان على طرف لسان صداقتنا:

- لماذا لم تدافع عني؟ أنت تعرفني، أنا لست منتميا لأحد سوى نفسي وفقط.

غطتني سحابة من الوجوم، السكون والخرس، لم أستطع تفسيرها.

هل هو حزن؟

- ماذا...

لم أستطع الإمساك بتلك اللحظة، تركتها تحلق بحريتها.

وقفت، محاولا الاحتفاظ برأسي على كتفي حتى لا يسقط، كنت كمن حمل على رأسه طبقا مسطحا من السيراميك وعليه «كرة بنج بونج» لا يريدها أن تسقط. نظر إليَّ بشفقة مبالغ فيها:

-الأمر مطلوب تنفيذه بأقصى سرعة، ستكون هنا بجواري، ستتولى ملفات مهمه لا أثق في أحد غيرك.

- هل يجب أن أسافر لأسلم من يأتي بعدي؟

قال:

- ليس مهما سأتولى أنا الأمر، فقط رتب أمر زوجتك وابنتك وأشياءك هناك.

بادرته بطلب سريع:

- أحتاج شهرًا عطلة، أنا متعب جدا، ولديَّ كثير من الأمور أحتاج ترتيبها.

حملت موافقته وغادرت مكتبه بإحساس مليء بالمتناقضات، من كثرتها أحسست أنني بحاجة إلى الجلوس لأستريح من تلك الكرة الخفيفة التي تتأرجح على طبق السيراميك فوق عنقي.

رأس ترجرج كأنه مملوء بحليب الصباح، رأسي مثل تلك القربة التي أتذكرها وهي تستجير بين يدي أمي، ترجها رجًّا.

كنت أتأملها كل مرة من زاوية مختلفة، جلد يحتفظ بشكل صاحبه، ماعز أو أرنب لا أعرف، يمتلئ بالحليب، يعلقونه في حامل ويظلون يرجرجونه ليخرج لهم جبنا وزبدا في النهاية.

هو رأسي الآن، هناك مَن يرجه رجا ليخرج جبنه وزبدته..

ولكن لم يبقَ فيه شيء سوى أفكار كعش الدبابير مذعورة، تطن في كل مكان.

مشاعر مرتبكة كأنها ليست لي، كأنها مشاعر لشخص آخر غيري وأنا محض مراقب لها من بعيد.

كنت اثنين، شخصين، كل واحد يراقب تقلبات الآخر، أنا الآن أحتاج مَن يكتبني.

ساقتني قدماي إلى الكورنيش تاركا مبنى ماسبيرو على يساري موجها رأسي شطر ميدان التحرير، جلست على ذلك الحائط المسنود على النيل، أدرت ظهري إلى ضجيج الشارع، عرضت صدري، وجهي ورأسي إلى جسد النيل، نفس الجلسة التي طالما جمعتني وأصدقاء الجامعة، أعاد النيلُ إليَّ ضحكاتنا القديمة.

ياه! كيف ظل يحتفظ بها طوال هذه العقود من الزمن؟

النيل نفسه ابتسم، ترجرجت مياهه قليلا، كاشفة عن ثغر أسمر جميل.. قال لي:

- الزمن لا يستطيع محو الضحكات.

ابتسمت له:

- ولا البكاء يا أبي.

أخرجت هاتفي، أعطاني رقم زوجتي لأخبرها بما جرى، كان عقلي الذي دربته طيلة السنين الماضية على الاستنجاد بشبكة علاقاتي التي ربيتها حاضرا، كنت أريدها أن تتصرف، ربما أبوها يعرف أحدا في الأجهزة السيادية التي تدير البلاد الآن.

جاءني صوتها سعيدا فرحا:

- متى ستأتي؟ إسبانيا رائعة!

قلت لها:

- سأرتب الأمر.. أنا الآن مشغول، حبيت أطمن عليكوا.

لماذا لم أخبرها؟

لماذا لم أطلب منها المساعدة كالعادة، أنا لست أنا إذن.

جاء إلى ذهني أن عقلي المدرب يقول لي اذهب إليها الآن حيث تكون، خذ لها هدية عظيمة، ادعها إلى سهرة رائعة في أرقى مكان، وفي نهاية السهرة حين تعودان إلى البيت، ارتدِ قناع الحزن، ألقِ بخيالك بعيدا وأنت تدخن سيجارة في الشرفة، حتى تبدل ملابسها، وحين تجيء إليك تسألك:

- أتشرب شيئا؟!

أظهر لها أنك لم تسمعها، فتكرر عليك الأمر، فلا ترد..

وقتها ستقترب أكثر، وتلح في سؤالها، فقل لها:

- لا شيء، غدا نتكلم، لا داعي لأن نفسد تلك اللحظات الحلوة التي تعبنا من أجلها.

ضمها، خذها إلى فراشك، اسحقها بعنف، وفي لحظة معينة، اتركها وغادر إلى شرفتك، اعتذر لها، ستلحق بك مذعورة، وقتها أخبرها بما تريد، واطلب منها ما تريد، ستكون لك جاهزة.

هذا أنا، دبلوماسية، أو شياكة، أو انتهازية، لكن هذا هو العقل الذي أصبح جزءا من تركيبة أحلامي.

لماذا الآن أرفض أن أبوح لها؟

لماذا وأنا أعرف أنها ستعرف، غدا سينكشف الأمر، وربما بعد ساعات، وأبوها سيكون أول العارفين.

كل ما أعرفه أنني لا أعرف من الذي أصبحته؟

ثمة إحساس يأتي من النيل، محملا برذاذ خفيف بارد، يخلع عني بدلتي الأسمنتية، يفك رابطة عنقي، يدلق عليَّ ماءً، يغسلني، البرودة التي تنزل على رأسي تقتل تلك الكرة الخفيفة المتأرجحة، وتعيد رأسي الثابت في العنق..

تزيح تلك البرودة عن القلب توترات غريبة، انقباضات حزن مؤلمة، وتزرع فيه سكينة، فرحا خفيا غير مبرر.

بعدها ارتديت جلبابا ريفيا واسعا، يسمح للنسيم بالتسرب إلى الجسد كله، يقتل ذبوله، أحسست أني خفيف، كسجين تحرر لتوه بعد اعتقال طويل..

لا أدري وقتها لماذا حضرت بجلبابي الريفي؟

تأتيني رائحة قريتي النائية هرولةً على صفحة النيل، أو ربما النيل تعمد إرسالها لي بعد أن غسلني، كأنه أراد أن يعطرني بها..

ما الذي يحدث للذي كنته؟

الذي يحدث له أن معشوقته تخلت عنه، خانته، ألقته في الشارع بعد سنوات العشق..

الخارجية بالنسبة لي معشوقة بعت من أجلها كل شيء حتى نفسي، وكل ما أحب، حتى أهلي وناسـي، حتى تاريخـي وقريتي، وأصحابي ورائحة السنين.

الخارجية الآن تقول لي أنا لست لك، ما عدت أنت حبيبي.

***

4

بحثت كثيرا في خزانتي عن بنطال من الجينز وقميص كنت أحبه كثيرا، به خطوط مستقيمة من الأبيض والأسود، رغبتي الأكيدة والواضحة أنني لا أريد أن أرتدي بدلتي الأسمنتية مرة أخرى، أريد ملابس طيعة تشبهني، وتشبه الناس جميعا، لا أريد أن أظل على ما كنته.

ما الذي أصابني وقد كنت أكره ان أرتدي شيئا يشبه الآخرين، الأناقة بالنسبة لي أن لا أكون مثل غيري.

ثمة نظرة استعلائية كانت تتلبسني وأنا أتمخطر بأناقتي، ربما تلك العقدة القديمة التي تجعلني أبالغ في أناقتي حتى لا يكشف الآخرون سر تواضعي وقرويتي.

كنت أخبئ القروي الصغير خلف الماركات العالمية، أعترف الآن أنني خبأته كثيرا حتى ضاع مني نهائيا.

منذ قليل أعاده النيل إليَّ، أعاده في تلك الرائحة التي طالما كرهتها في طفولتي.. الآن اكتشفت أنها تشبه رائحة أجسادنا، رائحة الطين

الذي خُلقنا منه، رائحة نجتهد في إخفائها بفعل بخات العطور الراقية، وكل منا جميعا راح يختار لنفسه رائحة جديدة، تتوافق وثرائه وأناقته.

نجتهد في إخفاء حقيقتنا وأصلنا.

ارتديت أنا الجديد ملابسي القديمة، تناولت مفتاح سيارتي وفي يدي حقيبة صغيرة بها ما قد يلزمني ليوم أو اثنين أقضيهما في قريتي النائية.

انطلقت سيارتي مسرعة تهرول بجنون، سيارة أتعبها الركون، اعتدت أن أضعها في الجراج الخاص، لا أستخدمها إلا مرات قليلة حين أتواجد وأسرتي في القاهرة، لذا ربما هي مثل كل المقيدين والمحبوسين والمكبوتين تشتاق للجري، تريد أن تعوض أيام حبسها وسجنها..

هي لم تخلق ليلقى بها في جراج مظلم تسكنه الرطوبة والعفن، هي خلقت لتسير في الشوارع المزدحمة تتباهى بنجمتها المتصدرة لوجهها..

كنا غريبين عن بعضنا، لم تشعر قدمي بجسد السيارة، وهي كانت عاتبة، لكنها تهرول بفوضوية، تعبت كثيرا في السيطرة عليها، في حمايتها من إيذاء نفسها، إن رغبتها في الجري أوصلتها حد الانتحار أو الاصطدام في مثيلاتها المتهورات مثلها.

هم مثل الناس بعد الثورات يعوضون سجنهم بلهفة الجري حد [illegible] وحد التهور والموت.

حين خرجت من ضجيج القاهرة صوب قريتي النائية، كنت وسيارتي قد توافقنا، أعطتني أمانها وأعطيتها إحساسي.

تذكرت آخر مرة زرت فيها قريتي، كانت مناسبة مؤلمة، حين ماتت أختي الكبيرة، أحببتها لدرجة مؤلمة، ولو مات غيرها ما سافرت، لكنها كانت قلبا يتحرك على الأرض؛ لذا مجبرا زرت قريتي.

وأذكر أنني لم أنم بها ليلتي، بل ظللت حتى انتهى سرادق العزاء وركبت سيارتي وغادرت في عمق الليل.

الآن ثمة شيء مختلف، أشعر أنني أشتاق إلى تلك القرية، رائحتها، أشتاق إلى تلك التوتة الكبيرة التي تتربع على شاطئ ترعتنا، هي مرادف الونس والحنية، في محيط ظلها يلتف الجميع حول حكاية في مساء صيفي، أو حول راكية تبعث على الناس دفئها في مساء شتوي..

أتذكر أن تلك القرية تطوف بخيالي مرات وأنا أقف بجوار برج إيفل في باريس، أو أقف في شرفة أحد الفنادق الفاخرة في لندن، وقتها كنت أبصق على ذلك الخيال الذي يتعمد إفساد اندماجي بكل ما هو متحضر، أتذكر، ابتسمت كثيرا أمام خاطرة تشي بخيالي الذي يعاندني، قالت:

- خيالك يستكثر عليك متعتك. يقطع بهجتك، يذكرك بكل ما هو مقرف.

وقتها كرهت خيالي، وقررت أن لا أسـمح له بالتجول أينما شـاء، قيدته، ركنته في جراج وفرشت عليه غطاء أنيقا بدرجة كفن، تماما كما فعلت مع سيارتي.

الآن الأمر يختلف، أشـعر أنني أعتذر لخيالي عله يسـامحني، كما أعتذر لسيارتي، كما أعتذر لـ «أنا» القديم.

أخـذت طريقا يوصلني إلـى مدخل قريتي الخلفـي متجنبا المرور الاستعراضي وسط الطريق الرئيسي الذي يشق البيوت.

يقع بيت أبي أو ما كان بيتا للعائلة في مبتدأ القرية، بعدها توسعت باتجـاه الصحراء، فرأسـها عند ترعتنـا الصغيرة وأرجلهـا ممتدة حتى محيطها الصحراوي.

مـا عـادت الآن تلـك القريـة صغيـرة، بـل أصبحت قـرى صغيرة متجـاورة، تناسـلت، جعلتهـا الأجيـال تجمعـا عمرانيـا بـه كل ما في المدينة، مدارس، معاهد تعليمية، جمعية زراعية ومركز للشباب.

كلمـا اقتربـت منها تأتيني رائحتها أو ربما جـاءت تلك الرائحة من الأعماق.. فالرائحة لا يحجبها سوى الجحود.

لم تسمح لي ستارة الليل الداكنة برؤيتها من بعيد، ظهرت لي كومة سوداء فقط.

الرائحة أقوى من الليل تتمدد إذا ضاقت الرؤية، كما يتمدد التأويل عند أصحاب العقول.

رائحة أعادتني إلى ليالي الصيف والمذاكرة، صلاة الفجر، زقزقة العصافير في الصباح، صياح الديكة، صوت الشيخ عبد الله، نهيق الحمير في الظهيرة، صيحات الإوز في الحظيرة، مأمأة الماعز، عراك الأهالي على سقاية مواشيهم عند فم الترعة في المساء.

حزمة من الأصوات استقبلتني، وكأنها لم تمت، احتفظ بها الفضاء الصافي، فتحت زجاج سيارتي متعمدا استقبالها جميعا..

حين وصلت إلى بداية أطراف حقولنا ومزارعنا، أوقفت سيارتي، ترجلت منها، سرت بهدوء صوب رأس الحقل، كانت أوراق الذرة تخشخش حين تضربها الريح بطرف ذيلها، أو كأنها كانت تصفق ترحيبا بي.

هذا الحقل بالذات له عندي كثير من الذكريات، فهو الذي يخرج دائما ما كنت أحب، خصصه أبي لزراعة الطماطم، والخيار، والشمام، والبطيخ، وغيرها، ولأنني الأصغر، أوكل إليَّ مهمة حراستها في الظهيرة، تلك الفترة التي يستريح فيها الكبار لتناول الغداء ومع صلاة العصر يعودون فتنتهي مهمتي.

في هذه الساعات القليلة كنت أنا سيد المكان.

في الظهيرة الهدوء قاسٍ، وقتها كانت حكايات جدتي عن عفاريت الظهر تضرب قلبي بكرباج فتعلو دقاته، لكن وصايا أبي تجعلني أصمد، أبي كان يقول دائما الرجال لا يخافون.

أتفقـد الحقـل، أضـع علامـات عند تلـك الأشـجار التي سـتؤتي بثمرها، سميت ثمرتها الأولى:

- البشاير.

نقنقـة الضفادع، صفير الصمت، سـيمفونية الأصـوات القديمة.. أشياء جعلتني ممتلئًا برضى غريب.

أسـلمت نفسي لسـيارتي التي أسلمت نفسـها للطريق المؤدي إلى بيـت أبي، وهناك كانت حزم الذكريـات أكبر، الأصوات أكثر وضوحا منـذ صرخة ميـلادي الأولى في ركن الحجرة الوسـطى للبيت الكبير، صرخة أمي التي شقت السماء نصفين حين مات أبي، الدفوف والغناء أيام زفاف أخواتي البنات، صوت القرآن يرن في المدى.

حاصرتني الذكريات، وأنا جائع ففتحت خيالي على مصراعيه.

اسـتقبلني ابن أخي الذي سـكن المكان وتولى عمرانه، هدم البيت القديـم، أقـام عليه عمـارة بخمسـة طوابق، تطل مباشـرة علـى ترعتنا الحنون.

رغم اندهاشـه بمجيئـي المفاجئ وعـدم اتصالي به إلا أنه تسـاءل كثيرا بإلحاح الفلاح الذي لا يعرف إتيكيت السفراء..

-سألني كثيرا عن مصير السياسة ومصيري أنا.

ا... مستعيرا حرفة الدبلوماسي الماكر:

ا... حلي أنا متعب وغدا سنحكي.

اندهـش أكثر، فأنا الذي لم يبت ليلـة في القرية منذ أكثر من ثلاثين عاما.

طلبـت منـه جلبابـا بأكمام واسـعة، ارتديتـه، خرجت إلى الشـرفة المطلـة على الترعـة، ألقيت بكل خيوطي في مياههـا منتظرا ما تفيض به من رزق يريح ذلك القلب القلق.

رغم انشـغالي بكم الرجوع الذي أعيشـه، بكـم اليقظة والبعث لما تخيلـت أنـه مات داخلـي، إلا أنني كنت مشـدودا لتلك الرسـالة التي وصلتني على هاتفي من الدكتور «الهادي»:

- كلمني ضروري.

طلبته مباشرة تاركا فضولي يستقبل قهقهته العجوز:

- علـى إيميلـك بعـض من بقيـة الحكاية، انشـغل بها عنـا واتركنا لأشغالنا، لا تتصل كثيرا.

قالها ممازحا، وأغلق الهاتف.

أخرجـت «اللابتـوب» مـن حقيبته، ورحـت أتابع تفاصيل النشـأة الأولى.

***

الورقة الثانية

تلك حكاية حفرت أحداثها في طين الروح، قصة حملها أبطال ذوو همم عالية، إنهم المؤسسون الأوائل، نحتوا تاريخ نشأة ذلك البلد في صدور ناسه، ورواته، حولوه إلى أشعار ومواويل تُغنى وإلى قصص تروى في جلسات السمر.

ظللنا نحن كتاب التاريخ نعيد تسجيل ما سمعناه، ننقي بعضه من أساطير الانحياز، نعيد نسخ ما استقر على صحته في دفاتر كبيرة مزدحمة بالتفاصيل، وضعتها ذات ليلة في الصندوق الذي صنعته لها عند «نواف الحداد»، صندوق بحجمها من الحديد، غلفه بألواح خشبية ثم كساها برقائق من جلد الماعز والأبقار لتقاوم فعل الزمن وأثر نهش الماء، حملت الصندوق، وضعته في مخزن السفينة السفلي وأنا أعرف أنها اقتربت من الهلاك والفناء والغرق.

لا أدري لماذا فعلت ذلك؟

كل الذي سيطر عليَّ أن السفينة هي ما يليق بدفن تاريخ وتفاصيل ناسها الطيبين، وأن ثمة يقين بأن هذه السفينة ستُبعث من جديد، ربما في شكل آخر، وعلى أيدي أناس آخرين، هكذا صرخ الجداف ورجاله وهم يتشبثون ببعض:

سنبعث السفينة يوما، وستبعث معها أرواحنا.

الحوت لو ابتلعها ليس معنى ذلك هو الفناء، إنه ابتلاع للاختبار، كما ابتلع الحوت يونس لفترة، ثم بصقه على الشاطئ سقيما، فأنبت الله [illegible] الحياة، وأعطاه ملكا وجاهًا.

الأرض تبتلع الناس في قبورها لكنهم حتما سينبتون يوما من جديد، والبحر إن ابتلع السفينة حتما ستبعث يوما من جديد لتعيد مجدا زال.

بسبب كل هذا وضعت دفاتر التاريخ في بطن السفينة.

أما تلك المخطوطات التي بين أيديكم، فهي تاريخ ذلك الوطن مقتضبا ومختصرا، ليسهل على الموعود بالتقاطه إعادة تقديمه من جديد، لجيل وأناس ليسوا مثلنا، تلك اللفافات أرحتها في صندوق أصغر من الآخر ووضعته في لحد بين الجبلين.

جاء في ذهني وقتها ألا أضع تاريخ ذلك البلد في قبر واحد، أن أنوع منابت البعث.

***

تبدأ قصة ذلك البلد الكبير ببذرة أو لعلها فكرة، غُرست في هذا المكان فأنبتت يوما وطنا بحجم الذي كانت عليه، أو لعل هذا البلد الكبير مر يوما بفناء سابق فأعيد بعثه على يد أجدادنا فجاء الأبناء بخطاياهم وأفنوه، وقد يأتي من يعيد إحياءه من جديد، هي محض تحليلات لبذرة أصبحت يوما وطنا وبلدا باتساع الأمل.

بلد يحده جبلان من الخلف بينهما ممر ينفتح في الاتجاهين على وادٍ خصيب، جبلان ظلا حارسين أمينين له، ينام وشموخ الجبلين يخلقان رهبة للغرباء الذين ظلوا يترصدونه وما جاوره من بلاد صغيرة.

حين تترك الجبلين الماردين الحارسين وتدير لهما ظهرك، تتوجه في السير نحو البحر كلما اقتربت، تجد أن البحر ينحسر، يلملم ماءه،

تاركا جزءا من جسـده لليابسة، عطيته إليها ليتربع هذا البلد على حِجر البحر ويمدد قدميه في مائه.

البحر هو أبو البلد وجده، أصله، وبقرب منه عاش واسـتمد بقاءه، يحكي السابقون لنا في رواياتهم أن البحر ما غدر يوما بأبناء هذا البلد، ما أخذ منهم شيئا بل كان وفير العطاء.

يؤتيهم رزقهم صباح مساء.

***

تقـول الحكايـة المغنـاة إن الجـد الأكبـر كان نجارا، يملـك مركبا صغيـرا صنعه بعناية جعلتـه لغزا للجميع، مركـب إن ركبه غيره غرق، وبعد أيام يقذفه الموج إلى الشاطئ.

يقـول الرواة فـي مواويلهم إن الغرباء هاجموا ذلـك الجد في يوم من الأيام، دافع بشراسـة عن مركبه الصغير، ولما أيقن من الهلاك قفز في الماء تاركا لهم المركب وما فيه، فلما امتطوه وساروا به، غرق بهم فجـأة، ثم بعـد أيام، وبعد قياس حركة الموج والمـد والجزر عثر عليه الجد على الشاطئ الآخر، وركبه من جديد.

ظـل الجد بعـد تلـك الحكاية، يسـير فـي البحـر محميا بأسـاطير وحكايات روج لها الغرباء.

قالوا إنه مخاوٍ.

وقالوا إنه ساحر.

لكنـه اسـتفاد مـن تلـك الحكايـات كثيرا، يجـوب البحـر، يصلح مراكب الصيادين، يداوي الجرحى، ولما وصل إلى الأربعين حن إلى بيت وأسرة.

فجاءه في المنام شـيخ كبير، أحمـر الوجه، بلحية ذهبية يرتدي زي فارس مغوار، قال له:

- يـا جـدي ابنِ لنا بيتـا عند الجبليـن، وادعُ لنا الله علـى أفئدة من الناس تهوي إلينا.

قال له الجد:

- ما اسمك؟

أجاب:

- أنا ابن صلبك، أنا المستقبل الآتي، فاغرس بذرتك على الشاطئ تنبت لنا يومًا وطنًا.

واسـتيقظ الشـيخ مـن نومـه تتلبسـه حالـة مـن الخـوف والرغبـة والاستغراب، عن معنى الوطن.

كيف لنجار جوال في البحر، أن يعرف معنى كلمة وطن؟

كيف له أن يدرك معنى الاستقرار؟

والاسـتقرار في عرفه يعني الركـون، والجلوس وهذا بوار وانعدام رزق!

كيف يغير معتقداته بأن الحركة ليست بركة؟

وهو الذي تربى على أن الثبات والاستقرار غضب من الرب؟

مـع نسـمات الفجـر، حـرك مجدافيه صـوب اليابسـة، يحملق في المـدى الواسـع، يفتش بعينيه عـن جبلين، ظل أيامـا وأياما، حتى لاح في الأفق رأساهما.

تحـرك فـي اتجاههمـا، اقتـرب مـن الشـاطئ الـذي كان مسـتويا، فانبسـطت أسـاريره لما رأى كرم البحر الذي لملم ماءه تاركا لليابسـة حِجرا مباركا من رمال صفراء.

ربط قاربه، وشده أكثر نحو اليابسة ليضمن ثباته أمام حدف الماء.

سار بقدميه على صفرة التراب، لفحته نسمة آتية من ناحية الجبلين، كأنها ترحب به، شعر بهزة غريبة تجتاحه، وكأن المدى يقول:

- اخلع نعليك إنك بالوادي المراد له أن يكون يوما وطنا.

خلع نعليه، وترك لباطن قدمه حرية الإحساس بتراب ذلك المكان.

المسـاحة مسـتوية كسـجادة صنعت من لون واحد، كوجه السماء في الصفاء، كصفحة الماء حين ينام البحر.

ظـل يسـير سـاعات حتى وصـل إلـى الجبليـن، وقف فـي الممر الفاصل بينهما، حدق في قاعدة الجبلين اللذين يتسعان لدرجة تحتاج ساعات وساعات للسير بجوارهما..

أمـا الممـر فينتهي إلى وادٍ وسـيع، خصيب، كلما تحـرك فيه وجد [illegible] وأشجارًا من كل الأصناف والأنواع، نبتت هكذا، كأنها جدائل [illegible] الريح من بعيد!

صعد إلى جذع الجبلين، فوجد أكواخا مصفوفه بامتدادهما، تتنفس تاريخا لأناس سابقين، كانت أبواب الأكواخ كأفواه مفتوحة تريد أن تصرخ، تفضفض بما مر بها من حكايات السابقين.

شعر أن ثمة إرادة تسوقه إلى هذا المكان.

أدرك جيدا أن الغرباء هم الخوف الأكبر الذي عاشه، وأجداده السابقون، وما زالت تعيشه جميع البلاد التي امتدت كمسبحة على شواطئ البحر العجوز.

إنهم الغرباء، شياطين المكان ولعنته منذ عهد بعيد، يهاجمون سكان هذه البلاد، يغيرون عليهم بين الحين والآخر، يقتلون رجالهم، وأبناءهم من الصبيان لا يتركون سوى الإناث.

مسح بعينيه المكان يعيد رسمه من جديد بما يضمن أن يكون آمنا، كبيرا، شامخا.

الأكواخ، قاعدة الجبلين، الوادي الخصيب، عناصر قوة تمثل حصنا في وجه هؤلاء الغرباء إن فكروا في الإغارة والهجوم.

حين صعد إلى أعلى قمة أحد الجبلين، رأى طريقا ممتدا ينطلق من الممر الفاصل بين الجبلين إلى البحر، تخيل ميناءً ضخمًا يتقوس ناحية البحر محتضنا قوارب كثيرة لها صواري.

واطمأن أكثر لأن الممر الفاصل بين الجبلين قابل للغلق إن هاجمه الغرباء من البر، والميناء سيكفل لهم الدفاع من البحر.

نـزل إلى تلك البسـاتين والحدائق البكر، لملم منها كل ما تشـتهي الأنفس من فواكه وخضراوات وذاق لأول مرة خيرات بلد لم يتأسس بعد.

***

تلـك مخطوطة سـجلنا عليها بعض الصور التـي تصدرت جدران المنازل والقصور، صور تختصر تفاصيل حياة المؤسـس الأول، ذلك الجـد العظيم، الصورة الأولـى: الجد واقف وتمسـك زوجته بذراعه يوم عرسهما، الزوجة بدت في مستوى طول ذلك الجد وعلى استقامة قامته..

لا مقارنة بينهما وبين المحيطين بهما.. يتضح الفرق في الطول.

تحكي بعض الأغاني التي كانت الأجيال ترددها عن ذلك الجد أنه قصـد الزواج من ابنة شـيخ القبيلة المجاورة، وهـي قبيلة عرفت بوفرة الجسـد والصحة، وحتى نسـاؤهم كذلك، فكر الجد في أبناء يحملون نفس المواصفات والقوة.

تلك صورة مرسومة للجد واقف وعلى كل ذراع طفل صغير.

ومكتوب تحتها الشجرة قد أثمرت!

تلك لقطة تختصر سنين سبقت الإثمار حين أنبتت بذرة الوطن بيتا وامتلأ المكان ببكاء أطفال وضحكات زوجين، وقدوم زوار.

عـرف أصحـاب القـوارب أن الشـيخ النجـار مـا عاد جـوالا على سـطح الماء، بل صنع لنفسـه ورشة على الشاطئ، وثبت أمامها هياكل خشـبية لقوارب من أشـكال مختلفة، تبدو من بعيد كأنها أضلع عارية لمخلوقات أسطورية.

استقرار الجد في المكان جعل أفئدة الصيادين تهوي إليه من كل اتجاه.

تحكي بقية الصور المرسومة أنه ما نزل إلى هذا البلد عابر سبيل أو صياد إلا ووقع في غرامه، فبنى الصيادون أعشاشا من الخوص بطول الشاطئ، علقوا عليها شباكهم ورصوا قواربهم الصغيرة أمامها.

على الجانب الآخر امتدت بعض البيوت على امتداد الوادي الخصيب في العمق الصحراوي لمن يعملون بفلاحة هذه الأرض الولود فتفيض خيرا.

مع الوقت، أقام الجد على امتداد الشاطئ سوقا صنعه من جذوع الأشجار، وظلله بجريد النخيل، تركه لمن يريد الاستقرار وبدون أي مقابل.

أراد أن يكون طُعما يجذب المارين ليستقروا ويعمروا المكان، أراد أن يصنع في كل بقعة من هذه الأرض بئرا لزمزم جديدة، يشد إليها العطشى الرحال.

لم تمضِ الخمسة أعوام الأولى إلا وقد أصبح ذلك البلد مملوءًا بناسه الطيبين.

5

كيف يمكن لي أن أفرق بين ما جاء في تلك المخطوطة وأعيد نسخه وبين ما أحلم به دائما كل مساء؟

كيف أفرق بين كل هذه الأشياء وبين ما أعيشه فعلا في الواقع؟

أحيانا أشعر أن رأسي يتمدد، أراه أمام عيني يتفتت إلى قطع تتطاير في أرجاء روحي الخاوية، روحي القلقة، المتربصة بي.

أنا غير المؤمن دائما بالصدف، لا أدري من أين جاءني ذلك اليقين بأن كل شيء مرسوم بعناية ودقة، لا شيء يحدث اعتباطا.

ظهور هذه المخطوطات القديمة، مصائب العمل، ارتباك الأوضاع في مصر، جميعها أراها مقصودة، أو أشعر أنها تستهدفني أنا.

ما الذي ترتبه لي خطوط الأقدار التي لا تسير في أشكال مستقيمة؟

استيقظت على ملمس يد ابن أخي وهي تهزني برفق.

فتحت عيني بتعب وعناء شديدين، تماما كمن يغلق ستارة على فصل من مسرحية ساخنة، يغلقها على أسخن مشهد فيها..

أنفـض عني خليطًا من أحـداث ذلك البلد القديـم.. ومن أحداث قريتي.. ومن أحلام هي خليط من الاثنين.

متعبا كنت.

أبـواب الشـرفة مفتحـة، وبقايا النـدى متراكم على أطـراف الكنبة القريبة، وعلى حافة السرير الذي احتوى قلقي وأحلامي.

توكأت على ابن أخي ونزلنا إلى الصالة الكبيرة، إلى طاولة الطعام وما عليها من إفطار ريفي بامتياز.

رائحـة تعيدنـي إلى جلسـة أبي فـي الصباح، إلـى لمة أهـل القرية على الراكية، رائحة القشـدة وأكواب الشاي باللبن تدفئ الأصابع التي طوقتها.

انكفـأت على ذكرياتي، رحـت أتذوق الماضي في كل لقمة تدخل فمي.

همس إليَّ ابن أخي:

- فيه ضيفة تريدك!

لـم يكـن مزاجـي جاهـزا لأي شـيء، أردت الاعتذار لكن تسـمر لساني، التصق بسقف حلقي أمام ما رأيت.

فاطمة؟!

هل لها أن تعود من موتها؟

هل لها أن تحيا مرة أخرى؟

أذكر حين أبلغني أخي بموتها عبر مكالمة هاتفية سريعة أغلقت غرفة مكتبي في السفارة، أغمضت عيني وتركت قلبي يعتصر، يضخ إلى عيني دموعا لزجة، كثيفة مملوءة بالملح والفراق.

«فاطمة» الماضي الذي لا يريد أن يكون ماضيا، إنه ماضٍ يضرب بجذوره في الحاضر ويحل مكانه، غريبة هي، منذ أن أحببتها وهي طفلة صغيرة، مشاكسة، جميلة، كنت أكبرها بأعوام قليلة لكنها فور دخولها الإعدادية تفجرت أنوثتها، وارتدت عمرا غير ما تشي به سنونها.

منذ ذلك الوقت أنا أصبحت ظلها، حتى جاءت تلك اللحظة التي قالت لي ذات مساء صيفي:

- أنت تحبني..صح؟

قلت:

- أعشقك.

جربت لأول مرة دفء حضنها، سمعت صوتا يخرج من صدرها مبحوحا ظل يسكنني حتى الآن، وما من مرة إلا وأشعلني.

ظلت تنتظر خطوة مني، ولكن كان طموحي أكبر منها بكثير وكان قلبها أكبر مني، غادرتها وانشغلت عنها بنفسي وبأحلامي.

تزوجت واحدا من المفتونين بها في القرية، وظللت أتابع أخبارها بين الحين والآخر دونما اكتراث حتى عرفت بوفاتها المفاجئة.

- فاطمة؟

قالت لي الواقفة:

- نعم! أنا فاطمة.

حاولت تجميع رأسي المتشظي، لم أستطع حتى تدخل ابن أخي:

- أمها الله يرحمها أصرت تسميها فاطمة على اسمها.

اقتربت، صافحتني وجلست.

كان لسـانها يتحرك وشفتاها تشـيان بأنها تتحدث وأنا كنت أحدق في كل تفصيلة من تفاصيلها.

هي استنساخ إذن!

هـي نفس الصورة، نفس العينين المختلطتين بالخضرة والعسـل، نفس الوجه الذي يجمع سـمرة خفيفة مشوبة بحمرة، الأنف المدبب، والذقن البارز قليلا، والعنق الممتد إلى أعلى، والشعر النابت في وسط الجبهة الذي ينسدل على الحاجبين.

نفس الصدر المتمرد، والجسد المخلوق من النار والشهوة..

حين سكت الفم واللسان جاء دوري في الحديث، لم أستطع لأنني لم أسمع شيئا مما قالته، كنت كمن تخبطه الماضي.

قال ابن أخي:

هي قدمت في وظيفة بالخارجية ومحتاجة مساعدتك، المقابلة الا .. ة الأسبوع القادم.

إنتي خريجة إيه؟

- ليسانس آداب إنجليزي بامتياز.

كانت تجيب وعيناها مثبتتان في عيني، كأنها تقول لي، أنا أعرف ما تفكر فيه، أعرف ذلك الحنين، كانت روح «فاطمة» الأم تطل من عينيها، تريد أن تحتضنني، تعيد إليَّ وهجي الذي كان..

غريب قلبي هذه المرة، يتخلى عن قسوته بتدريج غريب، يتفتت أسفل تلك الذكرى، يتطاير أمام شعاع العينين.

خرجت معها إلى الطابق الثاني، إلى تلك الغرفة المطلة على الترعة، جلست معها في الشرفة، وفردت ناظري على رقرقة الماء المنساب.

أمام كوبين من الشاي تحدثنا..

تحدثت عن أحلامها وأمنياتها، لكن ثمة شيء في نظراتها لي، عتب، كره، وربما تحملني جزءا من مسئولية موت أمها.. لا أدري، سألتها:

- إنتي فاطمة، إنتي لم تموتي!

ضحكت، نفس الضحكة القديمة التي كانت تنفلت منها فتثير نظرات المستهجنين، ضحكة مجلجلة، تنتهي بنغمة مسحوبة ومثيرة،

- صح،، أنا فاطمة.

غادرت بعد أن وعدتها بأنني سآخذها إلى القاهرة وسأذهب معها إلى المقابلة وسأسخر جميع علاقاتي لأن تكون بجواري، لا أدري

إلـى أين يأخذني تدفـق بحري الهائج، بموجاتـه المتدافعة في عنفوان الزمـن، أنـا الآن محض قارب قديـم متهالك بلا أية صـواري يجرفني الريح إلى حيث يريد وإلى حيث ينتهي مجرى البحر.

أشـعر برغبة عارمـة في النوم، لا أعرف غايتها أو تفسـيرا لها. ربما الهروب من الواقع، ربما العجز عن تفسيره.

***

قالت لي بصوت شرخته أنوثة مختبئة:

- عندك أغنية لنجاة الصغيرة؟

استدرت إليها جارًا خلفي سنين طويلة متشحة باسم أمها:

- إنتي كمان بتحبي نجاة؟

عدلت رأسها قليلا لتصوب تلك النظرة إليَّ:

- عشـت على صوتهـا وبحتـه الحنونـة.. .حبايبنا عامليـن إيه في الغربة.. ينفطر قلبي على حبيب تغرب عننا برغم أنه لم يكن لي مَن هو في الغربة.. نظرة أمي تشي بأشياء كثيرة ما كنت أفهمها.

ظهرت تباشـير القاهرة بزحامها، أغمضـت «فاطمة» جفنيها فبدت أجمـل، أكانـت حقـا فاطمتيـن معـا، «فاطمـة» الماضـي، و«فاطمـة» الحاضر؟!

حين دخلت إلى شـقتي تبدل ريحها، كأنها تحولت فجأة إلى جنة، أو بستان وافر الظل والخصب بعد أن كان صحراء جرداء.

حين أدارت ظهرها لي وراحت تتأمل أركان شقتي عاد إليَّ ذلك الحلم القديم الذي يأتيني كل مساء أيام الصبا حين كنت أرى «فاطمة» بفستان زفافها في غرفة نومنا ليلة العرس تدير ظهرها بدلال وتطلب مني أن أفك عنها فستانها الضيق، من فرط هيام الحلم لم يكتمل يوما، بل كنت دائما أستيقظ غارقا في انخطاف وشهوة وجنون.

«فاطمة» الآن تعود من الماضي والتاريخ، تأتيني وهي تزيح السنوات من أمامها، لتقول لي: «أنا معك الآن».

حين يعود الذي انقضى يعود ليزيل كثيرا من الحاضر، ثمة أشياء في الحاضر لا تتعايش مع نقاء الماضي.

هو الآن يعود إليَّ في زخات بها عنفوان الزوال، يقشر عني بعضا من صدأ الحاضر، تراكم التنازلات الغبية، بعضا من ضلال السبيل والسعي.

شيء يدفعني ناحية الغرفة التي تحتوي «فاطمة»، طرقت الباب، وجاء صوتها غير قلق، ثم انفتح الباب، وقفت في مواجهتي، اقتربت أكثر، أتأمل أدق تفاصيلها، حتى النمش المنثور على منتهى الوجه والعنق.

- أنا أشبه أمي.

- لا.. بل أنتِ هي.

بقدر الوجوه الجميلة التي رأيتها، بقدر النساء اللاتي دخلن حياتي من جميع الأجناس والأشكال، وبقدر سطوة الفتنة، ثمة شيء مختلف

في ذلك الذي أراه الآن، وجه «فاطمة»، بياضها، عيناها، شعرها الذي إن سألته سيعترف لك أنه لم تلمسه يد مصفف شعر.

كوجهها الذي يعترف لك أيضا بأنه لم تلمسه يد «ماكيير»، ولم تجرب شفتاها ملمس أصابع «الروج».

هي كائن بكر، غارق في فطرته.

هل الانخطاف إليها من جديد هو مرادف للانخطاف إلى الأشياء المجردة والطبيعية؟

هل هذا الانخطاف هو معادل لمقت كل ما هو غير طبيعي ومزيف.

لم أكن أستطيع أن أفسر حملقتي بها فأسدلت هي عينيها على صدرها وتركتني أقلب صفحات ذاتي على نور فوانيسها.

رنات هاتفي تتعالى، وفي الجسد فوران غريب، يريد تكسير كل شيء، حتى فارق السن الذي يفصل بيني وبين بحرها.

- آلو...

جاء صوت زوجتي عجولا كما اعتدت. تلضم جملها في سرعة وكأنها تريد الاختصار.

لماذا لم تقل لي إنهم نقلوك من مكانك وأعادوك لوظيفة مكتبية [illegible] في القاهرة؟ والدي هو الذي أخبرني. لن نسكت، سنقلب [illegible] الذي اتصل بكل الأجهزة.

استفزتني كلمة الأجهزة التي بت أسمعها في كل مكان، على المقاهي وفي البيوت، طلبت منها ألا تفعل شيئًا، كررت عليها الطلب، بل رجوتها أن تترك الأمر.

صرخت فيَّ تذكرني بالشقة التي اشتريناها في باريس وبأقساطها المتراكمة، دراسة ابنتي، بقية الأحلام التي لم تكتمل في الغرب.

هدأتها، واستجبت لنداء الجسد المتعب وتركته يستريح قليلا، لكن الفضول دفعني إلى صندوق بريدي الإلكتروني، لأتلقف بعضا من بقية الحكاية التي يرسلها الدكتور «الهادي».

***

الورقة الرابعة

ما عاد الشاطئ عاريا كما كان، بل دبت فيه الحياة، أنبتت أسوانا ومسبحة من الورش المتلاصقة.

بدأ الشيخ الكبير منتشيا بونسه وبناسه الطيبين.

الشيخ «رياض» الصياد أول من آخى الشيخ الكبير وعمر معه ذلك الشاطئ، كان واحدا من الصيادين المشهورين في امتطاء موجات البحر، عنيدا جسورا، نحافته الزائدة لا تشي بتلك القوة والصلابة التي عليها.

يميل إلى السمرة كثيرا، ساهم مع الشيخ الكبير في إنشاء سلسلة من الورش البدائية الممتدة على الشاطئ، مع كل إبحار يعود بصديق يمنحه واحدة منها، لم ينقضِ العام الأول إلا وامتلأت الورش بصناعها وأصبح الشاطئ مرسى للتجار والصيادين وعابري الطريق.

لم يمضِ وقت طويل وظهر الشيخ «داود» المؤسس الثالث، جاء عابرا فسكنت روحه المكان ولم تغادره.

الشيخ «داود» تاجر كبير، نقل كامل أسطوله من السفن وشرع في بناء مرسى صخري لتحط عليه مراكبه، واستقدم لأول مرة تلك الحامية الكبيرة بسيوفهم وحرابهم وأجسادهم الغليظة، كانت بقيادة الشيخ «صامد» الذي انضم إلى المؤسسين ليكون شريكهم الرابع.

الشيخ «صامد» ذلك الجسد الغارق في شراسته، المتجهم دائما..

كان الشيخ «داود» سمينا تبدو عليه علامات الثراء، يحب الجواري والغناء وبمجيئه علت في المساء أصوات الصخب والمزامير والطبول. نحول الشاطئ إلى ضجيج وحياة.

رغم اعتراض الشيخ الكبير على بعض ممارسات الشيخ «داود» إلا أنه تحمل وقال كثيرا لصديقه القريب، «رياض»:

- نحن في حاجة إلى كل قادم جديد. المساحة شاسعة، أحلم ببيوت وسكان يعيشون، أحلم بأجيال تتوالى.

يصمت «رياض» كعادته إن اختلف مع الشيخ الكبير ويغادر مزمجرا وينادي فتاه الصغير «خلدون»..

«خلدون»، ذلك الفتى الذي تولى الشيخ «رياض» تربيته بعدما قتل الغرباء أباه.

لم تكن تصرفات «خلدون» تشي بعمره الذي لا يتجاوز خمسة عشر عامًا، بل كان يبدو شيخا رزينا مكتمل النضج، لذا قربه الشيخ الكبير منه وجعله كاتبه الشخصي، الذي يدون كل شيء يحدث في البلد، حتى أحلامه طالما دونها في صور ورسوم للميناء، وأخرى لسلسلة بيوت بجوار الجبلين وممرات آمنة قابلة للإغلاق في فم الوادي الخصيب.

من وقتها و«خلدون» هو كاتب البلدة ومؤرخها.

عام خلف عام ويكتسي البلد بساكنيه، تتناثر البيوت والأحلام.

فكر الأربعة المؤسسون في وضع قانون يجذب مزيدا من السكان إليه، بل كتبوه على لوحة كبيرة:

– من يسكن هذا البلد يصبح منه.. كلنا إخوة شركاء في الأرض وشركاء في الحلم.. لا فرق بيننا..

صاغوا مواد في هذه الوثيقة تنظم العلاقة بين سكان المكان وبين بلدهم الجديد.

أوكل الشيخ الكبير والمؤسس الأول إلى الشيخ «صامد» مهمة تطبيق هذا القانون بكل مواده على الجميع، ومهمة حماية الناس وتوفير الأمن، وتقليل الخوف من عربدة الغرباء.

تحول هذا البلد الناهض إلى قبلة للمظلومين والمضطهدين والخائفين..

خلال ثلاثة أعوام اصطف خلف الشيخ الكبير ثلاثة أطفال ذكور، أعمارهم متقاربة، عام بين كل طفل..

«هادي» الأكبر ثم «سيف» وبعده «جاسر» الأصغر..

ملامحهم متقاربة لكن جسد «هادي» اختلف عن أخويه الصغيرين، فهو يميل إلى السمنة كثيرا بخلاف «سيف» الممشوق، وهكذا «جاسر» الصامت العنيد.

أما الشيخ «رياض» فأنجب أول ما أنجب «رماح» نسخة من أبيه، كان عاشقا للبحر وللصيد، بمجرد أن حملته ساقاه هرول خلف الأمواج المعربدة على الشاطئ.

وظل فترة طويلة لا ينجب حتى رزق بابنته «جميلة».

لكـن «صامد» مكمن القوة في البلد أحجـم كثيرا عن الزواج حتى ا صخ لضغط كبار البلد فتزوج وأنجب ابنا وحيدا يشـبهه في كل شيء سماه «وهدان».

أنجب الشـيخ «داود» التاجر صبيا سـماه «راغـب» وبعد فترة رزق بنت «جميلة» أسماها «زهرة».

ظـل «راغب» محل امتعاض الجميع بسـبب ميوعتـه، لكن أباه لـم ينهره أو حتى يبدي امتعاضا من تصرفاته، فقد كان فرحا به وهو الصبي الوحيد.

استطاع الشيخ الكبير ومعه الشيوخ المؤسسون أن يبنوا بلدا حقيقيا به تجارة، وأسـواق وحراس، بـه كتاتيب لتعليم أطفـال المكان، ظلوا هكـذا يرفلـون فـي نعيم الوقـت وهدوئه، حتـى علت يومـا صرخات مدوية تأتي من الوادي الواقع بين الجبلين، المدخل الصحراوي..

وقتها سُجل أول هجوم من الغرباء على المكان.

انتفـض الشـيخ «صامـد» برجاله ممتطيا فرسـه ومن خلفه الشـيخ الكبيـر و«ريـاض»، وبقـي «داود» مـع بعـض الرجال يحمـون مدخل البلدة البحري.

انطلقـت خيول الكبار، علـت الغبرة في الطرقات، دخلت النسـاء البيوت، خلا المكان من أهله..

ظهر الشيخ الكبير بفرسه الأبيض وعمامته التي ترفرف من خلفه، صرخ في هذا اليوم، صرخته التي حفظها من جاء بعده:

- دونها أو نموت.

ظلت تلك الصيحة ترن في أرجاء البلد عبر كثير من الأحداث التي تلت عهدهم حتى كان يتم تدريسها في الكتاتيب.

- إما أن نحميه أو نموت.

صرخ «صامد» صرخة كبرى:

- توقفوا.

لم يكن يتخيل هذه الأعداد الكبيرة من الغرباء بعتادهم وخيولهم..

أراد أن يرتب الصفوف، ويتفق على حيلة للمواجهة.

انفلت الشيخ الكبير برجاله ناحية الجبل الأيمن وهكذا فعل الشيخ «رياض» مع بعض الرجال والتف حول الجبل الأيسر وظل الشيخ «صامد» في المواجهة مع خيرة رجاله.

ظهور «صامد» وحده يحدث الرعب في قلوب الأعداء، بهيئته التي تشبه وحشا تاريخيا، قامة فارعة، تزيد على المترين، جسد منحوت من صخر، وصوت يشبه صوت الأسد.

ردد صرخة الشيخ الكبير:

دونها أو نموت.

هجمت عليه أعداد من الغرباء بخيولهم وسيوفهم وحرابهم لكنه وقف كمارد، يطيح بسيفه يمينا وشمالا يشق صفوفهم، حتى فرقهم ومن خلفه مجموعته الجبارة.

التف الشيخ الكبير من خلف جبل الميمنة، وهكذا فعل الشيخ «رياض» ليصنعوا كماشة على الغرباء.

لم يستمر القتال طويلا بعد أن غادر الغرباء تاركين البيوت كومات من الرماد، والأسواق التي كانت على الشاطئ خرابا.

تاركين صرخات كثيرة للأمهات اللاتي سرقوا أطفالهن.

اعتاد الغرباء سرقة الأطفال من الذكور.

انفلت كل مقاتل إلى بيته يطمئن على أبنائه وأهله.

لم يخطف في هذا اليوم سوى ابن صاحب المقهى الكبير.

باتت البلدة غارقة في حزنها، وحدادها على من مات في تلك المعركة، وعلى الصغير الذي سُرق ولن يعود.

في هذه الليلة اجتمع الشيخ الكبير بجميع أهل بلدته وقرر التالي:

أولا يحمل جميع الأطفال من الذكور إلى الجزيرة المعزولة، تلك الجزيرة المرمية في آخر أطراف البحر، تصل إليها في مسيرة يوم كامل بالمركب، اكتشفها الشيخ الكبير حين تعطل قاربه ذات ليلة شتائية فارسة في أيام الصبا، فشد قاربه إلى الشاطئ ونام ليلته بها، في الصباح

اكتشـف أن هناك جنة في الأرض، أنهار وفواكه وخضرة وكل شـي،، ولكنها بلا ناس.

فقرر أن تكون تلك الجزيرة خلوته، يهرب إليها أيام الضيق، ويلجأ إليهـا حين يحتاج إلى أخشـاب، لأن نوعية الأخشـاب بها نادرة تلائم صناعة القوارب، ولا تتلف من الماء.

مـع فجر اليـوم الثاني أخذ قاربـه المحمل بصبيان البلـدة إلى تلك الجزيرة، وملأ الشيخ «رياض» قاربا آخر بالطعام والشراب وسار خلفه، حتى وصلوا إلى تلك الجزيرة، وبقي «صامد» ومعه الشيخ «داود» في البلدة للحماية بعد أن رفض السماح لابنه «راغب» بالركوب معهم.

***

6

في الصباح أخذت «فاطمة» إلى المكان الذي تُجرى فيه اختبارات الخارجيـة، ارتدت جاكيتا أسـود له ياقة طويلة مبـروزة بدانتيلا بيضاء وجيـب أسـود يغطـي أسـفل الركبـة بقليل وحذاء لـه بريـق محير أهو انعكاس لبياض ساقيها وصفائهما أم انسكاب للأنوثة من أعلى.

حيـن ركبت في المقعـد المجاور لي، أزاحت شـعرها إلى الوراء، فبـرز العنق بكل جبروتـه فارعا ينتهي بثديين يريـدان تمزيق ما عليهما رغبة في التحليق.

شـيء ما يسـري في الأوصال والعروق وزوايا القلب، يعيدني إلى الذي كنته أيام الصبا والبراءة حين كانت تتساوى نظرة إلى «فاطمة» مع أكبر متعة في التاريخ.

فـي الطريـق أجريـت مكالمـات مـع كثيـر مـن الذيـن يمكنهـم مساعدتها.

قلت لها مبتسما:

- أعضاء اللجنة أصدقائي.. مبروك مقدما.

شيء ما في داخلي يجعلني أسعى لضمان بقاء هذا الفرح بجواري.

أوصلتها إلى المكان، طلبت منها أن تتصل بي فور الانتهاء، لأنه لا يجب أن أكون موجودا، أو يراني أحد.

انطلقت إلى أبي النيل، هذه المرة عبر أحد المقاهي الذي يطل مباشرة عليه، لماذا يخلق هذا الوقت بالذات كل هذا الشجن في نفسي؟ ولماذا تتسمر عيناي على قرص الشمس في السماء وهو يتحرك من على عرشه إلى ناحية الغروب؟

أرى بداية تلك الاستدارة أول خطوة للفناء والاندثار، أول خطوة في مسيرة الشمس التي تنتهي إلى الفناء المؤقت، والزوال الذي يتيح للظلمة بأن تتسيد وتعم.

كل يقرأها كما يشاء، فانكسار هيبة الشمس هي رحمة للمعذبين بنارها، وانكسار هيبة الشمس هي انفتاح البوابة التي تقف خلفها خيول الليل لتبدأ في الانطلاق تجرجر خلفها سجاجيد الظلام.

في فترة ما بعد الزوال تزيد غبشة الكون وتزداد رماديته التي تختلط فيها كثير من الأشياء، فلا يستبين الصالح من الطالح، تصبح كل الأشياء ظلالا وفقط، ظلال إنسان وليس بإنسان، وظلال حيوان لا تتضح ماهيته سوى من أنه يسير على أربع.

كل شيء ضبابي، غائم، مرتبك.

أشعر أنني واقف في تلك المساحة من الزمن، كل شيء متناقض ، ملبد، غير قادر على حسم أي شيء في حياتي، معلق على حبال الحيرة والارتباك، أتأرجح مهزوما، لكن اليقين المضمون لدى

إدراكي أنني أقف على حافة الدائرة التي تتجه نحو الزوال والفناء حتى لو كان مؤقتا..

***

بعد أن أنهت اختبارها أخذتها بكامل أناقتها إلى الإسكندرية، مدفوعا برغبة القرب منها في طريق يمتد إلى منتهى التجلي..

مدفوعا لفك بقية شفرات الحكاية، الجلوس بجوار الدكتور عبد النبي الهادي والدكتور فراج البيومي وهما يعيدان تضبيط الحكاية لإعادة بعثها من جديد، هو واقع بين ماضيين، لكل منهما سحره، «فاطمة» وحكاية ذلك البلد.

كل يوم يزداد طريق الإسكندرية الصحراوي بريقا وألفة بعد أن بت من رواده، في هذه المرة تمنيت ألا ينتهي، تمنيت أن يمتد ويطول بقدر الغوص إلى مكنون تلك الفاطمة..

من يقدر على إجابة ذلك السؤال:

- كيف لفاطمتين المفروض أنهما مختلفتان أن تحدثا نفس التأثير في ترمومتر القلب؟

كيف لي أن أصدق الآن أن تلك التي تجلس في مقعد السيارة المجاور، بكل بهائها، وأنوثتها، ليست «فاطمة» القديمة؟

لم تكن تتحدث كثيرا، شيء ما يشغلها، يخطفها بعيدا عني أو ربما يقربها جدا مني، حين تنظر إلي تطول النظرة أو تنساها..

تتسمر العينان في القلب القلق.

لم يكن الطريق بقدر الرجاء، لم يطل، لم يمتد، بل انتهى فجأة كفيلم سينمائي جميل..

حين دخلنا إلى بيت الدكتور «الهادي» استقبلنا بترحاب مفتعل:

- دي بنتك؟

لم تكن جملته سهلة أو عابرة، بل كانت كصفعة تعيد دوران الوجدان عكس الاتجاه.

قدمتها بما يتسق مع الواقع، تركت لنفسي براح العبرة، همست لنفسي:

- فاطمة، حبيبتي..

«فاطمة» الأمنية التي غرست بذرتها في طين القلب وظننت أنها ماتت، وبعد توالي الفصول وهرولة السنين رأيتها تنبت وتثمر من جديد..

لفت نظري غضب وعصبية الدكتور «البيومي» وهو يدخل من الشرفة ماسكا بواحدة من الصحف المشهورة، يمزقها بعنف، ويبصق عليها:

وكأننا لم ننتج سوى فريق واحد من المطبلاتية والأفاقين، إنها أ[illegible]ة النفاق.

ضحك الدكتور «الهادي»:

- علينا أن ننقذ هذا الرجل من نفسه وإلا سنجده في المعتقل.

بدا المزاج جاهزا لكثير من الفرح، اقترحت على الجميع أن أصطحبهم إلى أحد المطاعم الراقية، كعادتهما يتذرعان بكبر السن، اقترحا أن تكون الوليمة في الشرفة بين زرقتي البحر، والسماء.

اتجهت إلى المكتب، وكأني أسمع نداء الشيخ الكبير، يطلب إكمال الحكاية..

لحق بي الدكتور «الهادي» وترك الدكتور «البيومي» يكمل غضبه وانفجاره مما آلت إليه الأحداث في مصر، وقتها اكتشفت في «فاطمة» شيئا جديدا، كانت ثائرة، تتكلم في السياسة كما كان يتحدث الثوار في الميادين، هي ابنة هذا الجيل الذي للأسف لا أنتمي إليه.

كان المكتب معبئا بالتاريخ، تخيلت للحظة أن شخوص البلدة الكبيرة سيخرجون من أركان المكان..

همس لي الدكتور «الهادي»:

- يتأكد لي كل دقيقة أن المخطوطات كنز. الفترة الزمنية ما زالت غامضة.. تشابه الأحرف، جلد المخطوط، كل شيء يتشابه مع أزمنة كثيرة.. وهذا هو الجديد والمحير.

لم أكن منشغلا كثيرا بالفترة الزمنية أو تنقيح التواريخ وغيرها، ما كان يعنيني هو مسار الحكاية..

سلمني الدكتور «الهادي» رزمة من الأوراق بخط يده تحوي بعضا مما نجح هو والدكتور «البيومي» في فك شفراته.

لم أستطع أن أقاوم كنت ألهث بعيني خلف الحروف والكلمات، أقفز من سطر إلى سطر، أطارد المعنى المبعثر على تلافيف الجمل.

***

حين وصل الشيخ الكبير ومعه «رياض» إلى تلك الجزيرة المعزولة، اختارا مكانا آمنا لأبناء البلدة وظلا ليلة كاملة يقطعان الأخشاب، ويرصانها فوق بعضها حتى صنعا بيتا له سقف متين، مخفيا بين أشجار الموز بأوراقها الكثيفة، بحيث لا يُرى البيت بسهولة.

أسكنا أبناء البلدة، وتركا معهم «خلدون» الذي يكبرهم بخمسة أعوام، يعلمهم القراءة والكتابة، يشرف وينظم لهم برنامجهم اليومي.

فكر الشيخ الكبير في برنامج عمل يومي لهؤلاء الصبية، حيث يقوم كل فتى يوميا بقطع خمس أشجار صغيرة وتشذيبها من فروعها، ودحرجتها إلى مكان مستوٍ..

وفي كل شهر أمر «خلدون» بأن يزيد العدد واحدة فواحدة حتى يصل العدد إلى ثمانية ليحين موعد قدوم الشيخ الكبير.

لم يكن «خلدون» ولا الصبية جميعهم يعرفون المقصد ولا الغاية التي كان يرجوها الشيخ الكبير من ذلك البرنامج اليومي..

أراد الشيخ رياضة عنيفة، يضمن بها بناء جسديا متينا لهؤلاء الصبية الصغار، الذين سيمثلون الجيل الثاني لبناة بلدتهم الحلم.

ظل «سيف» و«جاسر» ابنا الشيخ الكبير حريصين على أن يكونا في مقدمة الصفوف، فقد همس أبوهما في أذنيهما: كونا قدوة لإخوانكم.

قال لهما:

- عوضانـي عـن غياب أخيكما هادي، الذي بكـى كثيرا حين رأى الأبناء يحشرون في القارب، أراد أن يبقى مثل صديقه راغب..

بلع الشـيخ الكبير حسرته على ابنه البكر وصمت، ووضع أمله في ولديه «سيف» و«جاسر».

هكذا اطمأن الشـيخ الكبير على أبناء الجيل الثاني الذين سيمثلون مرحلة أخرى من مراحل بلدتهم، وتفرغ أيضا للاستعداد لقتال الغرباء، فقد تأكد له أنهم سـيغيرون مرات ومرات وحسب فطرتهم الشريرة لن يتركوا ذلك البلد يكبر فيكون غصة في حلوقهم.

وقف «سـيف» وبجواره أخوه «جاسـر».. كل منهمـا يحمل بلطته ومن خلفهما بقية أبناء الجيل الثاني..

«رمـاح» ابـن الشـيخ «ريـاض»، و«وهـدان» ابن الشـيخ «صامد»، والجداف.

***

حين عاد الشـيخ الكبير ومعـه «رياض»، توصلا إلى فكرة تمكنهما من التصدي للغرباء، قال الشيخ الكبير:

- لـن نتمكـن وحدنا مـن مواجهتهم، علينا أن نصـل إلى اتفاق مع جميع البلاد الممتدة على البحر، جيراننا.

ابتسـم الشـيخ «ريـاض» والمركـب يقطـع الموجـات الآتيـة إلى «صفين:

- يجب أن يكون لدينا شيء نقدمه لهم ليتم الاتفاق، ونحن ليس لدينا شيء، بل هناك بلاد كاملة لا تعرف عن أمر بلدنا شيئا، ولا عن اسمه، هم يقولون البلد الذي سكن فيه الشيخ الكبير فقط.

ابتسم الشيخ الكبير..

- ترى ما اسم بلدنا؟

أطلق «رياض» ضحكة مجلجة في فضاء البحر:

- نسينا أن نسميه.

رد الشيخ الكبير بصوت يملؤه التحدي، والأمل:

- البلد الكبير، سيكون هذا اسمه، سيكون هذا دوره، سيكون هذا مستقبله.

في الصباح لاحت في الأفق مشارف «الصواري» منتصبة أمام الورش التي تخصصت في صناعتها كأنها ترفع السماء، على الشاطئ امتدت المقاهي التي تحتفي بروادها.

جنح بقاربه ناحية مدخل «بلدة الصواري»، ربط قاربه، اتجه ناحية أحد المقاهي المبنية من الخوص، أكل وشرب وحدد مع الشيخ «رياض» تفاصيل الاتفاق الذي سيوقعانه مع كبير البلدة الشيخ «عدنان» الصاري..

مع أول نسمات العصر، سارا معا إلى مجلس الشيخ «عدنان»، الذي احتفى كثيرا بهما، أقام لهما الولائم، وراحوا يستدعون الذكريات

أيام الصبا، حين تجاوروا جميعا في مقاتلة الغرباء بعد أشرس هجوم لهم.

لما أصبح الجو ملائما، وبعد أن صفت النفوس، طرح الشيخ الكبير فكرته أمام الشيخ «عدنان»:

- الذئب لا يأكل إلا القاصية..

هكذا بدأ، وأضاف:

- كلما كنا متوحدين سنبقى، ولو تفرقنا سنزول جميعا، الغرباء لا يكرهون بلدا بعينه، هم يكرهوننا جميعا، نريد أن نتوحد.

كان وجه الشيخ «عدنان» مستسلما لحجة الشيخ الكبير ولسانه مؤكدا على كل فكرة طرحها.

وقف الشيخ الكبير، فرد قامته الطويلة، خلع شاله الملفوف على كتفيه وعنقه، وراح يشرح على الحائط خطته:

- لبلادنا بابان، باب من البحر، وباب من الصحراء، لو نجحنا في تأمين باب البحر، لن نستطيع أن نؤمن باب الصحراء، والغرباء خبراء في البر وفي البحر أيضا، سنقسم الأدوار فيما بيننا، نصفنا يتولى حماية البر والنصف الآخر يتولى حماية البحر.. كل حسب قدرته وخبرته، علينا أن نوقع بذلك اتفاقية للدفاع المشترك.

التقط الشيخ «رياض» جملة الشيخ الكبير وأكمل عليها:

- هذه القوة تقوم بالمرور اليومي في البحر والبر. ولو لا قدر الله وقع هجوم مفاجئ من الغرباء تحشد جميع البلاد قواها وتصبح

مشاركتها في الدفاع واجبة، ومن يتخلف نوقع عليه عقوبة أو يخرج من الاتفاق.

وقف الشيخ «عدنان» بجوار الشيخ الكبير، فاتضح الفارق في القامة والطول بين الاثنين، كان الشيخ «عدنان» قصيرا يميل إلى السمنة كثيرا، لكنه عُرف بدهائه، قال:

- قوة في البر سهلة، الخيول والجمال، الجنود والسيوف لدينا منها الكثير، يستطيع كل بلد أن يتولى حماية مداخلها الصحراوية هذا بخلاف القوة الموحدة المكونة من جميع البلاد وهي ستجوب الحدود الصحراوية، ولكن ماذا عن القوة البحرية؟ من أين لنا بها؟

وقتها أطلق الشيخ الكبير فكرته التي طالما شكلت حلمه الكبير..

قال بهدوء وثقة:

- السفينة الكبيرة.

لم يترك للشيخ «عدنان» ولا لضيوفه أن يبادروا بالسؤال، بل أكمل مباشرة:

- تلك هي الفكرة التي أحملها إليك، حلم كبير، عشت أتخيله، أدقق وأرسم كل تفصيلة فيه على الورق، حتى اكتملت الفكرة ولا ينقصها سوى التنفيذ.

عاد الشيخ «عدنان» إلى مجلسه بجوار الشيخ «رياض» والضيوف وأشار للشيخ الكبير بأن يكمل، أحس أن ثمة شيئا ذا هيبة ووقار سيقال:

- منذ أكثر من عشرين عاما، منذ أن زادت شراسة الغرباء، وهجومهم علينا من البحر، ومنذ أن بدأوا يسرقون القوارب الكبيرة، ويقتلون بحارتها، ويخرقون القوارب الصغيرة، ووصل شرهم إلى خطف الصبية حتى لا يكون لدينا في يوم رجال نقاتل بهم. منذ ذلك الحين وأنا أرسم تلك السفينة على الورق، أضع التصميمات، أختبر نوعية الأخشاب، حتى انتهيت منها. سأصنع لكم بمساعدتكم ودعمكم سفينة ضخمة لا يقدر الغرباء على مواجهتها، ولا تقدر أية قوة على التصدي لها، سفينة في أوقات السلم نستخدمها لنقل بضائعنا وحاجياتنا، وفي أوقات الحرب تتحول إلى قاعدة عسكرية كاملة تتكون من طوابق متعددة في الأسفل فيصعب إغراقها، ولأن العمق في الماء يصنع توازنا كبيرا، وطوابق الأعلى تتحول إلى منصات ملتوية بطريقة تمكنها من الوصول إلى أي هدف دون خسارة.

سأل الشيخ «عدنان»:

- كم تستغرق من الوقت؟ وكم تحتاج من الأخشاب؟

توالت التساؤلات وراح الشيخ الكبير يجيب بثقة وتمكن عن أدق التفاصيل.

انتهت الجلسة، خرج الشيخ «عدنان» مع عدد من رجاله بجوار الشيخ الكبير والشيخ «رياض» وراحوا يمرون على البلاد المجاورة، يشرحون الفكرة لشيوخها الواحد تلو الآخر، كلما خرجوا من بلد خرج معهم شيخُها مع عدد من رجاله حتى وصلوا إلى البلد الكبير.

أطلق الشيخ الكبير المنادين في الطرقات يجمعون الناس للاحتفال بزيارة شيوخ وقادة البلاد المجاورة، وأكد على الجميع الا تنبس شفاههم بخبر عن ذلك الاتفاق حتى لا يفسده الغرباء.

اصطف الشيخ الكبير وبجواره الشيوخ المؤسسون «رياض»، «صامد»، و«داود»، وفي الجانب المقابل لهم وقف شيوخ وقادة البلاد المجاورة التي تمثل الخط السكني الممتد على البحر.

وتم التوقيع على أول اتفاق للحماية بينهم دون أية تفاصيل.

علت الأفراح، الاحتفالات، أنير الشاطئ بفوانيس لم تنطفئ لمدة عامين كاملين، فقد بدأ الشيخ الكبير في تشكيل فريق من النجارين المهرة، يعملون ليل نهار على الشاطئ، الذي يستقبل بين الحين والآخر سفينة مملوءة بالأخشاب وأخرى بالمسامير والحبال وما يحتاجه لصناعة سفينته..

مع الوقت بدأ يظهر هيكل السفينة الخشبي كأضلع ديناصور بالغ الضخامة، كقفص صدري به أضلاع لم تكتسِ باللحم بعد..

في المساء كانت الفرق التي انتشرت على مقاهي الشاطئ تردد الأغاني كلها حول الوحدة، الاتحاد، القوة.

ظهر الشيخ الكبير فوق هيكل سفينته كأن سيدنا «نوح» بُعث من جديد، ليبني سفينته، حتى كثير من الناس أطلقوا على الشيخ الكبير الشيخ «نوح»، وهو لم يكن يعلق، ترك للناس حرية رؤيتها كما يشاءون.

كل يـوم يكتمل في السـفينة جزء جديد، تأخذ شـكلا آخر مختلفا، أقـرب إلـى الواقـع حتى اكتملـت وصنعوا لها مرسـى من الأخشـاب والصخور استعدادا لعملية إنزالها إلى الماء، الكل التف حولها، يدور مبهورا بصنعتها..

بدت مثل مدينة متحركة.

لمـا جـاء اليوم الموعـود لبث الـروح فيهـا، لولادتهـا، لإخراجها للنور، أقيم احتفال بلغ من الضخامة أن أنير شارع البحر بامتداد البلاد العشـرة السـاكنة عليه، أقيمت الولائم والأفراح على شـاطئ كل بلد، حتى إذا مرت السـفينة على كل بلد رست وخرج جميع سكان المكان يتفقدونها.. يركبونها يوما كاملا ثم يذبحون فوق ظهرها الذبائح.

وهكذا تنتقل من بلد إلى آخر.

شـكل الشـيخ الكبير فريـق البحارة الذي سـيتولى قيادتهـا واختار عشـرة قادة كل واحد يتولى إدارة السـفينة شهرا كاملا، وكل قائد يمثل واحـدا مـن البلاد المجـاورة، لتصبح السـفينة ملكا للجميـع ويديرها الجميـع، وتحمـي الجميـع، ولا فضل لأحـد على أحد، الكل شـارك والكل صنع والكل سيحمي وسيقاتل.

هكذا تحدث الشيخ الكبير في حفل إنزال السفينة إلى البحر.

حفل أسـطوري، صمم الشـيخ الكبير أن يأتي بالصبية من الجزيرة المعزولة ليشـاركوا ويحضروا حفل إطلاق السفينة ويركبوا جميعا بها

حتى إكمال رحلة مرورها على البلاد العشرة، ثم بعد ذلك يعودون إلى جزيرتهم.

من وقتها أصبح الشيخ الكبير ليس شيخا لبلده الكبير فقط بل هو الشيخ الموقر لكل البلاد العشرة، هو الذي يدير الجلسات، ينظم الاجتماعات، يوزع المهام والعطايا.

لكن لم يرضَ شيوخ البلاد به كبيرا إلا بعد أن تأكدوا من رجاحة عقله وزهده، وابتعاده عن الغنائم، والعطايا، كان لديه ذلك اليقين بأن الغنائم تفرق، والأنانية توغر الصدور..

دائما يقف في الصفوف الأخيرة، يقدم الفضل لأهله.

تحول البلد الكبير إلى العاصمة الفعلية لجميع البلاد.

لكن زادت سطوة الغرباء، كثرت هجماتهم من الصحراء بعد أن أغلقت السفينة أمامهم فرصة الانقضاض بحرا، وكثرت المؤامرات تارة لحرق السفينة، وتارة لشراء نفوس الرجال العاملين عليها.

أقام الشيخ الكبير إدارة كاملة للمخابرات تتكون من أحد عشر قاربا صغيرا، تجوب البحر يوميا، تسبق السفينة، ترصد، تكتب تقاريرها، وتقدمها إلى الشيخ الكبير، أو إلى الشيخ «رياض» الذي ما ترك السفينة قط، حتى إنها أصبحت بيته ومسكنه.

تفرغ الشيخ الكبير مع الشيخ «صامد» والقوة البرية الموحدة للتصدي للغرباء القادمين من البر ومن الصحراء.

ترك ترتيب أمر التجارة وإقامة الأسواق، والبدء في إنشاء الميناء أو بيت السفينة كما كان يردد الناس في البلدة للشيخ «داود» الذي كساه حزن وغم وهو يرى ابنه الوحيد «راغب» يسوء يوما بعد يوم، هناك من قال إنه شاذ جنسيا، يرتدي في المساء ملابس النساء، هناك من رآه يتلصص على النساء من النوافذ في الظهيرة.

لطالما عنف الشيخ الكبير ابنه «هادي» على صداقته الكريهة مع «راغب»، لكن «هادي» كان يردد دائما:

- أنا صديق عمي الشيخ داود، أتعلم منه التجارة.

«هادي» يوما بعد يوم، تظهر ملكاته في البزنس أكثر، يكره القتال بل شهد الجميع بجبنه وخوفه وابتعاده عن أية مشكلات، سخر منه الجميع حين اختبأ في الجبل ذات هجوم من الغرباء على عكس أخويه، «سيف» المقدام الذي حين يأتي به أبوه ومعه أخوه «جاسر» لا تجده في البيت، هو يصعد قمة الجبل ليصطاد الضباع والفهود، ومعه أخوه «جاسر» الصغير، الذي حمل سيفا منذ نعومة أظافره، وخافه الكبار من خفته وبسالته.

تجلى عشقة للسفينة منذ صباه، ألح كثيرا على أبيه أن يبقيه في السفينة.

ذهب ذات ليلة إلى الشيخ «رياض»، والقمر متربع في الماء، وقف فوق ظهر السفينة الذي بدا كصحراء ممتدة، قبل يديه ليتوسط له عند الشيخ الكبير ليبقيه في السفينة.

لكن الشيخ الكبير كان يريد أن يواصل «جاسر» بقاءه في الجزيرة يقطع الأخشاب في النهار ويحملها في المساء، حتى يرى بنيانه قد اكتمل.

يعول كثيرا على «سيف» وعلى «جاسر»، في إكمال مسيرة بلده الكبير، يقتنع بأن القوة الجسدية والقوة الروحية لا تأتي من فراغ..

بل الخلوة، واعتزال الناس ومواجهة صعوبات الحياة أشياء كفيلة بجعل من يجلس على كرسي قيادة البلد الكبير يكون قادرا وجديرا.

***

7

حاولت تهدئة «فاطمة» طوال الطريق من الإسكندرية إلى بلدتي، لم تكف عيناها عن البكاء بعد تلك المكالمة المشئومة:

- أبوكي في المستشفى عمل حادثة وحالته خطيرة.

تابعت ذبولها، وحزنها، عادت إلى ذاكرتي صورة أبيها الذي خطف حلمي، وتزوج فاطمتي، لكنني لم أجد في القلب بقايا لحقد أو بغض، فقط وجدت مخزون التعاطف قد فاض وانسكب ناحية «فاطمة».

قالت لي:

- منذ وفاة أمي، كان لي ولأخي الأب والأم.

إلى مستشفى المدينة وصلت، ظهر من بعيد شاحبا وكئيبا..

اندفعت «فاطمة» إلى الداخل، بقيت مع الرجال الواقفين في الخارج، يعيدون الحكاية مرات ومرات كلما وصل زائر جديد.

- السيارة انقلبت به عشر مرات..

ومع كل إعادة للحكاية كان العدد يزيد.

لاحظت بعض الاستغراب على وجوه الحاضرين، في عيونهم تساؤلات:

- كيف لي أن أزور مريضا وأنا الذي لم أحضر كثيرا من المآتم؟!
أنا المنقطع عنهم!

ترى هل فضحني قلبي؟

ووشت بي مشاعري؟

لم يطل الوقوف كثيرا فقد علت الصرخات والضجيج والجلبة والحزن:

- البقاء لله.

اندفعت إلى داخل الغرفة، الأطباء ساهمون، «فاطمة» تنهار على الممدد في السرير الأبيض..

غريبة هي رائحة الموت، تنفذ إلى الروح، تزلزلها، حضرت أمامي كل حالات الوفاة التي مرت في حياتي وانطوى القلب على نفسه.

اقتربت من «فاطمة»، وضعت يدي على كتفها، لم تعِ تلك اللمسة..

أردت أن أقول لها:

- أنا هنا بجوارك، أنت مسئوليتي، لن أتركك كما تركتُ أمك. فاطمتي الحالية لن أدعها تضيع كما ضاعت فاطمتي السابقة.

في المساء وقفت لأول مرة بعد عشرات السنين وسط السرادق الممتد في مدخل بلدتي، أتأمل موجات الوجوه التي لم أرها منذ ما يزيد على ثلاثين عاما، الكل يقبلني، يلفني بحميميته، يعصرني، يفرغني من مخزون الترف والأناقة المفتعلة.

فتشت بين تجاعيد الوجوه عما بقي من أصدقائي القدامى..

أفتش بين شيب الشعر عن صباي ونزقي.

في القرى تكون الأفراح والمآتم فرصة للملمة الجميع.

حين ختم المقرئ قرآنه، انفض الجميع، اصطحبني ابن أخي إلى البيت، وفي الطريق أعاد إلي وجع أبي:

- أولاد الشيخ الطاهر وصل الخلاف بينهم إلى العراك والضرب وباتوا ليلة كاملة في المركز، يريدون بيع أرضهم، ومن ضمنها الأرض التي كانوا اشتروها من أبيك برخص التراب.

لم أفهم القصد من وراء الحكاية، صمت وتركته يكمل:

- هي فرصة أن نرد ما أخذوه، على الأقل نرفع رأسنا في البلد.

عاد بي شريط الذكريات الأليمة، أبي واقف أمام الحاج «الطاهر» ذليلا غير قادر على رد الديون التي أخذها تباعا وكلها كانت بسببي، كان أبي مصرا على تعليمي، رغم أن الحال لم يكن يسمح..

ما زلت أذكر تلك الجلسة العرفية التي عُقدت في مندرة شيخ البلد، طأطأ أبي رأسه على صدره مستسلما لحكم الكبار الذين تصدروا الجلسة:

- حكمنا بأن يتنازل عبد الودود الشيخ عن فدانين من أرضه للحاج الطاهر، وبشرط أن يرد إليه أرضه لو استطاع أن يسدد المبلغ المستحق.

راحت الأرض، وبعدها بقليل راح أبي.

ربما كان ابن أخي يريد أن يسرب إليَّ تلك الجملة:

- بسببك ضاعت الأرض ومات أبوك.. كن رجلا وردها إلينا.

وصلت إلى البيت، وجلس ابن أخي في مواجهتي صامتا، ينتظر مني ردًّا:

-كم يريد أولاد الطاهر في الفدان الآن؟

في مساء اليوم الثاني عُقدت جلسة كتلك التي كُسر فيها أبي، التف أولاد الطاهر، مختلفين متصارعين، وانتصبت أنا في الجلسة ومن حولي الجميع، يتمم على ما أقول وكنت أنا الحكم:

-تعرفون كيف راحت الأرض من أبي الله يرحمه.. ونحن نريد أرضنا، ولنا هنا شفاعتان، شفاعة الجيرة، وشفاعة الحق، والأرض لنا بنصف سعر السوق.

انتهى كلامي، ولم يرده أحد، بل أخرجت العقود، وشيكا بكامل المبلغ، ليلتها غمرني إحساس لم أجربه منذ كنت طفلا صغيرا أهرول خلف أبي يوم جني المحصول، أو حين يشتري لي شيئا جديدا.

في تلك الليلة أبطلت عقدة المكر التي لفها الماكرون على عنق أبي وأخذوا أرضه فاكتشفنا أنهم أخذوا الأرض ومعها روحه فمات.

عشنا بعده اليتم بطعم الانكسار والهزيمة، ولعل هذا كان سببا من تلك التي جعلتني أبتعد عن بلدتي وناسي، كنت أبتعد عن الهزيمة والانكسار.

الليلـة بعد أن رأيـت الأعناق منحنية أمامـي والجميع لا يردون لي كلمـة، تيقنـت أن الحقوق مهما طالت سـتعود إلي أصحابهـا لو كانوا يستحقون، أحسسـت أنني أريد أن أستغل حالة الانتشـاء بالنصر هذه لأكمل تدوين بقية الحكاية.

***

الورقة السادسة

كانت السنون تمر ليست فرادى، خمسة أعوام مضت والبلد يمد قدم العمار إلى حدود الجبلين، بيوت، مشاريع، واحد لصناعة القوارب، وآخر لتخزين الأسماك، وأخرى لقطع الرخام..

حياة تضج، بحرا وبرا، قصور تُنشأ على الأطراف، حدائق غناء، تتمدد، مساحات من التحضر والثراء.

دوَّن «خلدون» في دفتره الكبير كل صغيرة وكبيرة، حتى حفل إطلاق السفينة عبأه في رسوم ولوحات داخل كتاب ضخم متعدد الصفحات، يكتب أسماء المواليد، تواريخ إنشاء البيوت، الزواج والطلاق، أسماء من يموتون في المعارك.

يخصص دائما مساحة كبيرة للشيخ «صامد»، الوحش الذي تولى قيادة القوة البرية، ذائع الصيت، كثير البطولات، صاحب المآثر الخالدة، المبتعد عن الأضواء، الصامت دائما.

يسجل «خلدون» في إحدى حكاياته أن الشيخ «صامد» كان يجلس في أحد المقاهي منزويا في ركن بعيد، يتناول وجبته المفضلة من طاجن الأسماك، راح الراوي يعدد محاسنه في موال طويل يحكي بطولاته في المعارك في مواجهة الغرباء..

حامي الحمى وراعي الأخلاق

ما انهان من كان صامد حاميه

يا زين الرجولة والبطولة..

لكـن «صامد» لم يطق أن يسـتمع إلى مديحـه، في خجل وتواضع انفـض خارجـا مـن المقهـى، تـاركا الـراوي والحضـور، وطاجـن السمك.

أكثـر مـن أحبه الناس بعد الشـيخ الكبير هو «صامـد»، بل إن هناك جيلا كاملا من المواليد الذكور حملوا اسمه.

ومثـل الأب جـاء الابـن، «وهـدان» ابـن حمـل صفاتـه وملامحـه وبطولاته وأخلاقه، حين بلغ الخامسة عشرة حمل سيفه، ركب حصانه، وقف بجوار أبيه في إحدى المعارك، يصرخ صرخته بنفس طريقته:

- دونها أو نموت..

اختار الشـيخ «صامد» آخر البلدة بين الجبلين مكانا ليبني فيه بيته، ومنـذ أن سـكن المكان وجميع البيـوت المجاورة تعيـش في طمأنينة وسـكينة، رآه جيرانـه يخرج مع الفجر إلى بسـاتين الوادي، يسـير بين أشجار الليمون والتفاح، يلمس كل شجرة بيده وكأنه يصافحها، يفرح كطفل حين يرى في الأشجار بشاير الثمار التي نضجت.

يظـل حتى تطل الشـمس بحيائها المعتاد فـي الصباح، فيصعد إلى قمـة الجبل، يصعد ويصعد حتى يصل إلى القمة وهناك يشـيح بسـيفه يمينا ويسارا وكأنه يصارع أشياء مجهولة، يبدو نقطة سوداء صغيرة في قمة الجبل، كساموراي يحارب المجهول.

بعد أن ينهي تمارينه اليومية، يستريح في فم الكهف، يمارس التأمل، ينظر إلى بلدته معشوقته من فوق، فيراها نائمة بين ساقيه، يهدهدها ثم

يملأ صدره هواء عُلويا ويعود، ينزل بتؤدة بصدره العاري، حين يقترب من البيوت والناس يرتدي ملابسه، يمشي متواضعا ناظرا إلى الأرض كمن يتفقد جلدها.

ذات مساء صيفي جميل بعد أن أنهى «خلدون» حصة الدرس مع «سيف» و«جاسر» ورماح والبقية الموجودة معهم في الجزيرة المعزولة، قص عليهم حكاية من حكايات البطل «صامد»..

تقول الحكاية: «إن بعضا من مقاتلي الغرباء ترصدوا للبطل «صامد» في الفجر، ظلوا يتابعونه حتى صعد إلى قمة الجبل، انتظروه في الأعلى وكان هناك من ينتظره في الأسفل، نصبوا فخا محكما لقتله والانقضاض عليه.

تركوه يصعد إلى قمة الجبل حتى يكون متعبا من الصعود ثم ينقضوا عليه من كل الجهات فيقتلونه.

كانوا كثيرين، يقال إنهم من فرقة كونها الغرباء تسموا فرقة الهلاك الأسود، كل واحد منهم يساوي عشرة رجال في القوة ومهارة القتال.

هم اعترفوا أن هذا البلد سيبقى عصيا عليهم طالما هناك الشيخ الكبير بفكره وقوته في القتال وطالما بقي الشيخ «صامد».

كان هذا اليوم شتاء قارسا وفي الأعلى تزداد البرودة، رغم البرودة ما تأخر أبدا البطل «صامد» عن طقوسه اليومية في ارتياد البستان والصعود إلى الجبل إلا إذا كان في مهمة قتالية.

بدا البطل «صامد» من طريقة صعوده الجبل متعبا هذه المرة، يرتاح بين الحين والآخر، يجلس أحيانا أو يسند ظهره على إحدى الصخور تارة أخرى.

حتى وصل إلى القمة في الأعلى، لم يخرج سيفه كعادته أو يعري صدره ويبدأ في الإطاحة برؤوس وهمية بل انتظر قليلا، جلس، طالت جلسته.

مع أول صيحة للغرباء، انقضوا عليه من كل صوب، من كل اتجاه، كل منهم يحمل سيفا ورمحا ودرعا..

انتفض البطل «صامد»، أطلق صيحته:

- دونها أو نموت..

صيحة أيقظت جميع سكان البلد، الذين انتفضوا ناحية الجبلين، ليشاهدوا «صامد» البطل، يطيح بهم الواحد تلو الآخر.

لم يبقَ من تلك المجموعة سوى اثنين أصاب أحدهما، وقبض على الآخر حيا، حمل الجريح على كتفه بعد أن جرده من ملابسه، ربط الآخر من عنقه وجرجره خلفه، ونزل بهما من الجبل.

سار بهما حتى وصل إلى المجلس الكبير، كان أهالي البلد قد سدأوا يومهم، فالتفوا حول الغنيمتين، بعد ربطهما في عمود متقابلين، راح يستجوبهما حول أعداد الغرباء ونيتهم لقتال بلدهم.

كان هناك من يدونون اعترافاتهما.

حذر الشيخ الكبير البطل «صامد» من السير بمفرده، يقول له:

- أخاف عليك من الخيانة يا «صامد».

يبتسم «صامد».

يعرف الشيخ الكبير أهمية وقيمة «صامد» بالنسبة لوجود هذا البلد ولذاكرة الجيل القادم، لذا خصص عشرة أشخاص يحمونه، يسيرون خلفه، يتابعونه من بعيد، حتى لو ذهب إلى مقهى أو جلس في البستان، أو صعد إلى الجبل، كانوا دائما خلفه.

ولما جاء العيد العاشر لإطلاق السفينة وسط الزحام والضجيج انتحى «صامد» جانبا، كره اللحوم، والذبائح المنتشرة في كل مكان، اشتهى وجبته المفضلة «طاجن السمك».

أرسل أحد رجاله إلى المقهى الذي تخصص في تجهيز تلك الوجبة، ليحضر وجبتين واحدة له وأخرى لابنه «وهدان» الذي بلغ العشرين عاما، وامتلأ فتوة وقوة لا تقل عن قوة أبيه.

حين ضج الشاطئ بالاحتفال، واصطفت النساء مرتديات الملابس الزاهية بطول الميناء، يرششن الورد على السفينة بعد أن تطلق زامورها الرهيب، وتسير مواكب الخيول المزينة بالورد، وعليها الفرسان يحملون القناديل والسيوف، ترن الموسيقى والطبول في كل مكان.

كل البلاد الملضومة في خيط البحر تتحول في ذكرى ميلاد السفينة إلى خلية من الفرح.

في منتصف الليل خرج «صامد» البطل ومعه ولده «وهدان»، ناحية المقهى، دخل إلى أحد الأركان المنزوية حتى لا يحرج أحدا، أو يقلل م حة الناس.

كان بشوشـا، أطلق عددا من النكات لابنه ولنادل المقهى على غير عادته وهو الصامت دائما.

تحدث كثيرا مع «وهدان»، يعلمه معنى أن يكون جنديا:

- يا ولدي النصر في القتال هو تحصيل حاصل، هو نتيجة لإيمانك بقضيتـك وبحلمك فـي الوجود، حاول يا ولدي أن تجرد صراعك مع عدوك، فهو ليـس صراعا بين شـخصين، بل هو صراع بيـن فكرتين، وبالتالـي القـوة هنا لا تنسـب إلى شـخص بقدر ما تنسـب إلـى فكرة، أو مبـدأ أو قضيـة، لـو كنـت مؤمنا بفكرتـك وبقضيتك، حتما سـتفوز وتنتصر، لو شـابك الشك ولو لوهلة سـتنهزم؛ لذا إياك أن تقاتل وأنت لسـت مقتنعا ومؤمنا بما تقاتل مـن أجله. أقدس ما يمكن أن تقاتل من أجله هو هذا البلد الكبير، بلدك. وأوصيك يا ولدي بالشيخ الكبير، هذا الرجل هو روح عظيم، فيه سـر كبير، شيء قدري لا يعلمه إلا الله، فسر خلفه، وتبنى أقواله ومبادئه.

قطـع فيضـه رائحة طاجن السـمك تأتيه مـن داخـل المقهى، أطل طلبه الطباخ العجوز الأسود الذي تخصص في طهي وجبته المفضلة، حياه، وصافحه وغادر.

وقف «وهدان»، دخل ليغسل يديه ووجهه، لم تكد المياه تبلل وجهه حتى عاد مسرعا على صرخة أبيه، كان «صامد» البطل ممسكا ببطنه، يتلوى كطائر ذبيح، يطفح دما من فمه ومن أسفله..

انتفض «وهدان» شاهرا سيفه، ليغلق جميع أبواب المقهى، انطلق فريق الحماية إلى الشيخ الكبير، يبلغونه الخبر.

دقائق معدودة حتى التف فريق من الأطباء حول «صامد» الذي تمدد في بيته، وهو يلقي نظره في البعيد، يصرخ بين الحين والآخر، يحاول أن يقف، لكنه لا يستطيع، كان يقاوم الموت.

همس الأطباء إلى الشيخ الكبير:

- إن كمية السم التي وضعت له تقتل عشرة جمال.

اختفى الطاهي الأسود، أقسم عمال المطعم إنهم لا يعرفون عنه شيئًا..

ظل «صامد» يتضاءل يوما بعد يوم، وجميع البلاد العشر، بمشايخها ووجهائها وتجارها يفترشون مدخل البلد الكبير، الحزن أصبح يتطوح وسط الطرقات، السفن الصغيرة تأتي بالأطباء من الهند ومن كل صوب..

معهم أدوية ووصفات، لكن الجميع قال جملة واحدة:

- لولا قوة وصمود وعنفوان هذا الرجل لمات في وقتها.

ذات يوم، اجتمع سكان البلدة حول الميناء يتأملون جثة طافية، حين أخرجوها وتعرفوا عليها، كانت للطفل الذي خطف صغيرا، ابن

صاحب المقهى الكبير، ووجدوا رسالة معلقة في رقبته مكتوبة على جلد ماعز:

- سنصل إليكم واحدا واحدا..

لم يكمل الأسبوع الثاني يومه الأخير حتى صعدت روح الشيخ «صامد» البطل إلى السماء، تاركة سيرته تغنى في الشوارع، واسمه ينتشر بين المواليد الجدد، «وهدان» يقف كالصقر يفتش عن رائحة الخيانة.

اعتكف الشيخ الكبير في بطن السفينة، يسجل ملاحظاته، يشرع في كتابة مؤلفه «الأسس» ذلك الكتاب الذي راح يضع فيه وصيته لبقاء هذا البلد الكبير «صامد»ا قويا، في وجه الغرباء والخونة.

تنصب كل التحذيرات على العدو الذي سيجيء من الداخل، الخيانة، والغدر، بعد شهر حين خرج الشيخ الكبير من خلوته من بطن السفينة، بانت عليه علامات الزمن، والوهن، وانحناء الظهر.

ردد كثيرا بعد موت الشيخ «صامد»:

- ظهري كُسر.

أما الشيخ «رياض»، فقد تعلم من رفقة الشيخ الكبير، أن الكبار لا يجب أن يحزنوا كلهم مرة واحدة، أو يضعفوا أو يمرضوا في وقت واحد، عليهم أن يتبادلوا المسئولية، منذ وهن الشيخ الكبير تولى الشيخ «رياض» مسئولية السفينة ومسئولية البلد.

ربما الذي وفر عليه الجهد أن الشيخ الكبير وافق على وجود «جاسر» بجواره على السفينة.

لم تمضِ سوى أشهر قليلة حتى أثبت «جاسر» قدرة كبيرة كقبطان يعرف كيف يصارع البحر، وكيف يدير شئون الفريق.

«جاسر» نسخة مصغرة من أبيه، قامته الطويلة، وجهه الأحمر، عنقه المنتصب، جسده المنحوت كالصخر.

ذات ليلة شتائية باردة مليئة بالعواصف، بينما السفينة تتراقص فوق ظهر الأمواج العاتية والبحر يزأر كحيوان خرافي محبوس، جاء «رماح» قائد فريق التخابر إلى «جاسر» الذي تولى قيادة السفينة في غيبة الشيخ «رياض».

اختلف «رماح» عن أبيه الشيخ «رياض» في الهيئة والجسم، يشبهه في الطول وانفراد القامة لكنه لم يكن مثله غارقا في النحافة، رماح صنعته نشأة الجزيرة، وتقطيع الأخشاب، هو الأقرب إلى «جاسر»، بينهما تفاهمات كبيرة، ظهر «رماح» عابسا هذه المرة، دخل إلى «جاسر»، طلب منه الحديث على انفراد.

خفق قلب «جاسر»، فهو المهموم دائما، الخائف من ضربات القدر خصوصا بعد اغتيال البطل «صامد».

أقلقتني يا رماح، ما الخبر؟ تحدث وبلا أية مقدمات أرجوك..

أخذ «رماح» نفسا عميقا ونظر إلى وجه «جاسر»:

- جاءتني معلومات أن «راغب» ابن الشيخ داود وأخاك «هادي» يلتقيان سرا ببعض الغرباء في البحر.

انتفض «جاسر»، كأنه يريد الفتك بصديقه «رماح»:

- أخي؟ هادي؟ كيف؟ كيف عرفت؟

صمت «رماح» ثم أخذ نفسا آخر وتحدث:

- اهدأ.. الأمر خطير، لو انتشر الخبر مصيبة. عليك أن تأتي معي الآن.

- إلى أين؟

- سنخرج في مركب صغير ونتوجه إلى حيث يلتقون الآن. هناك مكان غير بعيد تلتقي المراكب عنده، ويدور رقص وأشياء مريبة.

حطت على «جاسر» غيمة من الأسى والوجع، غزاه إحساس بالانهيار، وهو يرى أخاه ابن الشيخ الكبير خائنا، أو يخون.

نزل مع «رماح» إلى بطن السفينة، ركبا قاربا صغيرا مجهزا بالأسلحة، صممه الشيخ الكبير بعناية تجعله لا يغرق أبدا مهما كانت العواصف والريح، خليط من الخوص والخشب ولحاء الأشجار والبوص.

لم يعبأ «جاسر» بالموج، ولا بتعب التجديف ناحية المكان المقصود، إنما كانت ذكريات أخيه تأتيه محملة بكثير من القرف والاشمئزاز، خصوصا تلك العلاقة التي ربطته مع «راغب» ابن الشيخ «داود»، «راغب» الزفر كما كان يحب أهل البلد مناداته.

«هادي» كأنه ليس ابن الشيخ الكبير ولولا ثقته في أمه لكان رأسه ذهب بعيدا، كيف لتلك الرحم أن تكون متقلبة بهذا الشكل.

بعد أقل من ساعة وصلوا، كانت بقع النور تأتي من بعيد، أربعة مراكب متوسطة الحجم واقفة، مربوطة ببعضها البعض.

أصر «جاسر» على أن يقفز في الماء رغم برودته الشديدة، ليذهب إلى المراكب ويتأكد بنفسه من حقيقة ما يقول «رماح».

صرخ «رماح» في وجهه:

– عليك أن تثق فيّ، ما أقوله لك صحيح، أنت تريد أن تموت، لن أتركك تقفز في الماء.. لو اتضح أمرك ستفسد علينا خطتنا في كشف ما يفعلون.

رفض «جاسر»، قفز في الماء، أحس أنه رغم برودته الشديدة لم ينجح في إطفاء ناره المشتعلة داخله، تضرب ذراعاه الماء بقوة فتحيل الموج إلى فتات متناثر، لما اقترب التصق بجسد أحد القوارب، الأصوات عالية، ضحكات نساء، مجون، ألفاظ قبيحة تتناثر على ظهر الماء، تعلق بمؤخرة المركب، وتسلق بعد أن لف نفسه بقماش صارية من الصواري فبدا مثلها تماما، وترك رأسه فقط يطل ليلتقط ما يقال:

– علينا أن نشرب نخب المرحوم.

ضحكات كثيرة.

دعني أسقيك.

- في صحة راغب، الممتع، و«هادي» صاحب الأموال.

قفز صوت «هادي»:

- أعطوني الأموال أولا ثم قولوا صاحب الأموال..

صوت جهوري كبير:

- إليك هذه الحقائب، ملايين، ذهب، كل ما تريد.

صوت «راغب»:

- وأين أموالي؟

الصوت الجهوري:

- أنت صاحب النصيب الكبير، من يقدم لنا رأس «صامد» نفتح له خزائننا.

لم يستطع «جاسر» أن يكمل، فك عنه قماش الصاري، نزل إلى البحر، بكى كثيرا، انعقد قلبه على حزن لا يتحمله غيره، كيف يتصرف، هل يقول لأبيه، هل «رماح» يعلم بما سمع، أم يعرف أنهم يلتقون فقط؟

- يااااه يموت الشيخ صامد البطل بأيدي ابن الشيخ الكبير، وبخيانة راغب ابن الشيخ داود؟

وصل «جاسر» إلى «رماح» متعبا، صامتا، دموعه تتساقط، لم يجب عن أي سؤال طرحه «رماح» بل طلب منه أن يجدف وحده إلى السفينة فهو متعب جدا، حين وصل «جاسر» إلى السفينة، كان «وهدان» ابن الشيخ «صامد» في انتظاره، صرخ «وهدان» في «جاسر»:

- كيف تغادر في مهمة بدوني؟ كيف؟

كان صوت «وهدان» وشهامته وقامته المنتصبة مثل رمح غرس في صدر «جاسر»، بكى «جاسر»، خانته دموعه، سقطت..

لفوه في بطاطين ثقيلة، التفوا حوله وتركوه يجتر سم الخيانة حتى الصباح.

***

8

بعد عودتي من قريتي أحسست أنني قد أعدت وصل العروق المقطوعة في جسدي بطين تراب بلدتي فتم الوصل.

تارة يسري الطين في العروق فأتحول إلى قطعة من ترابها وطينها، وتارة يسري دمي في شقوقها وحقولها فتتحول هي إلى قطعة من لحمي ودمي.

هاتف يأتيني من زوجتي:

- أنا وملك وصلنا القاهرة وفي منزل والدي.

- حمد الله ع السلامة..

هي تلك إجاباتي.. أربكني تصرفها فهي لم تخبرني بموعد وصولها، لم تطلب مني عمل برنامج لزيارتها إلى القاهرة كما تعتاد في جميع سفرياتها، حتى ابنتي «ملك» لم تتصل وتخبرني بموعد نزولهما إلى مصر.

ثم كيف تأتي إلى بيت أبيها وهي التي اعتادت المجيء أولا إلى شقتنا ومنها ننطلق إلى أية جهة أخرى؟

ثمة شيء تغير.

أنـا أعـرف أن ذلـك التغييـر الجذري قـد أصابني في بـؤرة التركيز والتحرك، تغيير غير بوصلة الاتجاهات مائة وثمانين درجة، لكن لماذا هي تتغير إن سلمت بأنها قد تغيرت بالفعل؟

الطريـق إلـى القاهرة من بلدتـي ممطوط يدفع إلـى الملل، مصلوب على قلق إعادة البحث عن ذاتي المشتتة، لكنه الصمت الناتج عن انتظام صوت موتور سيارتي، انفتاح المدى على فم الريح المنفلت إلى الوراء.

تـرددت فـي الإمسـاك بهاتفـي والاتصـال بــ «فاطمـة»، شـيء ما ربطني في وتدها هنـاك في بلدتي ومهما سـرحت ورحت أدور حول مركزيته..

شـيء مـا يشـدني إلى زوجتـي وبجوارهـا ابنتـي «ملـك» وأنا بين الاثنيـن عاجز عن توصيـف أيهما الماضي وأيهمـا الحاضر، «فاطمة» ماضٍ وحاضر، وزوجتي وابنتي حاضر وحاضر.

إلـى مصر الجديـدة انحدرت سـيارتي بتلقائية الاعتيـاد وهي التي خبرت الطريق مرارا، وصلت، وقفت في مواجهة تلك اللافتة المبحلقة فيّ: «السفير عزيز الراوي».

كانت غارقـة في بذخها المذهب، انفتح البـاب على حضن ابنتي، غصت فيه، تاركا تلك الدقات المرتبكة تنظم نفسـها بنفسـها، شممت فيها رائحة الغرب، ورائحة أمي..

ملك رشدي الشيخ هي تلك اللحمة التي خرجت مني فأردتها نقية صافيـة من أي اختـلاط برائحة المتعبين وطيـن الأرض، فطارت معي

مـن عاصمة أوربية إلى أخرى، من مطار إلـى آخر، كالنحلة تتقافز بين الزهور تقطف ما تشاء لتخرج لي يوما عسلها.

انتهى حضنها بضمة زائدة، تشي بأنها تشعر بأنني لست أنا القديم..

حين ابتعدت، حدقت فيَّ تتأملني، وقد تهدلت ملامحها بما يشـي بأنها قلقة عليَّ.

التفت إلى زوجتي فريدة عزيز الراوي، ألصقت قبلتين على جبينها وضمة عجولة، لم أترك لأنفي ولا لصدري التجسس على ما في قلبها، جلست بجوار ابنتي، لماذا الكل يحدق فيَّ؟

سـؤال راودني حيـن خرج عزيز الـراوي والد زوجتـي، وحماتي، وحتى الشغالة التي كانت تدفع أمامها الصينية المحملة بالشاي.

بتلقائية تحسسـت وجهي وملامحي، اشـتبكت لحيتي الطويلة مع أصابعي، تذكرت أنني منذ أسبوعين لم أحلقها.

قطع السفير عزيز الراوي ارتباكي:

- ما حدث لك لن نصمت عليه، أنا اتصلت بكل الأجهزة السيادية ووعدوني خيرا.. الحمد لله، ليسـت عليك ولا ملحوظة أمنية واحدة. تاريخ خدمتك مشرف.

كانـت زوجتي تنظر إلى الأمر من زاوية أخرى، ترى أنني ضعفت، انكسـرت حين تم نقلي من تلك العاصمة التي يحلم الجميع بالخدمة فيها وبهذه الطريقة:

- لِمَ أراك بهذا الضعف والاستسلام؟! أنت رشدي الشيخ صاحب التاريخ، الدبلوماسي العريق.

لأول مرة أحاول أن أستنجد بالكلام فيضن عليَّ، لا أجد ما أقوله، أريد أن أقول إن الأمر على غير ما ترونه..

أقول لهم إن ثمة زوالًا للقشرة الأسمنتية التي عشت ألبسها فوق روحي، فجأة وبلا أية عبقرية مني انكسرت، تشققت، سمحت لكتكوت الروح بأن يطل بمنقاره ليشفط بعضا من نسيم الحياة النقي، غير الغارق في التكلف..

كنت أريد أن أقول إن العمر الافتراضي للأسمنت الذي صُنعت منه بدلتي انتهى، انهار، سقط..

لكن لم أستطع، لفَّني الصمت، رسمت بعناء شديد ابتسامة وتركت بقية وجهي لهم.

طلب مني صهري صاحب العلاقات والسطوة أن أذهب معه غدا إلى إحدى الجهات السيادية، اعتذرت، طلبت أن يؤجله لوقت آخر، وتذرعت بتعبي، وبرغبتي في البقاء بجوار زوجتي وابنتي.

رفضت زوجتي بلطف أن تذهب إلى شقتنا، وفضلت البقاء في بيت أبيها..

لم أجادلها وغادرت، أحسست أن ذلك التصرف الذي قد يبدو بسيطا هو قرار إستراتيجي منها بعدم مشاركتها لي في مرضي بالعودة إلى القديم..

قبّلت ابنتي وغادرت تاركا لهم وجبة من النميمة عن ملامح تغيري المفاجئ، وأسئلة سيطلقونها عن سر اختلالي، أو انهزاميتي أو استسلامي على حد تفسيرهم.

كان كل الذي يتلبسني وأنا أدير ظهري لبيتهم، أن أتصل بـ«فاطمة»، أسمع صوتها، وأكمل قراءة أوراق تلك الحكاية.

***

الورقة السابعة

كعادة الشيخ «رياض» حين يفتعل الضحك أمام الشيخ الكبير، يثرثر كثيرا، يستدعي من جراب الذكريات حكايات قديمة لطالما ضحكوا عليها، يعرفون أن الشيخ «رياض» فاشل كحكاء، يثير الضحك وهو يسرد قصة أو رواية.

لم يكن مزاج الشيخ الكبير جاهزا، قال مبتسما:

- يا شيخ رياض قل ما عندك، لا تتعب نفسك ولا تتعبني.

ضحك الشيخ «رياض»:

- دائما هكذا تعرف ما بداخلي، عموما نريد أن نفرح، أنا طالب القرب أريد أن أخطب ابنك «سيف» لابنتي جميلة.

رفع الشيخ الكبير رأسه وعانق بعينيه الشيخ «رياض».

أكمل الشيخ «رياض» الحديث:

- تعرف أن البلد غارق في الحزن منذ وفاة الشيخ صامد، نريد أن نفرح، ونجعل الناس تفرح، قم لنكسر طوق الحزن هذا.

خرجا معا إلى شوارع البلدة وفي نيتهما استدعاء الشيخ «داود» والبقية ليخبروهم بذلك الخبر السعيد، في الطريق كان «جاسر» برفقة «رماح» يتجهون إليهم، بادره الشيخ الكبير بذلك الخبر كأنه يريد أن يسعده:

- قررنـا خطبة أخيك «سـيف» إلى «جميلة» بنت الشـيخ رياض..
تعالوا لنعلن الخبر على الجميع.

كان فـي نيـة «جاسـر» إخبـار أبيه بما علم وسـمع، يريـد أن يعرف كيف يتصرف أمام تلك المصيبة الكبرى، يريد أن يتخفف من ثقل هذا الحمل الكبير، لكن كيف له أن يفسـد تلك الفرحة التي تطل من عيني أبيه، وهو الغارق في الحزن؟

فليؤجـل كل شـيء حتى يتيـح للناس فرصـة خلع آثار حـزن وفاة الشيخ «صامد».

غـادر «جاسـر» مـع «رمـاح» إلـى بيـت الشـيـخ «ريـاض»، ليخبرا «جميلة» بخبر خطبتها إلى «سيف» ابن الشيخ الكبير.

حيـن وصلا إلى باحة الـدار، هلت روائح البخور، تطير من النوافذ إلى الأنـوف فتحدث بهـا نشـوة جميلة، الضحـكات المكتومـة التي تتسرب من غرفة «جميلة» كانت كفيلة بإدراك أنها عرفت الخبر.

ابتسم «رماح»:

- كيف لأبي أن يعرف حب «جميلة» لسـيف وهي التي كتمته على الجميع حتى «سـيف» نفسـه؟ لم تقل لأحد إطلاقا سـواي أنا، وأنا لم أخبر أبي ولا أمي؟

نظر «جاسر» إليه:

- جميلة كانت ترغب في سيف؟

- نعـم، هي قالت لي يوما ذلك، وأقسـمت لي إنهـا لم تكلمه يو،ا على انفراد.

تعجب «جاسر»:

- سـيف أيضا يحبها، وأخبر أباه بذلك، وأخبرني، لكنه كأبيه، كان خائفـا طول الوقت من أن يتسـبب دون قصد في مضايقتك أو مضايقة أبيك، سيف أخي نبيل.

قال «رماح» له:

- المهم ماذا سنفعل في أمر راغب الزفر وهادي؟

صمت «جاسر».

***

لم يكن «سيف» يتصرف كالابن الثاني للشيخ الكبير، بل كان دائما يؤكـد للجميـع أنـه الابن البكـر لأبيـه، خصوصا أنه تقمص شـخصية الشـيخ الكبير في كل شـيء.. في ابتسـامته، تعليقاته الساخرة، طريقته وهو يركب الحصان، جلسـته وهو قلق حيث يجلس جلسـة السـجود ويميل بظهره إلى الأمام، أو جلسته وهو سعيد فيميل إلى الوراء، تاركا رقبته الطويلة تميل يمينا ويسارا توزع على الناس ابتساماتها.

هو الأقرب لأبيه في الشكل من «جاسر» رغم أن «جاسر» شبيه أبيه أيضا، لكن «جاسر» أخذ كثيرا من لون بشرة أمه.

وقف «سيف» مع صديقه الأقرب «وهدان» على قمة الجبل الذي حمل اسم الشيخ «صامد»، هكذا أصبح اسم الجبل، «جبل صامد» بساتين البطل، قصد به أيضا «صامد».

صرخ «سيف» بكل صوته:

- أحبها من كل ذرة في كياني.. تمنيت يوما أن أقولها أمام الجميع، لكن لم أستطع.

ابتسم «وهدان»:

- خلاص.. قلها فقط حين تكون في بيتك أيها العاشق.

في المساء امتلأت البلدة بضجيج الفرح وأزاحت بخجل عن وجهها طرحة السواد والحداد، وقف الشيخ الكبير بجوار الشيخ «رياض» وبينهما «وهدان»، وكأنهما يؤكدان للجميع، أن «صامد» معنا، يفرح معنا، روحه تفرد قوتها على بلدتنا، تحميها، وتحرسها، «وهدان» هو «صامد»، ابنه وخليفته..

لم يرَ أحد من أهالي البلدة «جميلة» مشرقة كتلك الليلة، وجهها يشع بياضا أكثر من طرحتها، يبعثر على الناس نورا أكثر من الشموع التي حملتها الصبايا، تلملم ابتسامتها التي تريد أن تنفلت قهقهة، تتبختر في سيرها كأن الدنيا ركعت أسفل قدميها.

أما «سيف» تراقص فوق حصانه الأبيض، تمايل يمينا ويسارا، ظهر كمن أسكره الحب، عاشق يهيم وجدا، يقلب وجهه في برية الله بحثا

عن معشوقته، تمنى أن ينتهي الوقت، يدخل إلى بيته، لينفرد لأول مرة بحبه، عشقه ومراده، هو الذي خرج من نسل رجل دائما يقول:

- لا وقت لدى أصحاب القضايا الكبرى.. لا وقت لدى عشاق الأوطان لا للفرح ولا للحزن، كل الوقت وكل العمر لبلادنا.

الشيخ الكبير عاشق أيضا، لكنه عاشق من نوع خاص، صوفي مخطوف إلى تراب الوطن، ومعجون بالعرفان.

شيخ مرهون بالأرض وبالطين وبأحلام من وثقوا به.

***

بعد أن انتهى الفرح والضجيج، لم يستطع «جاسر» أن ينام ليلته، بل راح يؤدي ما كان أخوه «سيف» يؤديه، يلف على كل المفارز الأمنية، يتفقد وجود القوات، يمر على المدخل الصحراوي.

«وهدان» كعادة أبيه، يقف كالمارد بين الجبلين في منطقة بساتين البطل، يطلق بين الحين والآخر صرخة أبيه:

- دونها أو نموت.

صرخة تخرج للأعلى فيرددها الجبلان، كل بطريقته ورجع صداه.

على المدخل البحري استراحت السفينة بهيبتها وجلالها في الميناء الجديد، ميناء صممه الشيخ الكبير بذراعين مفرودتين داخل الماء، كأنه أراد أن يحدد علاقة اليابسة بالماء، كل يحتضن الآخر، البحر الحنون الذي لملم ماءه وذراع اليابسة التي تمددت في البحر لتحضن السفينة حين تروح وحين تغدو وحين تستريح.

كل شـيء في هـذه البلدة ينتمـي إليهـا. ترابها، حجارتهـا، ماؤها، ،اسها، كل تحول إلى عاشق لها.

بعـد أن أنهى «جاسـر» دوريتـه تمدد فـوق رصيف الميـنـاء وتمدد «رماح» بجواره، راحا ينتظران الشـمس حين تطل من شـرفتها فتضيء الكـون، ينتظران تلك اللحظة التي تتناسـب مع ظروف ومزاج الشـيخ الكبير، ليخلو به «جاسر» ويخبره بما سمع.

«جاسـر» يعـرف أن لوالـده طقوسـا لا تتغير في أحلك الأوقات، يستيقظ مع الفجـر، يغادر إلى السـفينة، يطوف حولهـا يتأمل كل ذرة فيها، يتحسس جسدها، يهدهدها كأنها تشعر به.

كثير من البحارة نسجوا قصصا من الخيال، أن السفينة ترقص حين يجيء الشيخ الكبير، وهناك من أقسم إنها تصيح بصوت عالٍ، الصوت مأني حين يحتك جسدها بالمرسى والحبال.

وبعـد أن يطمئـن عليها، يدلـف إلى بطنها، يفتح دفاتره ليسـجل ما يريد، يـدون في كتابـه الكبير ما يريـد، هي أربع سـاعات لا تزيد على خمس، ثـم يخرج منطلقا بمهرته الشـهباء، يجوب البلد شـبرا شـبرا، يطمئن على كل إنسان.

هذه الأيام مهموم بإنشـاء مسـتوصف كبير، أحضر بنفسه أطباء من الهند ليعلموا عددا من الطلاب فنون الطب ومهاراته.

علـى جانب غير بعيد تحزم مصانع الأسـلحة بكل أنـواع البلد من ناحية الجبل، أما الميناء وأمور المال فكلها في يد الشيخ «داود» الذي

بأفكاره تحول البلد إلى مركز اقتصادي وتجاري بامتياز وأصبحت السفينة رسول الخير والأمان.

في العاشرة تماما وقف «جاسر» ملتحفا قلقه في مدخل السفينة، ذلك الممر الذي يدخل منه الشيخ إلى بطنها.

دقائق وأطل الشيخ الكبير بهيبته وجلاله، لاحظ «جاسر» أن الشيخوخة فردت خربشاتها على جسد الشيخ ولون بشرته.

قبَّل يد أبيه، طلب منه وقتا لأمر هام، عاد الشيخ مع «جاسر» إلى الداخل مرة أخرى..

كثيرا ما حكى أهل البلدة أن مواجهة الشيخ الكبير أمر بالغ الصعوبة.

تلعثم «جاسر» وهو يقول:

- ترددت كثيرا في إخبارك، لكن لفداحة الأمر يجب أن أخبرك به وعذرا والدي فيما سيحدث لك من ضيق..

حكى له كل شي سمعه، وأقسم له على كل كلمة قالها.

صمت الشيخ الكبير، حدق في ولده، وحامت دمعة في عينه رفضت السقوط.

طلب من «جاسر» أن يغادر وطلب من الجميع أن يتركوه وحيدا.

غادر «جاسر»، تاركا الشيخ الكبير منكمشا على ذاته، غارقا في دموعه، يشم لأول مرة رائحة الخيانة والغدر في تلك الزرعة الطاهرة التي غرسها بين البحر واليابسة.

ظل الشيخ الكبير في بطن السفينة يحس بما أحس به يونس وهو في بطن الحوت، مع انسدال ستائر الليل خرج متنفضا إلى بيت الشيخ «داود»، اختلى به ساعة من الزمان ثم خرجا معا إلى مركب متوسط الحجم، انطلقا صامتين وفي ركن المركب تم تقييد كل من «راغب» و«هادي».

رائحة البحر حين تختلط برائحة الخيانة تصبح خانقة، وحين تكون الخيانة خارجة من صلبك تكون موجعة.

لم يكن الشيخ «داود» يتحدث وبدا كأنه لا يتنفس أيضا، كان منزويا، صامتا، ناظرا إلى شيء ما في البعيد لا يستبين.

أما الشيخ الكبير فكانت، رغم كل هذا الجلال، دموعه تنز لا هي تسقط ولا هي تجف، خليط من التعاسة والفجيعة.

ثرثر «راغب» كثيرا:

- لم أرتكب خطأ لماذا تقيداني هكذا؟ أنا لن أصمت، رجالي لو عرفوا بغيابي لن يقفوا مكتوفي الأيدي، سيتحول هذا البلد اللعين إلى مجزرة..

انتفض الشيخ الكبير كذئب جائع، لينهال عليه ضربا وصفعا واضعا حذاءه في داخل فمه، ثم ربطه بقماشة عريضة تثبت الحذاء في الفم، ثم استدار إلى «هادي» وأدخل فردة الحذاء الثانية في فمه وثبتها بقطعة قماش أخرى.

عـاد إلى جلسـته، نظر إلى الشـيخ «داود» وكأنـه أراد أن يعتذر منه لأنه ضرب ابنه في حضرته..

فقط مد يده بتثاقل وهدهده.

المركـب يمخر البحر إلـى الجزيرة المعزولة، تلـك الجزيرة التي أودع به أبناء البلدة، ليكونوا رجالا، وحدهما «راغب» و«هادي» رفضا الذهاب، بكيا كالنساء في الميناء..

الآن يريـد الشـيخ الكبيـر أن يعـوض مـا فـات، أن ينقـذ مـا يمكن إنقاذه.

حين وصلوا إلى الشـاطئ، أراح الشـيخ قاربه على اليابسـة، وسند الشـيخ «داود» وأنزل بنفسـه الجثتيـن العفنتين، سـاقهما أمامه مكبلين بالأصفاد. حتى وصل إلى البيت الذي عاش به الأبناء.

فـك «راغـب» من يديه ثم لف ذراعيه على شـجرة وربطه بإحكام، وربط قدميه بحبل شديد الخشونة، وهكذا فعل مع «هادي».

دلف إلى البيت، أخرج شريطا من الجلد مجدولا ببعض الأسلاك التي بدت كشعر عجرية فاجرة. وبلا أي مقدمات راح يجلدهما بعنف غريب.

ظـل يضرب حتى تآكلت الملابس وسـقطت بقطع من اللحم على الأرض، وتحول الدم إلى قطع معجونة باللحم.

جلس على جذع شـجرة أراد أن يريح سـوطه من عفن جسـديهما وسلط عليهما لسانه:

- هـذا المـكان لتعلم الرجولة، وعدم الخيانـة، والصبر، هنا إما أن نكـون رجلا وإما أن تمـوت، ولا ندفنك، نتـركك للوحوش تأكلك.. جئت بأبنائنا، إلى هنا، ليتعلموا التحمل والصمود والمواجهة، ليتعلموا إما الرجولة والشـجاعة وإما الموت، ليس هنـاك خيار آخر. جئت هنا مـع الشـيخ «داود» لندفنكما، ونعـود. نأخذ العزاء فيكمـا في صمت، فلم تكونا يوما رجلين تعتصر من أجلكما القلوب. الآن سـأترك لكما نصف سـاعة.. كل شـخص يقر بكل شيء، كيف تم ترتيب قتل الشيخ صامد، ومـن الذي رتب؟ وما طبيعة علاقتكمـا بالغرباء؟ وأين ذهبت أمـوال الخيانة التـي قبضها راغب؟ نصف سـاعة تفصلكما بين الحياة والموت.

صرخ «هادي»:

- أنـا بـريء مـن مقتل الشـيخ صامـد، راغب هـو الـذي رتب مع الغربـاء، أنا فقط تربطني علاقة بزنس معهم، أعطيهم بعضا من المؤن، والوقود، والسلاح، مقابل أضعاف ما نبيعها، لذلك كونت ثروة طائلة، خذها يا أبي ولا تقتلني.

انفلت الشـيخ الكبير ناحية «هـادي»، وراح بكل عنف وقوة يجلده مرة أخرى، يقتله وهو يردد بصوت مرتفع سمعته الوحوش في البراري والأسماك في البحار:

- أتقدم لي رشـوة من أموالك النجسة؟! تريدني أن أكون شريكك فـي العار؟! تقـدم للغربـاء سـلاحا ليقتلوا بـه إخوتك وأبـاك وأهلك وناسك؟! تتاجر في دماء ناسك.

صرخ «راغب»:

- أبي أرجوك لا تجعله يقتلني، هو يريد أن يقتلني لتخلو له ولأبنائه رئاسة البلد، هي حجة يا أبي، يريد أن يزيحني كما أزاحك، هو الشيخ الكبير وأنت لا شيء، لن أسكت يا أبي إن خُدعت منه، هو الذي يلتقي بالغرباء، من أجل قتلكم جميعا، هو الذي قتل الشيخ «صامد» لأن الناس أحبته أكثر، تغنوا باسمه أكثر..

انفلت الشيخ «داود» ناحية ابنه «راغب»، ساحبا السوط من يد الشيخ الكبير، وراح يضرب «راغب» بكل قوته ضربا مميتا:

- أيها المعلون، من أين جاءت بذرتك النجسة؟ أمك طاهرة، وأبوك صالح وطيب، من أين جاءت تلك الطينة النجسة، عرفت شذوذك وصمت، بلعت عاري وصمت، قلت ربما يكبر، فتعلمه الأيام، ربما يتغير، ربما تظهر طينته الطيبة وتزيح النجسة، عرضت عليك المال، أخذت، بلعت، شبعت، قلت لك اختر وتزوج، صمت. لكن تخون. وتريد الآن الوقيعة بيني وبين الشيخ الكبير؟! أيها الشيطان..

توقف الشيخ «داود»، رمى السوط الذي بيده، جرى ناحية المركب، سحب سيفا وعاد مسرعا، لكن الشيخ الكبير قابله، أخذ منه السيف، وطلب منه الراحة، عاد، وقف بين الشجرتين ماسكا بالسيف في يد وباليد الأخرى السوط، وقال محذرًا:

- أريد أن أعرف الحقيقة وإلا سيغوص هذا السيف الملطخ بدماء الغرباء في صدريكما، ونغادر، نترككما للوحوش تنهش ما بقي فيكما.

صرخ «هادي» مرة أخرى:

- السماح يا أبي، أرجعني لأكون بين يديك مثل أخوي سيف وجاسر. سامحني لأتعلم منك، لأعود ابنك من صلبك، سامحني لأكفر عن نذالتي..

ومع زخات الضرب، اعترف «راغب» بكل شيء، بالشبكة المشبوهة التي كونها مع الغرباء، بأسماء عصابته كاملة، بالمقاهي المنتشرة على الشاطئ التي نصفها يديره الغرباء بأموالهم ورجالهم، بالزراع المنتشرين في البساتين وهم عملاء للغرباء.

أمام اعترافات «راغب» كان الشيخ الكبير ينهار، يتهاوى، حتى جلس، أسند ظهره إلى جذع شجرة، علها تساقط عليه بعضا من رحمتها، يرى مشروعه الكبير ينخر فيه سوس الخيانة والعمالة، مشاريع البزنس، كلها اختراق.

لم يكن الشيخ الكبير يتصور يوما، أن هناك حربا أخرى أقذر من تلك التي يديرها الغرباء في العلن، معركة الخيانة وشراء الذمم.

أحس أنه ساذج ومضحوك عليه.

بكى الشيخ «داود» بل قبض على كثير من التراب ووضعه على رأسه، ومرغ لحيته في الأرض:

- استغلني ابني ليحولني إلى جاسوس، إلى عميل، مرغ هيبتنا في الوحل، يحضر لي التجار والمشاريع وأنا أوقع، أفرح بنجابته، ما كنت أدري أنها الخيانة وليست النجابة..

قـاوم ضعفه، واتجه ناحية الشيخ الكبير مستغلًا انهداده.. جذب السيف من يده وغرسه في بطن ابنه، قام الشيخ الكبير مسرعا.. أخذ منه السيف، لم يكن قد أحدث جرحا قاتلا، محض شق سطحي في البطن من ناحية الفخذ الأيمن.. الدماء كثيرة..

- لـو قتلناهمـا الآن سيستريحان، ونحن سنخسر.. مـا زلنا نريد معرفة الكثير عن مستنقع الخيانة والعمالة..

فك الشـيخ قيودهما، سحبهما كجثتين، أدخلهما إلى حجرة ضيقة فـي البيت الخشبي القديم، ربطهما في جذع شـجيرة ملقـى في باحة البيت، أخرج خيطا رفيعا، وربط اللسـان من المنتصف، حتى إذا فكرا في الصراخ لم يتمكنا..

علق قربة ماء في محازاة فميهما، بحيث يمكن لهما أن يلحسا الماء ليبقيا حيين.

غـادرا بعـد أن أغلقـا البيـت بإحـكام شـديد، يستحيل معرفة أين الأبواب أصلا.

غادرا، كل يسـتند على الآخر، ويتوكأ عليه، كل يتسربل في خيبته، وفجيعته، يجرجر عاره، ركبا القارب وعادا.

كلمـا اقترب الشـيخ الكبير من مشـارف البلد تماهـى إليه ضجيج مقلق، أيقظ الشيخ «داود» الغارق في تعاسته:

- هناك شيء مخيف يحدث في البلد.

لم يستطع الشيخ «داود» أن يرد، اكتفى بنظرة رماها في البعيد تجاه الميناء الذي ظهر كذراعين مفرودتين على مساحة حضن من الماء.

توالت ضربات المجاديف في الماء، انطلق القارب شاقا البحر إلى مصفين صوب البلد.

حينما دخلا إلى لسان الميناء هاله منظر المحتشدين من أهل المكان..

كانوا مذعورين يحتمون بجسد السفينة، ومبنى الميناء..

ترك الشيخ الكبير مركبه دون أن يربطه، أو حتى يساعد الشيخ «داود» في النزول، انطلق صوب المذعورين، يستفسر عما حدث، يهدئ من روعهم.

كانت الصيحات واحدة:

- الغرباء.

- الغرباء هجموا على البلدة من ناحية الصحراء.

- الرجال هناك.

- لكن أعداد الغرباء كثيرة.

دلف إلى باطن السفينة، أزاح عنه الملابس الملطخة برجس الأبناء، ارتدى ملابس القتال بصدريتها وخوذتها. انطلق مسرعًا، وقف فجأة عند باب الخروج كالذي تذكر شيئًا، عاد إلى حجرته، تناول أحد دفاتره، دلق فيه على عجل بعضًا من وجعه.. ثم غادر.

خرج الشيخ الكبير من السفينة بكامل عدته الحربية.. أسرع بحصانه يشق البلد نصفين، متجها صوب المدخل الصحراوي.

حين لاحت له أرض المعركة أطلق صرخته المعهودة:

- دونها أو نموت.

تجلت له روح الشيخ «صامد»، بهيبته..

تصدر «سيف» المقدمة، تولى «جاسر» صفوف الميمنة، انطلق «وهدان» كمارد يتحرك ليسد ثغرات ما بين الاثنين، مثل أبيه في كل شيء، في أرض المعركة يصبح هو والموت سيان.

مر الشيخ من الميمنة إلى الميسرة إلى المنتصف يصرخ في رجاله، ارتفعت المعنويات، علت الصرخات المزلزلة:

- دونها أو نموت..

ارتفع وطيس المعركة، علت سحابة الغبار إلى عنان السماء..

لم تبقَ سوى رؤوس الجبلين، صليل السيوف، صرخات الموت المكتومة.

لم تهدأ المعركة إلا بعد تراجع الغرباء، تاركين أسراهم وبعض الغنائم.

استدار الشيخ الكبير إلى رجاله صارخا في الجميع:

لا تتبعوهم، لتكن حدود البساتين هي النهاية. ابقوا في أماكنكم، امنعوا التفافهم من خلف الجبلين.

وحده «وهدان» ورجاله لم يتوقفوا عن الكر والفر، أسود تتحرك على الأرض، ترك الشيخ الكبير موقعه، تقدم ناحية «سيف» ورجاله في الميمنة، كان «سيف» يشق الأرض بحصانه في مقدمة الرجال، لكن لاح للشيخ الكبير من بُعد واحد من الغرباء كان متربصا بـ «سيف»، في يده حربة سوداء، انطلق الشيخ ناحية ابنه:

- احذر يا سيف، احذر يا سيف..

في تلك اللحظة قذف المتربص حربته في اتجاه صدر «سيف» لكن الشيخ الكبير كان أسرع، وصل قبل الحربة ليستقبلها هو في ظهره، فتنغرس بغدر لتطل بسنها من مقدمة الصدر.

أطلق «سيف» صرخته:

تحول الرجال إلى كومة من النحل الهائج تلف في دوائر غير مكتملة، قُتل الشيخ الكبير.

قُتل الشيخ الكبير.

ضمه «سيف» على صدره، وبجواره «جاسر» و«رماح» و«وهدان» والجميع.

همس الشيخ الكبير في أذن «سيف»:

- احذر من هادي وراغب.. هما الخيانة، حبستهما في البيت الخشبي بالجزيرة.

كان الصمت يلف الجميع بينما يصارع الشيخ الكبير روحه التي تصفى ليقول:

- سيف من بعدي.. سيف من بعدي.

أطلقها بما استطاع، بما سمح له ملك الموت المتربص، سمعها الجميع، رددها خلفه «وهدان»، و«جاسر»، و«رماح» والجميع.

- سيف من بعده.

- سيف من بعده.

وانتهت المعركة بالنصر وبموت الشيخ الكبير.

حين وصل الخبر إلى الشيخ «داود» المنتظر مع الشيخ «رياض» عند السفينة، سقط على الأرض مغشيا عليه.

في المساء أكد الأطباء إصابته بشلل نصفي فقد على أثره النطق وتيبست ساقاه وذراعه اليمنى.

***

هي نظرة واحدة خرجت من عيني «سيف» أفرغت كل ما كان يحتفظ به «جاسر» من سر تفوح منه رائحة نتنة على وقع اسمي «هادي» و«راغب».

حكى «جاسر» لأخيه عن كل ما سمعه من خيانة، عن أن أباه والشيخ «داود» اقتادا «هادي» و«راغب» إلى الجزيرة لسجنهما وعقابهما لم يكن يعرف تفاصيل ما دار هناك من محاولة الشيخ «داود» قتل ابنه «راغب»، وسجنهما في البيت الخشبي، يعرف فقط انهما موجودان هناك.

رأى «جاسر» غيوما من الهموم تمطر على وجه أخيه «سيف»، سلله بأسى وخيبات تنضح بالمرارة، انتفض «سيف» واقفا يحملق في السماء عن تأويل لذلك الكابوس، عن كوكب آخر غير الأرض يقبل أن يحتوي عاره.

- سأذهب بنفسي إلى الجزيرة المعزولة. سأكمل ما أراده الشيخ الكبير، وأحقق في الأمر.. سيكونان نموذجا وعبرة للجميع، سيأكل الطير من رأسيهما، سأعلق جسديهما حتى يشم الجميع عفنهما.

امتطى حصانه وانطلق صوب قصر الحكم، وكلما اقترب منه نجلت من النوافذ الغربان تنعق مرها..

يجلس إلى الكرسي المتصدر بهو القصر، يدور حوله، يتحسس روح الشيخ الكبير، رائحته، صوته الذي يشرخ المدى، يحملق في الرخام الأحمر الممرد على الأطراف، يراه يقطر دما.

كيف لكل هذه الثقوب التي ورثتها في الحكم أن تلتئم؟

أب ملهم يموت..

وأخ خائن يبقى بعاره.

بلد كبير بين كماشة الغرباء يتربصون به من كل مداخله البحرية والصحراوية. وخيانة الإخوة في الداخل، كيف للكاهل المتعب أن يتحمل تلك التبعة؟

ارتعد جسده حين أراد أن يجلس على كرسي الحكم مكان الشيخ الكبير، قشعريرة تفكك أوصاله، يترك كرسي العرش، ويجلس على

الأرض بجـواره يسـتند إليه فقط، ما زال يشـعر أنه يسـتند على جسـ الشيخ الكبير، ما زال يحس بيد الشيخ وأصابعه الطويلة تهدهده..

من للمتعبين إذن؟

أغمـض عينيه مهـدودا من التعـب، كوابيـس، أصـوات متداخلة، هتافات لجموع الناس، فرك عينيه ليتحقق من كوابيسه..

جلبة وضجيج يرمي بصداه من بعيد، من ناحية الميناء..

صرخ على الحراس، أتوه وكأنهم قادمين من حرب، ظهروا بكامل هيئتهم:

- جمـوع النـاس معظمهـم مـن أصدقـاء «هـادي» و«راغـب»، يسـتقبلونهما علـى المينـاء وهم يهتفـون باسـميهما، يحملونهما على الأعناق جريحين يقولون إنهما كانا في حرب مع الغرباء.

كرر «سـيف» سـؤاله للحراس، يستفسـر مرات ومـرات عن أصل القصة..

لـم تمضِ سـوى دقائـق إلا ودخل «جاسـر» في كامـل هيئته، ومن خلفه الشـيخ «ريـاض» و«رماح» و«وهـدان» والجميـع، الكل يحمل أطنانا مـن الاندهاش، وكأنهم يتابعون مسـرحية هزلية، نكتة مصنوعة من الزيف المر..

- منـذ متى وهادي وراغب الزفر يحملان سـلاحا؟ منذ متى وهما يحاربـان الغرباء وهما اللذان لم يسـيرا يومـا بالقرب من أرض أي من المعارك؟

لم يُرد «سيف» ولا «جاسر» ولا «رماح» أن يبوحوا عن تلك الخيانة في حضرة «وهدان»، الكل يخاف من الفتنة وهم يعلمون إصراره على الثأر من قتلة أبيه الشيخ «صامد».

لم يُرد «جاسر» أن يستمر التخمين والتوقع، انفلت ومن خلفه الكل ناحية الميناء المزدحم..

من الذي جمع هؤلاء الناس فجرا؟ من رتب ذلك الاحتفال المزيف؟ ومن الذي فك قيود النذلين؟

منذا الذي كشف غموض الجزيرة المعزولة التي لا يعرف طريقها سوى قلة ليست خائنة؟

تساؤلات تطن في رأس «سيف» و«جاسر».

خرجت تلك الحشود حاملة على أعناقها «هادي» و«راغب» من الميناء باتجاه مجلس البلدة، وسط هتافات تحيي بطولتهما، ظهر «راغب» مربوط البطن، خائر القوى، أما «هادي» فظهر جسده السمين مسربلا في الدم يتأوه على وقع خطاه وحين يلمسه المحتفون بزيفه.

من أين لهم بحكيم يفك شفرة الزيف تلك؟

استداروا عائدين إلى قصر الشيخ الكبير، تاركين مواويل المداحين، ورقصات الغجر، وفرق الزفة، والطبالين يصنعون كذبتهم الكبرى.

***

لـم تفلـح «جميلة» بكل لطفهـا في ترطيب الأجـواء المتوترة، ظل «سـيف» واقفـا متوتـرا، يخـرج إلـى شـرفة قصـره يعبئ صـدره هواء ويعود..

اسـتلقى «رماح» على إحدى الأرائك المنزوية في ركن المجلس، تكور «جاسـر» في ركن آخر، أما الشـيخ «ريـاض» فوقف في مواجهه «سـيف»، رافضـا أن يتعجـل فـي القبـض على أخيـه «هـادي» وعلى «راغب» الزفـر، محذرا من تلك الخطوة التي قد تفهم في إطار الطمع وإزاحة الخصوم.

- راغب الآن هو خليفة أبيه في إدارة شـئون التجارة والصناعة بعد عجز الشـيخ داود وهادي هو الأخ الأكبر ويمكن له أن يطالب بأحقيته في حكم البلد بعد الشيخ الكبير.

صاح «سيف» وزمجر:

- ليـس في رأسـي أي اعتبارات إلا لشـيء واحد هو مـا قاله أبي، ليس لديَّ مـا يخيفنـي، حكمـت البلـد ببيعة علنيـة من أبي، سـمعها الجميع، ورددها الكل خلفه.

التفـت «رماح» يفتش بعينيه عـن «وهدان»، أرعبه أن يكون حاضرا فيصلـه فحيح السـر العفـن في تورط «هـادي» و«راغب» فـي قتل أبيه الشيخ «صامد»، التفت إلى «سيف»:

- أرجـوك يا سـيف إلا هذه، سـيتحول بلدنا إلى بـرك من الدماء، لا تسـتهن براغب فمعه الغرباء والتجار، سـينتهي بنا الأمر إلى أن يقتل بعضنا بعضا.

وقف «جاسر» تاركا أريكته:

- إنها الفتنة إذن. كل ما تقولون صحيح لكن لا يمكن أن نترك راغب وهادي.. هما الآن أمام الناس بطلان، كانا يقاتلان الغرباء، الكل يتغنى ببطولاتهما، هما الآن سيبدآن في تحضير نفسيهما وعمل صفقات كثيرة. أي تأخير ليس في صالحنا.

حط على المكان صمت رهيب، ولفته وحشة مفرطة، دخلت «جميلة» بلطفها الكبير ومن خلفها كبير السفرجية:

- الطعام جاهز، أكملوا حديثكم على المائدة.

صمت الجميع، استقر رأس «سيف» على تنفيذ أمر اعتقال «هادي» و«راغب» بعد الانتهاء من مراسم دفن القتلى، والاطمئنان على مصابي المعركة، وترتيب وضع السفينة ليتولى أمر الشيخ «رياض» وبجواره «جاسر»، ويكثف «رماح» عمل فريق الاستخبارات لرصد أي تحركات جديدة للغرباء، ومعرفة سر تلك الحيلة التي أعادت «راغب» و «هادي» إلى البلد كمنتصرين وليسا كخائنين، أما «وهدان» فأمر «سيف» على أن يبقى بجواره ومعه بقية المقاتلين بكامل فرقهم وعدتهم وعتادهم.

***

9

هي تلك العادة الجديدة التي تلبستني منذ أن بدأت في تعاطي الماضي عبر تلك الحكاية، حين أنتهي من نسخ ما توفره لي أيادي الدكتور «الهادي» والدكتور «البيومي»، أدخل في نوبة نوم تصل إلى حد الإغماء أو السكر، شيء يشبعني حد الوجع، فما من مرة استيقظت بعد تلك الوجبات الغارقة في دسم الماضي إلا وكان جسدي مهدودا.

هي تلك الحكاية التي لا تنتهي بنومي بل تمتد في النوم عبر أحلام وأحيانا كوابيس مرعبة، تخلط بين ما حدث في الماضي وبين ما يحدث الآن، خوف يعتريني تجاه بلدتي الصغيرة والكبيرة معا.

في هذا الصباح نسيت أن أغلق هاتفي أو أكممه قبل نومي، لذا ظل يصرخ حتى أيقظني، يأتيني صوت الدكتور عبد النبي الهادي في كامل انزعاجه وتوتره:

- قبضوا على الدكتور فراج البيومي .. أرجوك لازم تعمل شيء، تصرف.

ظللت فترة غير قادر على التفريق بين صوته وتلك الأصوات التي تأتي من الماضي «جاسر» و «سيف»، كلها أصوات تسكن الروح وتُنشئ القلق..

فتحت ذاكرة حاضري، أخرجت منها بعضا ممن ربطتني بهم علاقة في الأمن في إطار العمل، ظللت من رقم إلى رقم، من نبرة صوت إلى آخر حتى توصلت إلى المكان الذي به الدكتور «البيومي» ..

انطلقت بسيارتي إليه غير عابئ بمحاذير وظيفتي، لم يأتِ في ذهني السبب الذي على أساسه تم القبض عليه.

حين وصلت، قال لي الضابط العابس:

- نصيحتي لك، خليك بعيد، القضية كبيرة، تحريض، دعوة للتظاهر بدون إذن وانتماء إلى جماعات محظورة.

لا أتذكر ماذا قال لساني، لكن كانت ملامح ذلك الضابط تشي بأنه يريد أن يقبض عليَّ، ويضعني مع الدكتور «البيومي» .

غادرت وأنا كلي إحباط، هاتفت الدكتور «الهادي»، أخبرته بالوضع، أرسل لي صرخة مدوية، وكأنه يريد أن تصل إلى جميع أرجاء مصر:

- الدكتور البيومي يكره كل الجماعات المحظورة، البيومي لا يرى أن التظاهر مفيد.. البيومي حر يكره الخوف، آخر ما يمكن أن يفعله هو محض لسان وفقط.

كان عليَّ أن أغادر إلى الإسكندرية، فحالة الدكتور عبد النبي الهادي تستوجب أن أكون بجواره أكثر من «البيومي» فمن معرفتي القصيرة وقربي من الدكتور «البيومي» أعرف أنه من أصحاب العزم ورجل عنيد وقوي.

هو محض أسفلت أسود وصوت موتور رتيب، هواء يعربد في الخارج، ومِقود بين يدي، رأس يعود إلى أرجحته ككرة البنج بونج.

حين وصلت إلى الدكتور «الهادي» رأيته قد كبر مائة سنة، همس في أذني:

- الحلول الأمنية دائما تؤدي إلى كوارث.

جلست بجواره وتركته يقص حكاية الدكتور «البيومي»:

- ذهب البيومي إلى القاهرة، ينهي بعض أعماله ومحاضراته، ويعود لنا ببعض ما يساعدنا في عملنا خصوصا أننا توصلنا إلى معلومات تكشف لنا بعضا من حقيقة المخطوطات، وهو خارج من الجامعة، كان بعض الطلاب يتجمعون على باب الجامعة، وهم يرددون بعض الشعارات وقد بدأ الأمن يضربهم، تدخل هو بشهامته، لم يستطع أن يرى أبناءه الطلاب وهم يُسحلون أو يضربون، فأخذوه باعتباره المحرض، ثم رتبوا له صحيفة الاتهام التي تؤدي إلى الإعدام الآن.

لا أدري ما حكاية الصمت معي؟

خاصمتني الجمل والحروف كأن شيئا أكبر من الكلام يجب أن يتم..

الذي أوجعني أن نظرات الدكتور «الهادي»، تحشرني في زمرة الحكومة والنظام.

طلبت منه أن أعود إلى حكايتي القديمة، أطلع على بعض ما فكوا شفرته، أومأ بحزن، وأشار إلى مكتبه:

- هناك أوراق على مكتبي بين دفتي كتاب غلافه أسود.

دخلت منفردا وهو ظل غارقا في قلقه، حين واجهت تلك الأوراق لم أستطع مرة أخرى أن أندمج كثيرا في الماضي، كان طنين الحاضر يلسعني بين الحين والآخر.

***

بدهاء فتح «راغب» قصر أبيه الكبير يستقبل المهنئين بسلامة العودة والخروج من أسر الغرباء كما روّج وادعى، أطلق رجاله يلفون على البيوت والتجمعات يدعون عامة الناس إلى الموائد المفروشة في حدائق القصر.

حطت القوافل المحملة بحكام البلاد العشرة المجاورة رحالها في الميناء.

تزاحمت العربات التي تجرها الخيول في الطرقات، ردد من عليها أغاني تبجل بطولات «راغب» و«هادي»، بالغ الرواة في سرد حكايات كلها من وهم خيالهم المريض، هنا حكاية عن معركة جرح فيها «راغب» وأخرى عن الطريقة التي أسر بها «هادي»، هنا كذب وهناك نفاق.

لم يهمل «راغب» يوما اللعب على عقول الناس فهو الذي تولى أمر تشغيل فرق الرواة والشعراء والمداحين وحتى الراقصات في مقاهي الشاطئ وطيلة الوقت، يتدخل في كل كلمة تغنى على المقاهي وفي كل قصة يغنيها الرواة في تجمعات الناس، طيلة الوقت يضخ في عقول الناس كذبه.

كثير من الأوقات يروج الشائعات حين يريد، وزيف بطولات الشيخ الكبير لصالح أبيه، بل حكى أحد الرواة يوما قصة عن نشأة البلد الكبير تقول إن الشيخ «داود» أول من عرف ذلك البلد، ثم هو الذي

أقنع الشيخ الكبير بالمجيء. هو الآن ينشر أفاقيه وفريق زفّته ليحكي للناس قصصا تنسف حقيقة خيانته..

الكل اكتشف غياب الشيخ «داود» وكرروا السؤال عنه وعن صحته..

أجاب «راغب» بكل مكر ودهاء:

- الوالد يخضع للعلاج، فحالته صعبة جدا.

ما كانوا يعرفون أن «راغب»، سجن أباه في بدروم القصر، في غرفة مظلمة، ضيقة وعيَّن عليه حارسا غليظا، غريبا ليس من أهل البلد.

الكل يتهامس عن ذلك العبد الأسود الطويل الذي يقف خلف «راغب»، عاري الصدر مدججا بالسلاح لا يتحدث ولا ينظر لأحد.

- راغب أصبح يحب السود.

قال أحدهم.

- طول عمره زفر وشاذ.

رد آخر.

في المقابل امتلأ قصر «هادي» ابن الشيخ الكبير عن آخره بالمعزين، وقف «هادي» مرتديا السواد، يدوس على جراحه، يصافح الجميع وفي عينيه سحب من الخديعة.

أراد «هادي» و«راغب» من تعمد امتلاء القصر بالناس إيصال رسالة إلى الجميع بأنهما الأكثر شعبية وتأثيرا.

«هادي» يعرف جيدا تركيبة أهل بلده، فمنذ أن عرف الشيخ الكبير أنه بعيد عن القتال والمعارك أعطى له مهمة إدارة شئون البلد وتسيير أمور الناس الحياتية، هذا أتاح له إقامة شبكة من علاقات البيزنس غير الشرعي والمشبوه فكون ثروة طائلة، بل انتشرت استثماراته في البلاد المجاورة وكون شركات كبرى.

تحول حال البلد بعد وفاة الشيخ الكبير إلى صراع بين البيزنس وبين بناة الوطن الحقيقيين.

في المساء حين مر «سيف» ومعه «جاسر» و«وهدان» يتفقدون شئون الناس وصلتهم أصوات المداحين والرواة تمجد بطولات «راغب» قاهر الغرباء، أسد البحار والصحاري.

تحكي قصة هروبه من أيدي الغرباء ومعه الشيخ «هادي»، تحكي مواجهته لسرية كاملة وهو يطيح بسيفه الرقاب، ويبقر البطون، يصيح في الأعداء فيهربون، ثم يلقي بنفسه في البحر ويعوم عشرات الكيلو مترات، يقاوم العواصف وأسماك القرش.

حاول «جاسر» أن يدخل لينهر المداحين والمغنيين، ليسكتهم لكن «وهدان» منعه.

حين وصلوا إلى الميناء، كانت كومة من الأطفال يرددون نفس الأغاني، ويلعبون لعبة «راغب البطل»..

يحكي «رماح» أن «راغب» خصص راتبا شهريا لكل مغنٍّ من المداحين والرواة مقابل ترديدهم لأغاني تمجد بطولاته الوهمية.

وهكـذا فعـل «هادي» إذ اشـترى عـددا من المقاعد فـي كل مقهى تـردد الأغانـي التي تمجد بطولاته، بل جمع الشـعراء والرواة في بيته، وأغـدق عليهـم العطايا، ونظم قوافل تجوب البحـار في مراكب مزينة تسامر البحارة والصيادين بالأغاني وتعطيهم الهدايا والأموال، وقوافل أخرى تجوب البساتين.

أسـس «هادي» ومعه «راغب» جمعيـة خيرية كبرى بجوار مجلس الشيخ الكبير وفي كل جمعة يقفان سويا يستقبلان المحتاجين.

لم يسـتطع «سـيف» مواجهة كل هذا الزيف، فقـرر أن ينجز مهمته ويوفـي بوصيـة الشـيخ الكبيـر، فـأوكل الأمر إلـى «وهـدان» وجنوده الغلاظ للقبض على «راغب» الزفر، و«هادي».

***

لم ينم «سـيف» ليلته، تقافزت روح الشيخ الكبير في المكان كقطة محبوسـة تبغي الفـكاك، خرج مـن غرفته، طاف بكل شـرفات القصر المطلـة جميعها على الحديقة الفسـيحة التي تحيـط القصر من جميع الجهات، بل نزل من الشرفة الخلفية، سار في الممر المحفوف بالورد وأشـجار النخيل النادرة التي جلبها من الجزيرة المعزولة وقت النشأة والتعلـم.. هـو مفتون بأشـجار النخيل بكل أنواعه المغروسـة في كبد السماء أو تلك التي تبعثر جدائلها قرب الأرض.

عـاد إلـى تلك المرحلة القاسـية، تذكر ذلك السـؤال الـذي ما كاد يهدأ:

- لماذا أبي يكرهني أنا وأخي الأصغر جاسر؟ لماذا يحب هادي أكثر وأبقاه في البلد؟ لم يجعله يخضع لتلك الحياة القاسية في الجزيرة؟

لكن مع الوقت أدرك غاية أبيه، أدرك فطنة أبيه لثقل المسئولية الموضوعة على عاتقه بعد أن تأكد الشيخ الكبير من خيبته في ابنه البكر..

«هادي» لم يحمل من ملامح أبيه سوى الوجه والعينين وتلك الشامة المرسومة على مبتدأ العنق مع الكتفين، ذلك الختم لنسل الشيخ الكبير الذي ظهر عند «جاسر» و«سيف».

عاد «سيف» إلى شقيقه الأكبر «هادي» يستغرب من طباعه التي لا تشبههم ولا تشبه أبيهم ولا تشبه حتى أمه ولا عائلتها، من أين جاء بكل هذا الجحود؟

ترك سؤاله يتقلب على خضرة حشائش الحديقة الكبيرة وعاد، نزل إلى أسفل، إلى ذلك المخزن الممتلئ بكراكيب الزمن، سيوف محطمة، حراب، بذلات عسكرية ملطخة بالدم، كل بقعة داكنة بطعنة وإصابة، وحكاية من حكايات المواجهة مع الغرباء.

التقط الورق الملفوف على بعضه، نفض عنه بعض تراب الزمن، فرده على بقايا طاولة مصنوعة من العاج، ثبته من أطرافه وراح يحملق في كل خط من تلك الخطوط التي أصبحت يوما سفينتهم ومنجاتهم ومصدر عزتهم وأمانهم.

كانت بصمات أصابع أبيه في كل بقعة من الورق، بصمات صنعها العرق المعجون بالتعب والتراب، تحسس بصمات أبيه، سقطت دمعه كانت عالقة، أحس باشتياق كبير لأبيه، خرج سؤاله القلق:

- ماذا كنت ستفعل يا أبي لو كنت مكاني؟ أقبض على هادئ وراغب وأحاكمهما أم أصمت وأنا أرى آلة الزور تطبع كل دقيقه عملات الزيف والإسفاف لتعبئ أدمغة الناس ببطولات وهمية؟ الناس في بلدي طيبون، وصل حبهم لنسل الشيخ الكبير أنهم يستبعدون أن حذاء الشيخ قد يخطئ فما بالك بابنه البكر الكبير؟!

هل ممكن أن ينقسم البلد؟

هل ممكن أن يتقاتل الإخوة؟

أخذ رسوم السفينة وترك أسئلته لرطوبة المخزن ربما يعصرها فتنجب يوما ما يريح.

خرج مندفعا تاركا لبعض النسائم العابرة فرصة لترطيب العين المبتلة، قفز على حصانه الأشهب وانطلق وحيدا بلا حرس إلى السفينة، أحس بأن المسافة من قصره إلى السفينة كأنها اختصرت، أو نقصت، أو أن تلك السفينة زحفت فاقتربت، أو أن البحر فاض بمائه ليجعلها أقرب.

في الطريق يأتيه صوت عواء الكلاب من ناحية البساتين، هو ذلك الصوت الذي يجعله يشعر بانقباض مقلق، يتذكر أصوات الذئاب، وزئير الوحوش في الجزيرة المعزولة أيام الصغر، حاول أن يتذكر الخوف فلم يستطع، فقد حاسة الخوف من كثرة ما رآه منذ صغره،

حول قلبه إلى قطعة من الصخر في الصعاب، لكنه بقي قطعة من المرمر الأبيض في منتهاه الإنساني. إحساس غريب كقطار يدوس البلدة، إحساس من الكآبة يضرب أطنابه في الأركان.

كثير من الأعمدة الممتدة بطول الشارع الرئيس بلا فوانيس مضيئة وهي التي لم تنطفئ يوما، كان الشيخ الكبير يمر بنفسه على العمال المسئولين عن إنارتها، يتابع معهم مراحل ملء الزيت، وتعليقها في رؤوس الأعمدة..

المقاهي فارغة، صامتة، لا تختلف عن ذلك المطعم الذي شهد تسمم الشيخ «صامد» البطل، ذلك المطعم الذي حلت عليه لعنة الهجر والخراب، يقول الناس إن لعنة المرحوم «صامد» حطت عليه.

الليلة جميع المقاهي لا تختلف عن ذلك المطعم الملعون، جميع المقاهي باتت ملعونة، صامتة، حتى ذلك الذي اشتراه «راغب» ليبول على الناس في المساء زيف بطولاته الفارغة كان صامتا.

تلك المقاهي اعتادت أن تردد في آخر السهرة مواويلها الخبيث، عن الأخ الكبير الذي ظلمه أخوه الأصغر وأخذ ملكه، عن نبل الأخ الكبير الذي ضحى بأحقيته في الحكم من أجل ألا يتقاتل الأشقاء.

استغرب «سيف» من مكر أخيه.

كيف تحول بلدهم إلى صراع بين الحق، وبين آلة الزيف، المتمثلة في المواويل تارة، وحكايات المداحين تارة أخرى، وفي القوافل التي تجوب البلاد تدلق قصصا كلها كاذبة.

تعجب كثيرا من أولوية المواجهة؟

يركز على الغرباء المتربصين بالبلد وناسه؟ أم يشتغل على سوس الداخل الذي ينخر عظام ذلك الحلم؟

ترك أسئلته على أرصفة الطرقات تتقافز من وقع اصطدامها ودخل إلى السفينة حين وصلها، تاركا حصانه يطلق صهيلا غريبا، كأنه يستغيث من شيء ما، أو كأنه كان ينادي الشيخ الكبير، هو نفسه الحصان الذي طالما أحبه الشيخ الكبير وارتضى ركوبه له في كل تحركاته الداخلية.

ألقى تحية جماعية على الموجودين ودلف إلى بطن سفينته، يبحث عن ذلك الكتاب الذي كان أبوه يدون فيه أفكاره وذكرياته ووصاياه.

غلاف الكتاب أسود به من الأطراف أصداف، وعاج، دفتر في طول إنسان ممدد في وقار كأنه كان يستريح، أو كأنه مات.

فرده أمامه وراح يتأمل مرة أخرى أنامل الشيخ وهي تخط هذه المرة وصاياه.

الفصل الأول «المواجهة»، دحرج مقلتيه على الأسطر، تركهما تغوصان فيما وراء السطور، انتقل إلى فصل آخر: «القتال»، وآخر، وآخر.

ظهر من تلك السطور يقين الشيخ الكبير أن الأعداء هم فقط أعداء الخارج، ما تخيل يوما أن يخرج الأعداء من ظهره، من نسله، من بين يديه، هل كان أبي طيبا لهذه الدرجة؟

هل كان واثقا كل هذه الثقة من أبنائه؟

ألم يطلق تخوفه يوما من «هادي»؟

ألم يقل يوما إن «راغب» لعنة ستحل على البلد؟

لماذا لم يدون لي ما أستنير به في هذه المصيبة؟

أغلق الكتاب الكبير، أراح ظهره إلى الوراء، رمى هلب عينيه في السقف، تأمل تلك الدقة التي صنع بها الشيخ الكبير سفينته، جاء في خاطره أن الشيخ الكبير ربما صنع السفينة بهذا الحجم، لتكون ملائمة لتجارة نقل البضائع، وللقتال، وأيضا لحمل أكبر قدر من البشر، هل كان يخاف يوما أن يموت حلمه في ذلك البلد، أو يُسرق فلا يجد أبناؤه المخلصون مفرا أو نجاة سوى تلك السفينة؟

وهو يتأمل كل ركن في المكان لفت نظره دفتر صغير نائم كقطة أسفل الطاولة التي يتمدد عليها الدفتر الكبير.

انحنى، تناوله، تأمله، لم يكن مكتوبا عليه شيء، لكن كانت المحبرة قريبة منه، وكأنه آخر ما استقبل أفكار الشيخ الكبير.

فتحه برهبة، تأمل أول مربع يحمل أنامل الشيخ.

«هنا قلقي، وهنا حزني..

هنا ألمي، هنا أعترف بأني نسيت في زحمة البناء والتشييد ثقبا في جدار البيت، ما كنت أدري أنه يوما سيكبر، أنه سيتسع لدرجة أن يدخل منه الأعداء إلى قلوبنا.

إنه لحمي، ونطفتي..

نحن قوم لا نغلب إلا بالغدر والخيانة.

نحن قوم فشل من أراد أن يطعننا من الأمام، في المواجهة، فلم يجد سوى الطعن في الظهر بغتة..

إنها طعنة الخسة، وبيد ابني..

اهتزت يدي حين أردت قتله، قال قلبي عذبه ليتطهر، ويعود إليك سندا، وقال عقلي واهم أنت فإنه لن يعود.

مقسم أنا بين أن أقتل هادي ابني، بيدي، وبين أن أتركه كسرطان ينخر في حلم العمر فتضيع تلك البلدة التي أسستها ويضيع من فيها من أهلها الذين هم أهلي، كل طفل ولد فيها هو ابني، كل امرأة هي ابنتي أو أختي..

كلما بُني بيت فرحت، كلما دب العمار فيها انتشيت.

كيف أتواطأ على هؤلاء الناس لأن المخطئ هو ابني؟!

إنه ضياع للعدل، أنا ضيعته تلك الليلة التي ارتشعت يدي ولم تقتل هادي ولم تسمح للشيخ داود بقتل ابنه راغب..

الشيخ داود كان أشجع، حمل سيفه وغرزه في بطن راغب، وكان سيكمل لولاي..

هل أوقفته عن قتل ابنه رحمة به؟

أم رحمة بي؟

لأنني لم أستطع أن أكون مثله وأقتل نطفتي النجسة؟

لست سيدنا إبراهيم.

وليس ابني مثل ابنه.

حين تهتز يد العدالة مرة ستبقى مهزوزة مدى الحياة.

لذا لو كتب الله لي العمر، سأنفذ حكم القصاص في ابني وبيدي».

انتهى كلام الشيخ الكبير.

توقف «سيف» عن القراءة أو الاستماع، لأن صوت الشيخ كان يتردد في أرجاء المكان.

همس في ذاته، هي إذن رسالة الشيخ الكبير لي، يد العدل لا يجب أن تكون مهزوزة وأنا يد العدل الآن.

خرج مندفعا وفي يده كتاب أبيه، باعتباره حُجة، ربما يستخدمها يوما لإظهار الحق، لإثبات ذنب أخيه.

مع الفجر وقف الشيخ «رياض» وابنه «رماح» و«وهدان» وجاسر في ساحة القصر أمام «سيف» وقد ارتدى بزته العسكرية بكل هيبتها وجلالها.

نظر إلى «وهدان»:

- أنت ورجالك ستذهبون إلى بيت هادي، تحاصرون المكان جيدا، ثم تدخل أنت إليه تطلب منه بهدوء الخروج معك، إن رفض

لا تتركه، وليكن أحد رجالك قريبا منك، تقيده وتقوده أنت إلى سجن جبل صامد. واعلم أن لهادي رجالا ليسوا من بلدنا، لا نعرفهم، مرتزقة، وأن آخر المعلومات تقول إنهم في ازدياد.

نظر إليه بحزن:

- لا تقتله.

استعاد نفسه سريعًا ليضيف:

- أما جاسر فيكون معي في قوة نذهب إلى راغب، فرجاله كثيرون الشيخ رياض ورماح ومعهم بقية الرجال سيتولون أمر السفينة.

وقفت «جميلة» في الشرفة العليا المطلة على بهو القصر ترقب تلك اللحظة الغارقة في رعب سيقسم ظهر البلد نصفين، تتحسس بطنها المنتفخ ويعتريها قلق ورعب من القادم.

التفت «سيف» وهو في طريق خروجه من باب القصر ناحيه «وهدان»:

- كثف دورياتك في مدخل البلد الصحراوي بين الجبلين.

صعدت «جميلة» إلى أعلى القصر، وقفت في الشرفة، تراقب «سيف» على حصانه الأشهب، بتاجه الذي يلمع وبجواره «جاسر»، وخلفهما طابور من الخيول والجنود الراجلة وحملة النبال والحراب.

التفت إلى مخرج القصر الخلفي، تجلى «وهدان» في ملابس القتال كأنه ملك الموت بكامل رعبه، امتطى الحصان بجسده الأسود كغوريلا، وخلفه قوة لا تقل عن التي تصاحب «سيف».

وقف يتأمل ذلك القصر الذي له فمان كبيران، يضخان قوات وجنودا.

وقف غراب أسود أعلى النخلة المنتصبة في الركن الخلفي وظل ينعق بوتيرة مُقبضة.

الشوارع خاوية إلا من بعض القطط والكلاب الضالة، لم يرد «سيف» أن يقطع الشارع الرئيسي حتى لا يثير فضول الناس، أراد أن يتم الأمر بهدوء، يقبض على الاثنين ويقتادهما إلى الجزيرة المعزولة وهناك ينفذ ما لم يكمله أبوه.

أخذ الطريق الخلفي المؤدي إلى بيت «راغب»، وهكذا فعل «وهدان» إلى قصر «هادي».

لاحت أسوار قصر «راغب» من بعيد، تحيطها الأشجار والنخيل الباسقات، تشع ترفا وغنى، وصل «سيف» في مقدمة رجاله إلى الباب الكبير للقصر، أغلق الحراس البوابات حين رأوه، رفع «سيف» يده، خرجت سريه راجلة من الخلف تقدمت ناحية ذلك الباب، وضعت متاريس في جوانبه وما هي سوى دقائق حتى سقط ودخل الرجال.

كانت الطرقات المحفوفة بالورد خاوية، وحدها الطواويس ببهائها تتبختر في المكان.

تذكـر «سـيف» أنه لـم يدخل هذا القصـر ولا مرة واحـدة، بل كان يتجنبـه في الذهاب والإياب من كثرة ما سـمع مـن حكايات «راغب» وسهراته ومجونه، وشذوذه.

أخبر ه «رماح» يوما وهو المسـئول عـن المخابرات والمعلومات، أنه رصد سـهرات ماجنـة للجنس الجماعي، وأن لـدى «راغب» عبدا لا يفارقـه، بـل قتـل «راغب» أحد حراسـه لأنـه يوما اقتـرب من ذلك الحارس.

رغم كل أناقة وفخامة القصر ثمة رائحة نتنة تفوح من جنباته.

وصل «سيف» إلى مدخل القصر الداخلي، ارتصت القوات بعناية تنتظر الأوامر، أطلق «سيف» صرخته:

- راغب..

كررهـا كثيرا، دقائق وأطل «راغب» من شـرفته العلوية، بدا بكامل هيئته العسكرية بعد أن تعافى من طعنة أبيه التي لم تقتله:

- يا مرحبا يا سيف، تأخرت كثيرا، أخبرني رجالك أنك ستزورني أمس..

صـرخ «سـيف»، ليفـوت علـى «راغـب» حيلـة الوقيعة بينـه وبين رجاله:

- رجالي لا يعرفون الخيانة، رجالي لا يعرفون الطعن من الخلف، رجالي لا يبيعون أباهم وبلدهم. رجالي أطهار وأشراف.

أطلق «راغب» ضحكة ماجنة:

- ماذا تريد يا طاهر.

- أريدك أن تأتي لأنك مقبوض عليك.

أطلق ضحكة أخرى أكثر ميوعة، فأطل عبده الأسود بكامل هيئته العسكرية، وقف بجواره، وصرخ «راغب»:

- كيف تقبض عليَّ، وأنت مقبوض عليك. أنت الآن محاصر في قصري، رجالي يحيطون بالقصر من كل مكان من الخارج، البوابة التي كسرتها أصبحت بوابتين.

استدار «جاسر» بمجموعة من الرجال إلى الخلف، وتحركت قواته في نظام مذهل إلى مجموعات صغيرة بخطوات ثابتة، مصدرة أزيزا مخيفا.

شكلت القوات مجموعتين، واحدة وجهها للقصر وأخرى وجهها للأسوار.. نزل «سيف» في مجموعة قوية توجهت إلى باب القصر، حطمته ودلفت إلى الداخل..

فوجئ «سيف» بما رأى، قصر «راغب» تحول إلى ثُكنة عسكرية، ليس هناك مكان ولا ركن ولا شبر إلا وعُبئ عن آخره بالمقاتلين، لم يكن هناك مقاتل واحد من البلد، كلهم من الغرباء، والمرتزقة..

صرخ «سيف» بعلو صوته:

- الغرباء.. تستعين بالغرباء لقتالنا أيها الخائن.

دخل بقية رجال «سيف»، سالت الدماء من كل باب ومنفذ ونافذة من نوافذ القصر، تقول الحكايات التي ظلت تردد أن أحدا لم ير «سيف» بهذه الشراسة وهذه القوة من قبل..

يفتش في كل مكان، يصعد إلى السلالم الداخلية، يتنقل من مكان إلى مكان، حتى وصل إلى ذلك الجناح الملكي الباهر.. دخله مُزمجرا كأسد وصلت شراسته منتهاها، قابلته مجموعة من الوصيفات:

- هذا جناح السيدة زهرة.

لم يكن الاسم حاضرا في ذهن «سيف»، هو يعرف أن للشيخ «داود» ابنة لكنه لم يرها منذ كانت طفلة صغيرة، يتذكر حين كان الشيخ الكبير يقيم الحفلات والولائم احتفاء بعيد تأسيس بلدهم، تلك المناسبة التي تفرح فيها القلوب وتصدح الحناجر بالغناء، كانت زهرة في طفولتها حديقة من الزهور، يتذكر كم ابتسم وهو يرى اهتمام أخيه «جاسر» بها:

- هل علمك الشيخ الكبير اقتحام أجنحة الحريم؟

استدار «سيف»، إلى مصدر الصوت، كانت «زهرة» الصغيرة قد أينعت، نضجت، استدارت، كستها هيبة الأميرات وعز وفخامة الأثرياء..

اعتذر «سيف» واستدار إلى الخلف خارجا:

- انتظر.

أوقفتـه «زهرة»، أشـاحت بيدهـا للوصيفات بـأن يتركنها وحدها، صمتـت حتى غـادرت الوصيفـات، اقتربت من «سـيف»، تخلت عن ذلك الوجه الصامد، انهارت في البكاء:

- سيف.. أرجـوك أنقذ أبي، راغـب أخذه إلى مـكان غير معلوم، وسجنه، أخاف أن يقتله، أنت تعرف راغب، أرجوك أتوسل إليك..

ثمة شـيء زلـزل «سـيف»، ازدادت جروحـه اشـتعالا، اندفع الدم ليملأ كل العروق:

- أين هو، دليني عليه؟

قالهـا مزمجـرا، هرولـت أمامـه ناحيـة اسـتدارة السـلم الداخلي، أشارت إلى الغرف السفلية في القصر، قبل أن ينطلق، أمسكت بيده:

- أرجوك أخرجني من هنا.

أشـار إليها «سيف» بأن تنـزل ناحيـة المجموعة التـي تتواجد في الطابق الأول بقيادة «جاسر»..

انطلق «سـيف» كعاصفة تبعثر كل شيء في طريقها، تطيح برؤوس مـن يقفون أمامه، يدفع بقدمه الأبـواب فتطير في الهواء محدثة صوت تكسـير مفزع، لم يسـترح إلا بعد أن وصل إلى المخبأ الذي يختبئ فيه «راغب» ومعه حارسـه الأسـود، تقدم الخادم الأسـود، ناحية «سيف» يصـرخ مثـل الموت، كان «سـيف» قد أتعبـه القتال وهو الـذي لم ينم طوال ليلته، هجم العبد مثل الضبع.. أصابه في ساقه وصرخ.

تراجع «سيف» إلى الوراء، أخذ نفسا عميقا، تحسس دمه المنسال، وتذكر أيام النشأة الأولى في الجزيرة المعزولة، تذكر ما كتبه الشيخ الكبير تجاه يد العدالة المهزوزة، تذكر حلم الأجداد، والعبء الذي جثم فوق كتفه، تذكر السوس الذي ينخر في النفوس، صعد سلمتين ليتخير نقطة ينقضّ بها على ذلك الحارس الأسود الذي اتضح أنه لم يكن خادما شاذا جاء به «راغب» لنزواته بقدر ما كان مقاتلا من نوع نادر.

التف رجال «سيف» إلى الخلف ناحية «راغب»، وبقي «سيف» وبعض رجاله أمام الحارس الذي بدأ يزمجر، منتشيا بطعنته التي وجهها لساق «سيف»..

انبرى أحد رجال «سيف» لمواجهة الخادم.. شده «سيف»:

- دعه لي، المهم لا تجعل راغب يهرب ولا تقتله.

أطلق «سيف» صرخته المعتادة:

- دونها أو نموت

فاهتزت أركان القصر، ورجع الخادم إلى الوراء، وكأنها صرخة تنين خرج من عمق التاريخ، يطلق زخات النار من فمه، قفز «سيف» على الخادم، في يد سيف وفي الأخرى رمح، كان «سيف» مثل الموت، يقفز إلى الأعلى، ويدور دورات متتالية، وما هي إلا دقائق حتى سال دم الخادم من كل مكان، ما كان أحد يعرف أين جرحه تحديدا.

بـدأ الخـادم ينفخ دمه الذي سـال وملأ فمه، يمسـح بيده دمه الذي سقط على عينيه..

تراجع «سيف»، ملأ صدره هواء ثم أطلق صرخة أخرى:

- دونها الموت..

قفز قفزات متتالية أمام الحارس، من اليمين إلى اليسار إلى الخلف، وفجأة سقط الخادم على الأرض ينفجر الدم من قلبه..

صرخ «راغب» على حارسه، هجم على «سـيف»، لكن مجموعة من الرجال تعاملت معه، في نفس اللحظة التي قتل فيها «سيف» العبد الأسود.

قبض الرجال على «راغب»، واقتادوه للخارج.

ارتـدت «زهـرة» رداء أسـود بطاقيتـه التـي تغطـي الـرأس والوجه كاملا، ومعها «ملوك» وصيفتها التي ربتها منذ طفولتها فباتت هي الأم والصديقة. كانتا قد تسربتا من بين خفايا القصر الكبير حتى وصلتا إلى الطابق الأول المدجج بالرجال، وقف «جاسـر» كالصقر يمسح بعينيه المكان، يشير إلى رجاله لينتشروا ويسدوا الثغرات.

- جاسر.

نادته بهدوء.

التفت إلى مصدر الصوت الجميل.

اقتربت، ظهرت له، أزاحت غطاء رأسها، فأنار وجهها المكان..

- أنا زهرة.

انتقل «جاسر» من مزاج المقاتل إلى مزاج العاشق، انتقالة تزلزل الكيان، وتخمد نيران القتال، اقترب منها، راح يتأملها، يقارن بين الواقفة أمامه وبين تلك الطفلة التي طالما رآها ملاكا بثوب أبيض وأجنحة بيضاء.

من أين يجيء هذا البهاء؟

كيف للبريق والحسن والبهجة أن يتشاركوا هكذا؟

أي روح تلك التي تسكن هذا الرخام البشري الممرمر؟

يااااه...!

- زهرة؟

- سيف أمرني أن آتي إليك لتخرجني من هنا، أرجوك لا تتركني لراغب.

كلف «جاسر» ثلاثة من رجاله الأقوياء باصطحابها إلى الخارج.

نلتقي في المساء بعد أن تهدأ الدنيا..

ردت في حزن شديد:

- دنيا بلدنا لن تعرف الهدوء.. العاصفة قد بدأت لتوها.

غادرت.

تراجع ناحية حائط لا يخون، أعطاه ظهره، وراح يعيد تضبيط خيوط نفسه المرتبكة، يعيد تضبيط مزاج المقاتل، وإبعاد مزاج العاشق.

علت أصوات رجاله في الأسفل، يطلبون المدد، نزل «جاسر» تاركا بعضا من الرجال ومصطحبا البعض الآخر، حين وصل إلى متسع حديقة القصر وجد أخاه «هادي»، يصطف في مئات الرجال، لمواجهة قواته..

تقدم «جاسر» ومن خلفه رجاله، في مواجهة أخيه «هادي» ورجاله، مشهد لو قدر للشيخ الكبير أن يراه، لمات ألف مرة.

حين خرج «سيف» منتصرا من داخل القصر، كانت الفاجعة الكبرى.

وجد أخاه «جاسر» ومن خلفه قواته المزمجرة في مواجهة أخيه «هادي» وخلفه أضعاف مضاعفة من القوات.

لم يكن «سيف» قادرا على فهم ما حدث، ما الذي أحضر «هادي» إلى هنا؟

وأين «وهدان»؟

لا يمكن أن يكون «هادي» قد انتصر على «وهدان» حتى لو معه أضعاف ما معه من الرجال، «وهدان» لا يعرف الهزيمة.

رفع «جاسر» سيفه، موجها تحذيراته إلى «هادي»:

- لن تتقدم خطوة واحدة إلى الداخل.

نظر «هادي» إلى «راغب» الذي تم اقتيادة، وأطلق صرخته:

- ماذا فعلت يا سيف؟ يا بن أمي وأبي؟ كل هذا من أجل الحكم؟ تركناه لك راضين، ماذا تريد؟ أرسلت وهدان لاعتقال أخيك، وجئت

هنا لاعتقال راغب، أهل البلد لن يقبلوا بما تفعل، ولا البلاد المجاورة ستقبل، لقد أرسلت الرسل والمنادين في الشوارع، يقولون للناس قصتك.. قصة الأخ المسعور، الذي حولته السلطة إلى مصاص للدماء. أهكذا أوصاك أبوك؟ أين تعاليم الشيخ الكبير؟

أثناء تقدم «سيف» ناحية أخيه «هادي» كان «وهدان» قد أطل بحصانه ومن خلفه مجموعاته القتالية، بسرعة شديدة قام بمحاصرة رجال «هادي» من كل اتجاه، صرخ في «سيف»:

- أعطنا الإذن لإنهاء هذه الحالة، الناس يتجمعون عند الميناء. ليس من الصالح أن يبقى الوضع هكذا.

لم يمضِ وقت طويل حتى اتضحت حنكة ومكر «هادي» الذي لم ينم في قصره، كان يحتاط لما يرتب له.

رفع «سيف» يده مشيرا إلى «وهدان» ورجاله بمهاجمة «هادي» ورجاله وهو يوجه إليه حديثه:

- اخلع قميصك يا هادي.. انظر إلى جسدك، تحسس عصا أبيك. تحسس خيانتك، هذا الكلب أغراك.

أشار ناحية «راغب» وهو مربوط بالحبال، وأضاف:

- جرك إلى مستنقع نجاسته.. أتعرف ماذا فعل راغب بأبيه الشيخ داود، باني البلد؟ سجنه، في غرفة مظلمة، وربما يكون قد قتله، كما قتلت أنت أباك الشيخ الكبير مرتين، مرة حين قتله الغرباء ومرة حين وضعت يدك في يد الغرباء. سأطلعك على وصية أبينا بخط يده، وصية يطالب

أبيها باعتقالك وسـجنك بل وقتلك. وأنا أنفذ وصية أبيك. فتعالَ وسـلم نفسك وكفى قتالا.

صرخ «هادي»:

- تعـالَ اقتلنـي بيدك أمـام الناس، بدل أن تقتلنـي مقيدا، كن رجلا واقتلنـي، لـن أرفـع سـيفي فـي وجهـك، حتى تبقـى صورتـي طاهرة أمـام الناس.. سـتحكي الحكايـات عن الأخ الذي قتـل أخاه من أجل الكرسي.

صرخ «وهدان»:

- سـيف.. أنهِ الأمر، الناس تتجمهر فـي طريقها إلى هنا، ورجالي غير مرتاحين عند مدخل البلد الصحراوي.

أشار «سيف» إلى «وهدان» باعتقال «هادي».

خرج «سـيف» يجرجـر جرحه وترك «وهدان» يزمجـر، يقتل يمينا وشـمالا غيـر عابئ بأي شـيء، حتى وصـل إلى «هـادي» فقيده وجره بفرسه.

تـم وضع «هـادي»، ومعـه «راغب» في عربـة مغلقة تجرهـا أربعة أحصنة وانطلقت إلى مكان غير معلوم.

ذهب «سـيف» إلى بيته، استلقى أمام عشرة أطباء، راحوا يعالجون ساقه الممزقة، كانت الدنيا مغبشة أمام عينيه.

***

10

لم أستطع التملص من الذهاب إلى تلك المقابلة التي رتبها صهري السفير عزيز الراوي، يدي ثقيلة وأنا أجاهد في تحريك ماكينة الحلاقة على ذقني، رأيتها كزرعة الفلاح حين تخضر ويتشابك خضارها..

تأملتها قبل الحصاد، خليط من الصفرة والشيب والسواد، نقلتني إلى ملمح لم أتخيله، أنا القادم من زمن بعيد، أنف مدبب، وجه تصبغه الحمرة، عينان يحفهما القلق وعدم النوم.

أخرجت هاتفي، حدقت في المرآة واحتفظت بها في برواز صورة على هاتفي المحمول لتكون خلفية لشاشته، أردت أن أتذكر أنا الحقيقي، أنا الجديد، تركت ماكينة حلاقتي تجز محصولها الوفير ولم أدقق النظر كثيرًا في الأرض الباهتة بعد الحصاد، فقط أحسست أنني غريب عني.

ارتديت بعناء واحدة من بدلاتي الأسمنتية، لففت حول عنقي مشنقتي الأنيقة، اخترتها سوداء، انطلقت بجوار صهري إلى ذلك المكان الغامض..

دخلت رحلة اجتياز الأسوار، تفتيش رجال الأمن، طابور الكلاب، ثم الممرات الباردة، حتى وصلنا إلى أناس معلبين.

لم يطل انتظارنا، وصلنا إلى المكتب الممتد والمتعدد الزوايا، ظهر الجالس خلفه كمَن ارتدى جلبابا أوسع منه بكثير.. قبل أن أجلس، ألقى إليَّ جملته وراح يمازح صهري:

- نعيما سعادة السفير، أخيرا حلقت لحيتك؟!

لضم صهري مزاحه بجملته:

- يا سيدي بيعمل علاج لبشرته، وأطباء التجميل قالوله لازم تتركها لمدة شهر حتى ترتاح البشرة.

رد بابتسامة صفراء وصمت.

تحدث صهري كثيرا عن ذكرياته، نجاحاته، عن سياسة مصر الخارجية، ودوائر صنع القرار، والانفتاح الروسي والموقف الأمريكي..

تمر الجملة أمام لساني سريعة فأهشها، لا أريد لها أن تقف وأنا الخبير في كل ما يقولون، لو أردت لألقيت محاضرات فيما يقولون، ولألفت كتبا في ذلك، لكنني وأنا المريض بداء الصمت، جلست متفرجا.

حين أنهى صهري استعراضه المعرفي، قدَّم طلبه:

- السفير رشدي لازم يرجع لموقعه، أو على الأقل عاصمة أوربية ثانية لا تقل أهمية عن تلك التي كان فيها، لأن هذا معناه أنه مغضوب عليه، وأنت تعرف هو من أبنائنا المخلصين، الصامدين..

نظر المسئول الكبير إليَّ وهو يوجه كلامه إلى صهري:

- السفير رشدي أحواله مش عاجبانا، في حاجة غلط، بيجلس مع ناس غريبة، وبيعمل تصرفات أغرب، خليه يعقل وكل شيء مقدور عليه.

لم يستطع لساني أن يواصل صمته، قلت بحدة:

- إن كنت تقصد الدكتور فراج البيومي، فأنا أعرفه كما أعرف نفسي، وهو رجل بريء، وكان المفروض أن ذهابي إليه يشفع له لو كنتم تثقون فيَّ باعتباري ابنا من أبنائكم المخلصين..

وقف المسئول معلنا انتهاء المقابلة، دون أن يوضح أي امتعاض أو ضيق، ابتسم موجها كلمه لي:

- شكرا على النصيحة سعادة السفير.

غادرنا ولم يوقف صهري جلدي بسياط كلامه اللاسع حتى وصلنا إلى بيته، واستوقفتني لأول مرة لغته المتعالية، التي وصلت إلى حد أن يعايرني بماضيَّ وعائلتي ونسبي، وبلدتي الصغيرة، كان يذكرني بأنه لولاه ما وصلت إلى ما وصلت إليه، ويؤكد أن ما فعله كان من أجل سعادة ابنته ومجاراة لجنونها، إذن فزواج ابنته مني - في رأيه - ليس سوى نوع من الجنون..

القشرة تزول من على وجه صهري، الحقيقة الطبقية العفنة تطفح من فمه ومن تجاعيد وجهه العجوز..

حيـن وصلت إلى بيته، دلفت إلى الحمـام، أتأمل ملامحي، أردت أن أطمئن على وجهي من لفحات جمله النارية، هل تشوه كما تشوهت روحي وجرحت كبريائي؟

ظهر وجهي بلا لحية كفارس بلا سيف، ابتسـمت، عبأت صدري هـواءً غير نقي وعـدت بكامل اختناقي وضجري، جلسـت في حضن ابنتي، أحكي لها أي شيء يجعلها تنسى السؤال المؤجل في صدرها

- أنت ما لك يا بابا؟ إيه اللي غيرك؟ يا بابا أنت مش أنت؟

ورغم تحايلي، ظلت تتربص بي، ثم أطلقت أسـئلتها دفعة واحدة، فعاد الصمت يتربع فوق صدري ويعتقل لساني.

أخرجتنـي زوجتي من صمتي غير المبرر حين اندفعت وهي تطلق لومها، لأنني أحرجت أباها وتحدثت بما لا يجب قوله أمام المسئول الكبيـر، خرجـت لغتها من نفس المـكان الذي خرجت منـه لغة أبيها، سـقطت فوقي من أعلـى، وكأنني مطالـب بأن أنحني، وأدعها تسـقط فوق ظهري وعنقي.

وقفت، اتجهت إلى وجه زوجتي، ليكون كلامي في مستوى أذنها، وأطلقت دفعات من الأحرف المتطايرة علها تسقط وتزيل عنها قشرتها المتعجرفة، علها أيضا تصل إلى أبيها الجالس في غرفته:

- أنا وماضي وطفولتي ونسبي وعائلتي وقريتي وتعلمي وطموحي ووسامتي ونجاحي وكبريائي وقميصي ورابطة عنقي وأحذيتي القديمة

وجواربـي، شـرف لكِ ولأبيكِ الجالـس في الداخـل ولعائلتك كلها، ولعجرفة كبريائك الاصطناعي..

خرجـت مـن باب بيتهم وأنـا أبحث عن هواء آخـر غير ذلك الذي خزنته في حمامهم الأنيق.

وصلت إلى شـقتي، أخذت حقيبتي الصغيـرة، بعد أن وضعت بها بعض احتياجاتي وأوراق حكايتي وغادرت إلى الإسكندرية لأستكين هناك بجوار الدكتور عبد النبي الهادي..

وأكمل بقية الحكاية.

***

الورقة التاسعة

حين انتهى «وهدان» و«جاسر» من تلك المهمة غادرا قصر «راغب» بعد أن أغلقوه تماما وتركوا عليه حراسة مشددة، تحفظوا على ما وجدوه من أموال اندهشوا حين لم يجدوها كثيرة وتساءلوا عن المكان الذي يمكن أن يكون قد خبأ فيه ما سرقه وادخره.

بحثوا في القصر عن الشيخ «داود» فلم يجدوه، استغربوا كثيرًا، فجميع المعلومات التي لديهم تؤكد لهم أن «راغب» أخفاه في سراديب القصر.. خرجوا مسرعين إلى الميناء، وقف الشيخ «رياض» ومعه كبار البلد في مواجهة الجموع الغاضبة مما فعله «سيف» مع أخيه الأكبر ومع «راغب»، الكل كان يردد تلك الحكاية التي أطلقها «هادي»:

- سيف وجاسر يريدان قتل هادي من أجل كرسي الحكم..

الكل كان متعاطفا مع «هادي» باعتباره الأخ الأكبر، وهو الأحق بالحكم، لكن العقلاء من الناس يقولون:

- إنها وصية الشيخ الكبير، والكل سمعها.

يقولون إن «هادي» مثل «راغب» مكروه وزفر.. لكن الرواة والمداحين والشعراء غنوا كثيرا على الناس فلعبوا برؤوسهم.

وقف «جاسر» يخطب في الناس:

- أيها الناس إننا نضرب لكم مثالا في تطبيق العدل.. لا أحد فوق قانون البلد حتى لو كان أخي الأكبر هادي.. هناك اتهامات موجهة

لهـادي وراغـب بإقامة علاقة مـع الغرباء، ويجب أن نحقـق فيها، وإن ثبتت إدانتهما ستعرفون، وإن ثبتت براءتهما ستعرفون أيضا.

زمجـر البعـض وكثـرت الهمهمـات، صمـت «جاسـر» برهـة ثم أكمل:

- ثقوا تماما، أن الأمر تم قبل أن يموت الشيخ الكبير، ما نفعله الآن مجرد تنفيذ لوصية الشيخ الكبير، تلك وصية الشيخ داود، الذي سجنه راغـب الزفـر ولا نعرف طريقه، تخيلوا ماذا يفعـل راغب في أبيه، ماذا يفعل راغب في الشيخ داود أبي الصناعة والتجارة، أبي العز والرخاء، هل نصمت على سجن الشيخ داود؟

هتف الناس:

- لا.. لا..

لكن أصواتا أخرى هتفت ضد «جاسر» و«سيف»:

- أنتما قاتلان، طماعان.. من أجل السلطة والحكم تقتلان أخاكما في عز الظهر!

قطع هذه الجلبة والضجيج أحد رجال «وهدان» وقد شق الحشود بفرسه صارخا:

- الغرباء يهاجمون البلد من المدخل الصحراوي..

انطلق «وهدان»، و«جاسـر»، والشـيخ «رياض»، وجميع الرجال، انفضـت الحشـود المحتجـة مـن الميـنـاء، دخلـت بيوتهـا وأغلقـت الأبواب.

نبه «جاسر» على الجميع ألا يبلغوا «سيف»، هو يعرف أخاه، لو كان في حضن الموت وعرف بهجوم الغرباء سيجيء.

حين وصل «وهدان» إلى المدخل الصحراوي، اتجه ناحية الجبل الذي حمل اسم أبيه، راح يعيد ترتيب قواته التي ما زالت منهكة من قتال كبير كان الأولى ألا يحدث، ترك المقاتلين يرتبون أمورهم، يلتقطون أنفاسهم، وانطلق إلى الأعلى، ليكشف عدد وعتاد الغرباء.. تسمر في مكانه حين رأى هذه الجحافل التي بدت كسيل العرم تأخذ أماكنها على حافة البساتين.

لم يستطع «وهدان» أن يرتب فكره، البلد منقسم على نفسه، الشيخ «سيف» أسير جراحه في البيت، والرجال متعبون، وقتل منهم الكثير في معركة القبض على «هادي» و«راغب».

تأكد أن الذين قاتلوهم في قصر «راغب» الزفر هم من الغرباء، وأن تحرك الغرباء الآن بكل هذا العتاد له علاقة بإلقاء القبض على «راغب» و«هادي»..

«وهدان» لا يعرف بقية الخيانة، لا يعرف أن «راغب» و«هادي» وراء قتل أبيه بالسم في المطعم، ولو عرف ما كان ليبدو بهذا الهدوء.

«وهدان» لم يختلِ بنفسه يوما إلا ودعا الله أن يكشف له قاتل أبيه، ما أراد شيئا إلا الثأر لأبيه، ولكن كيف له أن يثأر الآن، بقواته الصغيرة المنهكة أمام هذا العدد من جيوش الغرباء.

عاد مسرعا، لم يُرد أن يظهر انزعاجه للرجال الأبطال، أخذ «جاسر» جانبا وأسرَّ له بما رأى:

- ما لنا بهم طاقة، يجب أن يكون «سيف» معنا، حتى لو لم يقاتل عليه أن يشير علينا ماذا نفعل، إنها مسئولية لو خسرنا، أرجوك..

رفض «جاسر»، طغى إحساسه الأخوي على أي شيء آخر:

- كأنك تقول لي أرسل في طلبه ليموت هنا.

بعد نقاش طويل غادر الشيخ «رياض» إلى القصر وعاد ومعه «سيف» محمولا على هودج، يرافقه جميع الأطباء إلا واحدا اعتذر وغادر، سأل الشيخ «رياض» عن هذا الطبيب، فقالوا له:

- أرسله الشيخ عدنان حين علم بإصابة سيف.

رفضت «جميلة» أن يحملوا «سيف» على هودج لحضور المعركة وهو بهذه الحالة يقطر عرقا، يرتجف من الحمى، ولم تنفع أدوية الأطباء معه، فحالته تسوء.

حين وصل الهودج المتأرجح على الجمال، أزاح «سيف» تلك السحابة الساكنة على عينيه، رأى جحافل الغرباء، همَّ ليعتدل، لم يستطع، منعه الأطباء المرافقون. قال له الشيخ «رياض»:

- اليوم نريد رأسك ودهاءك فقط.. وفر ساعديك.

زمجر وصرخ:

- كيف؟ كيف؟ دونها أو نموت!

كأن «سيف» كان يهذي، وقف «وهدان» في المنتصف، وتحرك «جاسر» إلى الميمنة برجاله، و«رماح» إلى الميسرة ومعه بقية الرجال.

بدأت طبول الغرباء تدق، تطايرت السهام في السماء لتسقط مرة أخرى في صدور ورؤوس رجال البلد الأبطال ودارت المعركة..

تروي القصص والحكايات أن الأبطال سطروا ملحمة لم تتكرر منذ الجيل الأول، لكن الغرباء كانوا أكثر، كلما انتهى رجالهم ضخوا رجالا جددا من خلف الجبال، حتى أنهك رجال البلد وبدأوا يتراجعون إلى الوراء، استولى الغرباء على البساتين، ومدخل الجبلين، بل وزحفوا إلى منتصف البلد.

وقف «وهدان»، و«جاسر»، و«رماح» والشيخ «رياض» في مدخل الشارع الرئيسي المؤدي إلى الميناء ومجلس الحكم، فوصل الغرباء وبدأت معركة كبرى، حين أوشك الغرباء على الانتصار، انتفض «سيف» من فراشه مترنحا، قفز فوق فرسه الأشهب، وأطلق صرخته التي لم تكن بنفس قوتها:

- دونها أو نموت.

أسرع «جاسر» ناحية «سيف» ليمنعه فلم يستطع، هكذا فعل «وهدان» ولم يستطع، السرعة التي انطلق بها «سيف» وسط صفوف الغرباء كانت أقوى من أن يلحق به أحد أو يمنعه أحد، حين أصر «وهدان» و«جاسر» على اللحاق به أصيبا ببعض سهام الغرباء في

أرجلهما، فتوقفا وتراجعا، وتركا «سيف» يكمل اختراقه حتى أصبح في قلب صفوف الغرباء، يطيح برؤوسهم يمينا ويسارا حتى زاد ترنحه، وبات واضحا للجميع..

رأى الشيخ الكبير واقفا، يستقبله قبل أن يقع على الأرض.

انتهت المعركة وقتل «سيف» مع المئات من أبطال البلد.

انتهت المعركة وقد أحكم الغرباء قبضتهم على المدخل الصحراوي، ولم يبقَ للبلد سوى منفذ البحر والسفينة.

11

لم تستطع ابنتي «ملك» أن تبقى بعيدا عني، أسلمت نفسها للقطار الذي أوصلها إلى محطة الرمل بالإسكندرية، حيث اتسعت ذراعاي لاستقبال رائحة قميصها من بعيد عله يخفف عني زيغ البصر وغبشة البصيرة.

حفنة من السنين تفصلني عن آخر ارتياد لمحطة قطار في مصر، عاد إليّ طعم بعض المرارات المتصلة بشقاء سنين التكوين والنشأة والكفاح، حين كان يغرقني في عواصف التراب والضجيج.

رددت كثيرا:

- القطار ركوبة الغلابة.

الآن ذلك القطار بالنسبة إلى «ملك» ابنتي ليس ركوبة للغلابة، بل هو محض تجربة فلكلورية يوصلها بأمان إليّ وفقط.

لم يطل انتظاري كثيرا، حين وصلت دثرتها في أعماقي وقفزت بها قفزا وسط الزحام إلى سيارتي، حدقت فيّ وكأنها تراني لأول مرة:

- الكاجوال جميل، والجينز يجنن عليك.

تذكرت أنها لم ترني بهذه الملابس كثيرا، دائما كانت تراني ببدلتي الأسمنتية الغارقة في أناقتها، داعبت لحيتي التي اقتربت من الاكتمال،

ابنتي أخذت مني الكثير، تكره الاصطناع والتكلف لكنها أخذت مني أيضا لعبة المواءمات الغبية، التظاهر بالانصهار مع الناس المعلبين في صناديق الأرستقراطية وكأنها منهم، في نفس الوقت تحتفظ برغباتها في الجموح والتمرد.

أبقيتها في السيارة، صعدت إلى الدكتور «الهادي» ليتوكأ عليَّ، ثم انطلقنا إلى أفخم مطعم للسمك كان يتربع على الكورنيش ويحملق في البحر.

فرح كثيرا حين رأى ابنتي، أزاح حزنه على صديقه ولو مؤقتا وناقشها في أمنياتها، أحسست أنه يفتش في خصالها عما تحمله مني، كطبيب يجري فحصا دقيقا لخلايا الدم.

أخرجتني من ذلك التأمل يد تلمس كتفي، ثم تصافحني.

زياد الحسين. رجل أعمال سوري ما زال يتذكر مساعدتي له لعمل فيزة تسمح له بالدخول إلى مصر.

قال لي إنه استقر هنا في مصر، بل نقل جميع أعماله وتجارته ما بين القاهرة والإسكندرية، أعطاني بطاقته التعريفية، تذكرت وقتها أنني ما عدت أحمل أي بطاقات تعريفية معي، أعطيته رقم هاتفي وغادر.

في طريقنا إلى بيت الدكتور «الهادي» أعطتني ابنتي هاتفها:

ماما تريد محادثتك.

كان صوتها باردا، جافا، متعاليا، تجاهلت تعليماتها بخصوص «ملك». طلبت مني دفع المتأخرات الخاصة بشقة باريس، هذه الشقة

التي اشتريتها عبر أحد البنوك الشهيرة مقابل أن أدفع مبلغا كل شهر ماليورو، وقتها تذكرت أنني لم أعد أملك مالا بعد أن دفعت جزءا كبير من السيولة التي معي في بلدتي.

- لم تعد معي أموال. دفعت ما كان معي لأستعيد أرض أبي.

لم أكن أتوقع انفجارا كهذا، وأنا الذي باتت كل الأشياء معي لها نفس الأهمية.

أغلقت الهاتف في وجهها، سلمته لابنتي وتدثرت بسواد الأسفلت، وصُفرة التاكسي في شوارع الإسكندرية.

في الطريق كان الدكتور «الهادي» ينفخ غضبه في وجه المحامي الذي وكلناه للدفاع عن الدكتور «البيومي»:

- كيف لا تعرفون له طريقا؟ هل اختفى؟ هل مات؟

كنت مقسما بين فجاجة ما تبقى فيَّ من حديث زوجتي، وبين فجاعة ما آلت إليه أمور قضية الدكتور «البيومي» .

حين وصلت، دخلت إلى غرفة المكتب، أغمضت عيني ورفضت أن أستسلم لتلك الخيالات المزعجة التي بدأت تتراقص أمامي.

ثمة إحساس أن زوجتي باتت امرأة أخرى غير تلك التي كانت.

فتحت بقية أوراق الحكاية، ورحت أقص بعضا منها على سمع ابنتي، التي تسللت إلى حضني واستكانت كقطة خائفة.

***

الورقة العاشرة

عـاش البلد حصارا مطبقا، سـيطر الغرباء على البسـاتين والحقول وما عاد للناس سـوى ما يجود به البحر، والبحر مع البلد الكبير معطاء منذ أن أحياه على قطعة من لحمه.

لم يسـتطع «جاسر» أن يرمم ثقوب الثوب، كلما عالج قضية تنفتح مئـات غيرهـا، تغيرت النـاس، ازداد ضجرهم، كثرت جرائم السـطو، تشـتتت قواته ما بين حراسـة المداخل للتصدي لهجـوم الغرباء، وبين الدوريات السيارة التي تجوب الشوارع لنشر الأمن.

فـي كل مرة ترتحل السـفينة لتؤدي مهامها الأمنية التي أنشـئت من أجلها يضج الميناء بالراغبين في الهجرة والنزوح، وتحول البلد الكبير إلى بلد طارد لأهله.

كان «جاسـر» مفتتا بيـن جرحين نافذين، مقتل الشـيخ الكبير على أيدي الغرباء، ومقتل أخيه «سـيف» علـى يد الغدر، وضياع ما بقي من أخيه الأكبر «هادي» على مقصلة الخيانة ولغدر.

لم ينسَ «جاسـر» حين شكر الشـيخ «عدنان» على مبادرته بإرسال طبيب لعلاج «سيف» فرد عليه بدهشة:

أنا لم أرسل أي طبيب من طرفي لعلاج سيف.

وقتهـا تأكد «جاسـر» والجميـع من صدق صرخـة «جميلة»، وهي تقسـم إن ذلك الطبيب المندس هو الذي قتل «سـيف»، فمجرد إصابه

في ساقه من الأسفل لا يمكن أن تؤدي إلى موته، وهو الذي امتلأ جسده بمئات الطعنات الأكثر خطورة ولم تؤثر في عزيمته.

كانت «جميلة» في كل ليلة تقص على الجميع حكاية الطبيب المندس، تسرد أدق تفاصيل ملامحه، ترسمها على أوراق، تصرخ في «جاسر» وفي أبيها الشيخ «رياض» وأخيها «رماح».

تصرخ في «وهدان» وفي حراسها:

- ابحثوا عن القاتل.. سيف قُتل في بيته قبل أن يُقتل في أرض المعركة، «سيف» حارب الغرباء وهو ميت، هجومه الشجاع على الغرباء لم يكن سوى حلاوة روح، وبقايا عزيمة..

«جميلة» تتذكر جيدا لحظة دخول الطبيب القاتل متدثرا بمكره، قدم نفسه للحراس وللأطباء الملتفين حول «سيف» بأنه طبيب الشيخ «عدنان» الشخصي، جلس بجوار «سيف» حين غالبه التعب، أخرج زجاجات مكتوب عليها بخط واضح أسماء أدوية مسكنات، وضع بعضا منها على الجرح وانزوى بجوار بقية الأطباء لا يتحدث ولا يتفاعل مع أحد، لبس قناعا من الحزن والتأثر.

الجو وقتها كان مقبضا، كئيبا، الكل مبهوت ومشغول وحزين على ما يجري، الأحداث متتالية، حين انتشر خبر هجوم الغرباء، اختفى ذلك الطبيب، تبخر وذاب، بعدها تغير لون «سيف»، مال إلى سواد غريب، أغرقه عرق كأنه خرج للتو من البحر، كان يئن، ويجز على أسنانه، ممسكا أسفل بطنه، لو كان الألم من جرح الساق لأمسك ساقه، لكن أسفل بطنه كان منبت الوجع.

قال أحد الأطباء:

- ربما السيف الذي طعن به مسموما..

كلهـا تكهنات، لكن قلب «جميلة» يبوح بما يشـعر به، وهو القلب الذي ما كذب يوما ما رأى.

حيـن نظر «جاسـر» إلـى بطن «جميلـة» المنتفخ، إلـى تلك الرحم الحبلى بسـلالة «سـيف»، تمنـى أن يكون ما فـي بطنها صبيا ويسميه «سـيف» على اسـم أبيـه، ويرسـله إلـى الجزيـرة المعزولـة، يعطيه ا «خلـدون» ليشـرف علـى تربيته كما أشـرف على تنشـئة ذلـك الجيل التعيس، الذي أثبتت الأيام أنه جيل من الفارغين.

حـاول «جاسـر» مـرارا أن يخـرج «خلدون» مـن عزلتـه، يقنعه أن الانكبـاب علـى التدوين فـي زمـن الانحطاط الكبيـر يزيـد الفجيعة، يخلدها:

- دعها يا خلدون تذوب بين ثنايا النسيان.. لا تمسك بها بين دفتي كتـاب. لا تبقها للأجيـال القادمة لتلعنا، وتبول علينا! دعهم ينسـجون حكاية لسـقوطنا تليق بخيالهم هم، فمهما سـقط خيالهم لن يصل إلى سقوطنا المفجع، إلى انحطاطنا الكبير.

«خلـدون» الذي يكبرهـم جميعا مريض بحبه لذلـك البلد الكبير، مريـض بدمه المعبـأ بانتماء وانخطاف إلى طينه وبحـره، إلى أرصفته، إلى سفينته، إلى ذلك الحلم الذي يتساوى مع سنين عمره.

منذ وطئت قدما «خلدون» شاطئ البلد وهو يتابع دأب الشيخ الكبير.. يبني، يؤسس، يحلم، يرسم على الأوراق ما أصبح بلدا، الميناء بذراعيه العاشقتين للبحر، الميادين والنواصي، الحديقة الكبيرة، مداخل البساتين، ممرات الجبلين، التمثال الكبير الذي نجسد في أذرع مفتولة العضلات تلتف حول بعضها كجديلة طفلة صباح ذهابها إلى المدرسة، إنها أذرع جيل المؤسسين، الشيخ الكبير، و«رياض»، و«داود»، و«صامد».

إنها الروح العظيمة التي تثور في الصدور، فتخرج بلدا كبيرا.

أي إرادة تلك؟

كيف ستجيء مرة أخرى، من أين تأتي؟

لمن يعطيها الله من عباده؟

غادر «جاسر» مع خيبته، تاركا «خلدون» يعبئ مرارة الأيام في دفاتره، يبعثر على الأوراق ألم الانحطاط والسقوط.

يعود في اتجاه الميناء، موجات النازحين تتكاثف، الحنق والضيق مرسوم على الوجوه، حين اقترب بموكبه، علت الصيحات وارتفع السباب:

- ضيعت البلد يا جاسر.. ماذا سيفعل كرسي لحاكم أضاع وطنه؟

«جاسر» يعرف أن رجال «راغب» ومرتزقة «هادي» تجوب الطرقات، تتسرب إلى الحشود الغاضبة، تنشر سمومها، تبعثر حنقها،

وترمي هتافا لا يلبث أن يتحول إلى أغنية حين يلتف الناس على موائد الضيق في المساء.

لوح بكلتا يديه إلى الشيخ «رياض» ومعه «رماح» من أعلى السفينة، وهم يلملمون الهلب استعدادا للانطلاق، حيا الرجال، واستدار قاطعا الطريق الرئيسـي، متجها إلى «وهـدان» ورجاله الصامدين في مواجهة الغرباء، ناحية المدخل الصحراوي.

لم ينتبه «وهدان» لوصول «جاسر» بموكبه، شاردا كان، معلقا بصره على أعلى قمة الجبل الذي حمل اسـم أبيه، الجبل الذي شـهد وعاش طقوس الأب، وفتوته، هذا الجبل راح، ضاع مع كثير من الأشياء التي ضاعت، تلاشت، جبل الشيخ «صامد» في قبضة الغرباء وأكثر من ثلث البلد في قبضتهم، والشيخ «صامد» ومعه الشيخ الكبير والشيخ «داود» و«سيف» ضاعوا، ابتلعتهم دوامة الموت، طحنتهم أيادي الغدر.

أي جيـل ذلك الذي يملـك من الحياء فتح عينيه أمـام أهله قبل أن يفتحهـا أمام التاريـخ، إنه جيـل الفارغين الذي أضاع، كمـا كان هناك جيل أوجد، أسس وخلق..

اقتـرب منه «جاسـر» بعد أن ترجـل، ووقف بعيدا يتأمـل الهيئة التي أصبح عليها «وهدان»، الفرق بينه الآن وبين ما كان عليه سابقا كالفرق بين أسـد حـر يتبختر فـي غابته وبين الأسـد حين يوضع فـي القفص، «وهدان» بدا مهدودا، منكسرا، وكأنه كبر ألف عام وشاخ.

لفتت نظر «جاسـر» تلك الورقة الملفوفة فـي يد «وهدان»، يقبض عليها كأنه يريد خنقها أو قتلها، لم يستفق إلا بعد أن وضع «جاسر» يده

على كتفه، قفز من مكانه كمن لدغته أفعى، هدأه «جاسر» ثم جلس بجواره، نظر «وهدان» إليه بأسى شديد:

- لن نستطيع الصمود بهذه الحالة.

رد «جاسر» بسرعة:

- ولن نستطيع الاستسلام.

رفع «وهدان» الورقة الملفوفة إلى مستوى وجه «جاسر»:

- اقرأ، الغرباء أرسلوا لنا رسالة يطلبون توقيع اتفاق معهم.

جذب «جاسر» تلك الرسالة، راح يلتهمها بعينيه، حتى انتهى منها، تغيرت جميع ملامحه، اكتسى وجهه بالسواد، رماها أرضا، داس عليها بقدميه، وقف، سار بهدوء بعيدا عن «وهدان» كأنه أراد أن يعيد أو يستوعب ما قرأه، أراد أن يجد فرصة للتأوه بعيدا عن عيون رعيته:

- كيف نقبل بتلك الشروط؟ نسمح لهم بالحياة بيننا، بالتجارة والصناعة؟ كيف نقبل بوقف السفينة؟ كيف لنا أن نقبل بهم كشركاء في بلدنا؟

سار «وهدان» ناحيته:

- أعرف أنها شروط مستحيلة، وأعرف أيضا أن صمودنا في وجههم مستحيل ولكن ما الحل؟

أطلق «جاسر» صرخة أبيه:

- دونها أو نموت.

نقاوم حتى آخر جندي شريف، ومن يموت يسلم الراية لمن يجيء بعده. نموت مرة واحدة بسيوفهم وبشرف خير من أن نموت ألف مرة ونحن نراهم يحتلوننا، نراهم يدنسون بأقدامهم النجسة بلادنا.

قبض «وهدان» على كتف «جاسر»، ورددا معا تلك الصرخة الأثيرة:

- دونها أو نموت.

كانا يرددانها بنغمة تميل إلى النحيب، يرددانها وكأنهما يعلنان موتهما.

سار «وهدان» بجوار «جاسر»، يتفقدان الرجال والمجموعات المقاتلة، الكل مرهق، محبط، حزين..

اقترب «وهدان» من «جاسر»، ذكره بالاتفاقية المشتركة التي وقعها الشيخ الكبير مع مشايخ وقادة البلاد المجاورة.

اندهش واستهجن موقف البلاد المجاورة التي لم تلتزم بأي شيء، ولا حتى بالدفاع معهم ومقاتلة الغرباء رغم أنهم يشتكون ويحتجون إن تأخرت السفينة يوما عن دوريتها لتأمين البحر.

تنهد «جاسر»، وراح يذكر «وهدان» بموقف كل بلد من تلك البلدان، الشيخ «عدنان» منذ أن تزوج «هادي» ابنته أصبح مؤيدا تماما لموقف «هادي»، وبالتالي مؤيدا لشريكه «راغب»، واستخدم تأثيره القوي على بقية شيوخ البلاد المجاورة ليجعلهم يتخذون نفس الموقف، بالإضافة إلى أن «راغب» و«هادي» دخلا في شراكة البزنس

مع جميع هذه البلاد، والجميع يمضغون الحكاية التي روجها «راغب» و«هادي» بأن «جاسر» و«سيف» سرقا السلطة من أخيهما «هادي».

اقترح «وهدان» أن يتوقفوا هم أيضا عن تأمين تلك البلاد عبر السفينة، وإن اشتكى الجيران، يتم تذكيرهم بالاتفاقية القديمة، التأمين البري مقابل التأمين البحري.

رفض «جاسر» مبررا ذلك بأن هذا الموقف سيزيد الأعداء، وسيفتح كثيرا من الجبهات التي لا قوة لهم بها، وربما يكون هذا الموقف ذريعة لتدخلهم في شئون البلد الكبير، وهذا كله في صالح «راغب» و«هادي».

قطع حديثهما صياح أحد الجنود المسئول عن تأمين الميناء، وهو يشق المدى بحصانه مندفعا كطلقة باتجاههما:

- راغب وهادي وصلا إلى الميناء وخلفهما حشود كبيرة تهتف باسميهما، وصلا من البحر في سرب من القوارب.

نظر «جاسر» إلى «وهدان»:

- كيف؟ ألم تضعهما في الجزيرة المعزولة؟ ألم تعتقلهما؟ أليست عليهما حراسة؟

اندهش «وهدان»:

- فعلت ما تقول وأكثر، وبيدي.. حتى لو كان الغرباء يعرفون الجزيرة المعزولة فلن يصلوا إليهما، أخفيتهما في مكان سري لا تعرفه الشياطين.

- كيف وصل إليهما الغرباء إذن؟

انطلق «جاسر» مع رجاله ومن خلفه «وهدان» إلى الميناء الذي ضج عن آخره بالحشود، بعضهـا من أهل البلد وأكثرها مـن الغرباء، الكل يهتف باسمي «هادي» و«راغب» بعد أن رفعوهما على الأعناق.

وقـف «راغب» في مكان مرتفع وبجواره «هـادي» وراحا يخطبان في الناس:

- يـا أهـل بلدنا الطيبين، هذا ما فعله فينا سـيف وجاسـر.. كل هذا من أجل كرسـي الحكم.. عزلا أخاهما، بل حاولا اغتياله مرارا.. وأنا أيضـا، لا لشـيء إلا لأننـي رفضـت أن أسـمع كلامهمـا، وأنصاع إلى تلـك الجريمة البشـعة ضد الشـيخ هادي، حـاولا قتلي أيضـا، وهدما بيتـي، وخطفا أبي وأخفياه بعيدا عني، وخطفا أختي زهرة حين اقتحما بيتي. هل يسـتحق الشـيخ داود ما فعله جاسـر وسـيف؟ الشـيخ داود الـذي بنى البلـد مثله مثل الشـيخ الكبيـر. أيها الناس، سـأنحي حزني وانتقامي الشـخصي بعيدا من أجل هذا البلد الطيب، من أجلكم أنتم، علينـا أن نتحـد جميعا، وننسـى خلافاتنا، أن نقف خلـف الحق، نقف خلف الشيخ هادي، ليكون هو شيخ بلدنا، وحاكمه وولي أمره، لنقف جميعا لنعيد الحق لأهله، ونكمل مسـيرة آبائنا، وأهداف الشيخ الكبير المؤسس الأول، الذي تحزن عظامه الآن، بسبب ما حدث لابنه الأكبر الشيخ هادي.

قبـل أن ينهـي كلامـه، كان «جاسـر» ورجالـه قد وصلـوا، اخترق صفـوف الناس، مندفعـا ناحية «راغب» الواقف علـى مرتفع وبجواره

«هـادي»، فجأة خرجت من بين صفوف النـاس مجاميع من المقاتلين المدججين بالسلاح بغرض حماية «هادي» و«راغب».

صرخ «هادي»:

- جاسر.. يكفينا الاقتتال، أدعوك أمام الناس أن تبايعني كولي أمر لكـم، أخاطب فيك صوت العقل، أستحلفك بعظام أبيك.. ضع يدك في يدي، لنحاول إصلاح ما أفسده القتال.

صرخ «جاسر»:

- أنت مكانك في السـجن ومصيرك الحكم بالإعدام. أنت خائن، بل قاتل لأبيك، وأخيك. سيف مات مسـموما بنفس السـم الذي قُتل به الشـيخ صامد.. اليد التي قتلت الشـيخ صامد هي نفسـها التي قتلت أخاك، وهي نفسها التي قتلت أباك.

أدار رأسه بين المحتشدين، ثم أطلق صرخته الأثيرة:

- دونها أو نموت.

أطلقها «جاسر» مدوية، ورددها خلفه «وهدان».

كان الميناء يستقبل وفـودا من جميـع البلاد المجـاورة، اصطفوا وتقدم الشيخ «عدنان»:

- مـا لكم يا أبناء الشـيخ الكبير؟! ماذا جـرى لكم؟ أأصابتكم لعنة الطمع؟! يا شـيخ جاسـر.. ويا جميـع أهل البلد الطيـب، نعلن جميعا كشيوخ ووجهاء البـلاد المجاورة لكـم، أننا نبايع هادي شـيخا ووليا

لأمـر البلـد الكبير، لا لأننا نريد أن ننصف أخـا على أخيه، بل لأن هذا هو العدل، الشيخ هادي هو الأكبر، وهو الأحق.

صرخ «جاسر»:

- كلامك مرفوض يا شـيخ عدنان! أنت تتحدث باعتبارك صهره، فأنت جد أبنائه..

أثنـاء اشـتعال الموقـف، ظهر الشـيخ «ريـاض» من بعيـد، متقدما بغضب، دافعا تلك الحشود بعيدا وهو يهتف:

- أيهـا النـاس.. إن كان هناك من يحق لـه الحديث فهو أنا، أنا آخر الجيل الذي بنى وعمَّر وأسـس.. وأؤكد للجميع أن «جاسـر» وسيف أبريـاء مـن اختطاف الشـيخ داود، بـل أؤكد لكم جميعـا أن راغب هو الذي أخفى أباه، وأنا أمامكم أطالبه بإطلاق سراح الشيخ داود.

بعد لحظة تناغمت مع الصمت الذي حلَّ على الجميع، أضاف:

- أقول لك يا شـيخ عدنان، ولجميع الشيوخ جيراننا، كان وما زال موقفكـم مخزيا، نقضتم عهد الحمايـة البرية، رغم أننا في ظل ما نحن فيـه من ابتلاء واقتتـال ما زلنا نفي بالحماية البحريـة، كل هذا من أجل إرضاء الشـيخ عدنـان، الذي وضع سـيفه في طين بلدتنا وراح يقسـم حسب أهوائه، ونحن نوافق أنا وجاسر ووهدان وجميع الوطنيين على ذلك، فلتكن القسمة أمام الجميع، ليأخذ هادي وراغب البر، وسنأخذ نحن البحر والسفينة!

صرخ «جاسر» معترضا، رافعا سيفه، مثل ثور هائج جريح:

- دونها أو نموت! وصية أبي، أيها الناس، راغب وهادي خونة.. وضعا أيديهما في أيدي الغرباء، الشيخ الكبير قبل وفاته اعتقلهما في الجزيرة المعزولة، والشيخ داود أراد أن يغسل عاره بيده ويقتل راغب..

- أيها الناس..

صرخ «راغب» ومعه «هادي» وعلت الضجة والجلبة وهتاف الناس:

- كاذب، كاذب..

تقدم الشيخ «رياض» ناحية «جاسر» و«وهدان»، يهدئهما:

- لنترك البر لهم، فهو ما عاد لنا وما عاد لهم، ولنكتفي بسفينتنا..

استدار الشيخ «رياض» إلى الشيخ «عدنان» وهو يقول:

- سنوقع اتفاقا الليلة، وسيوقع عليه جميع الشيوخ والحكام، أنت وهادي وراغب، وأنا وجاسر.. البر لكم، والبحر والسفينة لنا!

***

في ذلك المساء الحزين انحنى الجميع ليوقعوا على تلك الوثيقة المذيلة بحزمة من الأسماء، وقف «جاسر» برهة يتأمل تلك الوجوه المحملقة فيه، المنتظرة انحناءه، رآها تتشكل بجميع هيئات وجوه الحيوانات، الكلاب تارة، الثعالب تارة، والضباع.. وهكذا.

بعد احتقاره لتلك الحيوانات انحنى قليلا ليوقع، فمنعه طول ساقيه من ذلك فركع على ركبتيه ثم انحنى على تلك الوثيقة وخط اسمه،

وحين انتقل من كلمة «جاسر» إلى اسم الشيخ الكبير اهتز القلم، ترنح، أو رفض..

ولما شد القلم من عنقه أكل الحرف الأخير..

انتفض واقفا وغادر، وتبعه الشيخ «رياض» وبعده «وهدان»، و«رماح»، جميع فريق السفينة كاملا وكبار القادة.

في ذلك المساء الأسود هبت عاصفة رملية لم يشهد البلد لها مثيلا من قبل، حملت تراب الصحراء لتضعه على رؤوس الجميع، وتنثره في العيون فبدت كل العيون باكية، كل شيء كان مغبرا، رماديا، متربا.

امتدت تلك العاصفة من العمق البري حاملة غضب الصحراء ناحية البحر، الذي راح يزمجر ويطلق خيوله ناحية البلدة، موجات كالجبال تتناطح في البعيد لتصل إلى ذراعي الميناء وتتجاوزهما إلى منتهى الشاطئ، فتفيض، وتزداد في فيضها لتهجم على البيوت.

جلس الشيخ «رياض» على سطح السفينة مرتجفا يتأمل سر الغضب، يعرف أن البحر عادل لا يحب الجور ولا الخسة..

قرأ في صوت البحر تحذيرات وعتابا، قرأ فيه إنذاره باستعادة يابسته التي تنازل عنها بمحض إرادته لذلك البلد الكبير، إنذاره بأنه قد يضطر لفك لجام خيول الماء فتلتهم اليابسة ومن عليها.

أما «جاسر» فألمه أكبر من كل قراءة أو تأويل، ألم مثل سواد الليل، مثل حلكة الأعماق حين تضيق، سواد يحول دون الإبصار أو فهم البصيرة.

فقط كان مشغولا بحزنه، بوجعه، بجروحه المتعددة..

لم يرَ كما رأى الشيخ «رياض»، فإحساسه الحزين يصور له بلده مثل حبيبة تخلى عنها عاشقها بدافع الجبن والأنانية والخروج بأقل الخسائر.

وروح «جاسر» لا تعرف هذا المنطق، هذا المنطق يفهمه التاجر، والدلال.

لأول مرة يدرك «جاسر» قيمة أن يموت الفارس في أرض المعركة، أن يموت حاملا سيفه، دفاعا عما يحب.

دخل إلى قصره، كانت «جميلة» تتألم، تصرخ، يأتيها ألم المخاض، فلا تجد نخلة تهزها لتساقط رطبها، سمع صراخها، زادت الشجون أكثر، وهو يراها تنجب طفلها في غيبة أبيه.

جلس قليلا بجوار «رماح» الذي أخذ هيئة عجوز بعد أن التفت ساقاه الطويلتان على بعضهما وانغرستا في صدره فبدا متكورا كتمثال فرعوني، أو كجذع شجرة ميتة.

حدق في بهو القصر الذي بناه الشيخ الكبير ليكون قصر الحكم فمات الشيخ ثم سكنه «سيف» خلفا للأب، فمات أيضا، ثم سكنه هو وها هي الأيام تحضر إجراءات طرده بعيدا بعد توقيع اتفاقية التقسيم.

أخبر جميع الخدم والحراس بأن يبدأوا في لملمة أشيائهم استعدادا للمغادرة فور استعادة «جميلة» لعافيتها بعد الولادة..

هـو الآن يقـارن بين الدخـول الحزين إلـى القصر بعـد موت أخيه «سـيف»، وبين الخروج الحزين منه بعد ضياع البلد وانتصار «راغب» و«هادي».

علـت صرخة المولود، شـرخت الصمت، توالـت أصوات الخدم والجواري:

- ولد مثل البدر.

أطلقت الوصيفات من الشرفة زغاريدهن:

- الأميرة جميلة تقول إن اسمه سيف.

قفز «جاسر» فرحا، أطلق صرخة مستغربة:

- هو سيف إذن. سيف لم يمت.. عاد من جديد!

***

12

حملت في يدي تلك الشهادة الممهورة بختم طبيب صديق، تقول في أولها، التمسوا العذر لحاملها فقد أنهكه البحث عما تبقى من ذاته المفتتة.

تقول صراحة إن حاملها يحتاج عمرا آخر فوق عمره عله يستريح، فالذي مضى كان تجربة وطالت نتيجتها وأوغل في الاختبار الكئيب، ولما عُلقت الأسماء على لوحة الإعلان اكتشف أنه راسب في كل شيء سوى من خبرة الجلوس على دكة الامتحان، وتسارع ضربات القلب على علامات الاستفهام وغموض السؤال.

ولأن الأطباء يقدرون احتياج دولاب العمل للدوران على أعمار المغرر بهم، والدهس عليهم بأحذية وهم الترقي في المناصب الزائلة، نتنازل عن كامل العمر الجديد، ونكتفي بشهر عطلة للراحة علَّ المريض يلملم بعض فتات روحه الشاردة.

لم أعبأ كثيرا بتلك النظرات المستهجنة لهيئتي المتحررة، وملابسي التي غرقت في بساطتها، قميص انطلق يرفرف فوق البنطال الجينز، حذاء خفيف بلا جورب.

أوما مسئول مكتب الوزير بالتعاطف وهو يتفحصني بعينيه:

- سأعرض الأمر على الوزير وأخبرك.

غـادرت على تلـك الرنة المفرحة التي تأتـي محملة ببعض الهوى الملفوف في شوق من فاطمتي الحزينة:

- ممكن تيجي تاخدني؟! بلغت أهلي أنه عندي اختبار آخر. تعبت من طقوس الحزن.

انفلت مسـرعا إليهـا، مؤجلا لقاءً مع ابنتي، ولقـاءً آخر مع صهري المتحجر رغم إصراره، نافضا عني رذاذ الكبرياء ورائحة فمه المغمس بالتبغ والشيخوخة.

تلـك البلـدة الصغيـرة السـاكنة هناك فـي منافـي المـدن والأنظمة الجاحـدة، تتكـور كقلب ثم تضخ فـي بقية الأرض الدمـاء، ها أنا الآن ألـج إليها حاملا معي مرضي بالقديـم، وحنيني الموجع إلى الذي كنته يوما.

حامـلا معي قسـوة تلك الحكايـة الآتية زحفا على جثث السـنين، تبحث عن شاطئ للنجاة، أو حقنة تعيد إليها روحها الضائعة.

تأتيني تفاصيل عالم «راغب» والشـيخ «هادي» لتوقع على إدراكي بأن المكر والادعاء اختراع قديم، يتماهى مع قِدَم الدنيا والخيانة.

يسـتقبلني ابن أخـي الملفوف في فرحه المتباهـي بعنقه الذي طال وتمدد للسماء، وهو الذي استرجع انهزام جده القديم، وركب الأرض التي اغتصبت على «رماح» الديون والحاجة.

«أعادها الذي ضاعت بسببه»، جملة ترددها عيناه، ويأبى اللسان أن يبوح بها حرصا عليَّ.

تقف فاطمتي ملفوفة في ردائها الأسود كمومياء قديمة تطل من جديد على الوجود.

العينان ذابلتان وبهما ألق مبهر وغريب، والثوب الطويل المترهل في السواد يسمح لانحناءات الجسد ببعض الدلال الخجول.

جلسنا في صحن دار أبيها، والنسوة اللاتي اعتدن الفضول، يتلصصن على النظرات وحركة المآقي بين الجفون..

استعنت بما بقي فيَّ مما كنته في القديم، بعض الدبلوماسية المقيتة، وبقايا أسمنت الجسد، ونفاق المشاعر والتعابير.

سألني أخوها عن نتيجة الاختبارات والقبول في الخارجية. أفضت في التطمين والتبشير بما يتمنونه، وختمت ببعض الأقوال المتعلقة بالرزق والنصيب.

أشرت في متن الحوار لوجود زوجتي وابنتي معي، حتى لا يأتي في خاطر المتصيدين لموائد النميمة خاطر أو فكرة تسيء إليَّ أو إليها.

عاد بي الصباح إلى القاهرة وبجواري فاطمتي، وأنا أترقب لحظة الاختلاء بها في بيتي لأعيد فرصة مواءمة القديم مع الجديد، فاطمتي القديمة وفاطمتي الجديدة، علني أصل إلى إجابة تريح ذلك القلب الساعي إلى فض اشتباك بين الاثنتين.

لـم يعطني صوت صهري فرصـة للبهجة والاحتفال بمائدة الفرح، فقد أصر على أن أذهب إليه في بيته الغارق في الأناقة والبرودة.

أدخلـت «فاطمـة» إلـى شـقتي، وانطلقت إليـه ليواجهني بتعسه الغريب:

– فريدة تريد الطلاق.

لـم أستطع أن أميز بيـن الموقفيـن أيهمـا الجديد وأيهمـا القديم، هاجمنـي شـعور بأنني طلقتهـا منذ وقت طويـل، وكأنني أرى مشهد الإعادة.

لم أندهـش، فقط ارتديت قميص صمتي، عله ينجيني من كيدهن، أكمل حصة رذالته:

– هي سـتغادر إلى باريس لتبحث أمر شـقتها هناك وسـتأخذ ملك معها، ونتمنى أن ننهي الأمر وهي هناك دون أي ضوضاء تضر بشـرف العائلة العريقة.

حين طلبت مهلة فتح صنبور وقاحته:

– أنـا تأكـدت من أنـه ليس لك مسـتقبل في الخارجيـة.. ونصيحة شوفلك شغلانة تانية.

بعد حضن طويل وخصب مع ابنتي غادرت مأخوذا بتلك المنتظرة هناك في شـقتي، رغم دوران الرأس عكسـا في اتجاه الحياة التي كانت تشهد زوال قشرتها الأخيرة بيني وبين التي كانت زوجتي وأم ابنتي.

حين دخلت البيت وجدتني مدفوعا نحو تلك الغرفة التي تحتويها، منلصصا اقتربت ناحية الباب، أزحته قليلا، كانت غارقة في نوم عميق، وفوقها هـالات من التعب بعـد أيام عـزاء والدها، وبعض من شـعاع حزين..

غـادرت هادئـا صـوب غرفتي، مسـتلقيا قليـلا، وفاتحـا بعضا من أوراق تلك الحكاية.

***

الورقة الحادية عشرة

في زفة مجلجلة سـار موكب الشـيخ «هادي» بعد أن تمت مبايعته كحاكـم للبلـد الكبير، وعلـى أطراف الموكـب ارتفع الغنـاء والهتاف وتبارى الشعراء في ترديد القصائد والمواويل.

عكـس الموكب كثيرا من الـدلالات والتناقضـات، ظهر كموكب الفاتحين والمنتصرين وصاحب الموكب لم يحمل يوما سـيفا ولم تثر أقدام فرسه الغبار في أرض المعارك.

غيـر بعيـد اتجـه «راغب» فـي موكـب لا يقل عـن موكب الشيخ «هـادي» بل يزيد متجها إلى قصره الذي شـهد هزيمته وإذلاله على يد «سيف» و«جاسر».

ظهـر القصر من بعيد محملا بكل انتصارات «جاسـر» وبكل خيانة «راغب»..

الضجـة المتعاليـة مـن موكـب «راغـب» تزيـد كثيـرا عـن موكب «هادي».

امتـلأ الموكب براقصات وبنات الغجـر بأزيائهن الملونة، انطلقت أمامه مسيرة حاشدة من العازفين، كل حمل على آلته الموسيقية وتركها تهذي، أما «راغب» نفسه فوقف فوق عربة تجرها أربعة أحصنة كُسيت بألوان الحرير الأحمر، وزُينت بباقات الزهور.

اصطـف أنصاره فـي صفين متقابلين في الممـر المؤدي إلى الباب الكبير، وهو سـار وسطهم، مزهوا، تتساقط عليه الهتافات، حين وصل

إلى الباب، أزال الأقفال، أزاح الشموع الحمراء التي ألصقها «جاسر» و«سيف» بعد معركتهما، صعد إلى الشرفة، خطب في مؤيديه معلنا بداية عصر جديد.

صرخ الناس:

- آن الأوان لنعيش ونحيا..

- آن الأوان للدم أن يتوقف..

هي نفس الجمل والمعاني التي كررها «هادي» وهو يخطب في مؤيديه.

أعلن «هادي» أنه سيحكم من قصره ولن ينتقل إلى قصر الحكم الذي بناه الشيخ الكبير، قال في مكر:

- ليبقى أخي الشيخ جاسر في القصر مع زوجة المرحوم «سيف»، ولنبدأ في التسامح، ليبقوا كما هم.

يحكي «خلدون» في تدويناته الحزينة أن الغربان ظلت تنعق سبع ليالٍ، وأن موائد الطعام لم تنقطع من طرقات البلدة، وعاش من بقي من السكان وقتا من الفرح كانوا فيه كمن أتعبه الشيطان من المس، العيون يملؤها الحزن والارتياب والقلق والأجساد تترنح راقصة أحيانا ومتألمة أحيانا أخرى.

الشوارع المؤدية إلى قصري «هادي» و «راغب» أغلقت من أولها وأقيمت المتاريس للحماية، وانتشر الغرباء يصولون ويجولون في المكان، في نفس الوقت لملم «وهدان» من تبقى من رجاله الذين

ظلوا مرابطين عند المدخل البري للبلدة وجاء بهم إلى الميناء، وقف أمامهم منكسرا حزينا، كانوا متراصين في طوابير منتظمة، يحملون سيوفهم وحرابهم، كالأسود المنهزمة..

اعتلى «وهدان» مكانا مرتفعا وبجواره وقف «جاسر» والشبح «رياض» و«رماح».

صرخ «وهدان»:

- أيها الرجال علّمنا القتال أن التراجع الشجاع جزء من مكيدة الحرب، هذا التراجع يحدث حين تُفرض علينا النهايات، وحين تعلو الريح وتهب العواصف، نحن الآن في مرحلة التراجع الشجاع، المعركة لم تنتهِ بعد، وما نحن فيه مفروض علينا..

قال «جاسر»:

- البر ليس لنا.. وصدقوني، ليس لهم أيضا، والبحر والسفينة لنا. سيبقيان لنا.. أحتاج منكم التدريب المستمر، وإياكم أن تنجروا لأي استفزازات قد تتعرضون لها.

أنهى «جاسر» حديثة فاغرورقت عيناه وهو يطل إلى شوارع البلدة التي تم احتلالها، لم يجد ما يقول، رأى الشيخ الكبير واقفا في البعيد، حزينا، تخيل ماذا يمكن أن يقوله له لو قابله، أيقول ضيعت ما بنيت؟!

لم يجد ما يقول سوى تلك الصرخة: «دونها الموت»، التقطتها الحناجر، أطلقتها فارتج المكان ورددها البحر.

***

لم يمر وقت طويل حتى أقام الشيخ «هادي» حفل التنصيب، جلس على كرسي الحكم وبجواره «راغب» الذي أصبح رئيسا للوزراء، وراح الوزراء يتقدمون واحدا تلو الآخر ليؤدوا القسم، ويصافحوا الحاكم الجديد، وتجلت الصفقة التي عقدت بين «هادي» و«راغب»..

أصبح «راغب» هو المسئول عن تسيير أمور الناس والأمن، تحولت المباني المطلة على البحر إلى مرتع للغرباء بعد أن اشتروا ما استطاعوا، واستولوا على الباقي أو استأجروه، حولوا معظمها إلى مقاهٍ ومطاعم ومراقص، ونقاط للتجارة المحرمة، وانتشر اللصوص والقوادون والراقصات، وتحولت البلدة الكبيرة إلى مكان يأتيه راغبو المتعة وعاشقو السفر والاستجمام بعد أن كان مزارا للعزة والتجارة والصناعة.

***

جلس «جاسر» فوق ظهر السفينة يتأمل بلده وقد ارتمى على بساط تلك البقعة الطاهرة، رأسه عند البحر وقدماه عند الصحراء، سمعه يئن، يصدر نواحا مكتوما.

ظهرت البلدة من بعيد كمهرة عربية جار عليها الزمن فامتطاها الأراذل.

قفزت «زهرة» بكل بهائها إلى مزاجه الحزين، فتورد الخاطر واعتدل الهوى، أحس أنه يريد أن يراها فورا، نادى «وهدان»، وهمس في أذنه:

- استعد، سنذهب لزيارة زهرة.

استغرب «وهدان» من طلبه:

- تريد أن نذهب الآن؟

أجابه «جاسر» بثقة مغلفة برجاء:

- نعم، أرجوك.

أومأ «وهدان» بالموافقة وانصرف يجهز مركبا ليبحروا به صوب الجزيرة المعزولة، التي ما باتت معزولة بعد أن عرف الغرباء مكانها ونجحوا في إخراج «راغب» و«هادي» من سجنهما مرتين، مرة حين سجنهما الشيخ الكبير والشيخ «داود» ومرة أخرى حين سجنهما «سيف» و«جاسر»، لطالما انتابه قلق غريب تجاه «زهرة»، بعد أن خبأها هناك، لكن «وهدان» يؤكد له دائما أن المكان الذي خبأها فيه عصي على أن يكشفه أحد، إنه ذلك المكان الذي أعده الشيخ الكبير منذ أن كانوا أطفالا في مرحلة التأهيل ليكون مهربا لهم إن باغتهم وحش أو هجم عليهم الغرباء، إنه سرداب طويل في نهايته كوخ مجهز بكل الإمكانات والعدة والعتاد.

اتجه «جاسر» ناحية الشيخ «رياض» وابنه «رماح» بعد أن التف حولهما الرجال فشكلوا جميعا دائرة بشرية فوق ظهر السفينة، تتصاعد الأسئلة القلقة من نبرات الحديث، من التشنجات المتنافرة، الكل قلق، الكل يرفض ذلك الوضع الذي آل إليه الحال.

اقترب بهدوء، جلس بجوار الشيخ «رياض» الذي أسهب في الحديث عن دوام الأحوال وعن الصبر الذي لبسه هو والشيخ الكبير

والرواد المؤسسون، يؤكد لهم أن الإيمان بالأفكار يحولها إلى حقائق ماثلة للعيان، تعمد الشيخ «رياض» ذكر بعض النكات والمواقف المضحكة التي خرجت من الشيخ الكبير ومن كان معه.

بادره أحد الرجال بسؤال مباغت:

- ماذا كنتم تفعلون إذا انهزمتم؟

تعجل الشيخ «رياض» في الإجابة:

- لم ننهزم!

فناوله الرجل سؤالا آخر:

- ماذا يفعل الذين يجربون الهزيمة لأول مرة؟

كان السؤال مرا مرارة الحنظل. صمت الشيخ «رياض»، بل انكمش في ذاته، خبأ هامته، كسته صفرة المقبل على الموت، قفز «جاسر» إلى منتصف الجلسة كاسرا زجاج الصمت حتى لا يتحول إلى فولاذ فيسجنهم في غياهب الضعف والذل:

- الذين ينهزمون لأول مرة عليهم ألا يجربوا إحساس الهزيمة مرة أخرى.

نظر إلى «خلدون» المنزوي في ركن غير بعيد عنهم:

- تعالَ يا خلدون، قل لهم، كم انهزمت أمم وعادت فانتصرت؟! كم انكسرت شعوب وعادت فانتصرت! حدثهم عن سِير الشعوب السابقة.

لم يُرد «خلدون» أن يجيب، أومأ برأسه وصمت، لكن أمام إلحاح «جاسر» تحدث:

- صحيح يا جاسر.. هناك شعوب وأمم انكسرت، انهزمت ثم نجحت في النهوض من جديد، لكن في التاريخ سقطات لا يعقبها نهوض! القتال سيف لسيف أسهل بكثير من القتال سيف لخيانة، رمح مقابل غدر، شهامة مقابل خسة، هذه أزمتنا، هذه سقطتنا التي نخاف من أن تكون القاضية والأخيرة!

أحس «جاسر» أن جبال الدنيا ارتخت على أنفاسه، ورغم رحابة سطح السفينة، واتساع المدى على زرقة البحر المتلألئ الحنون، إلا أنه أحس بأن الدنيا تحولت إلى دوامة تبتلع الأرواح وتشفط الهمم، كاد يسقط، يقع مغشيا عليه، لولا دخول «وهدان» ليأخذه إلى المركب الذي تم تجهيزه.

نزل «جاسر» إلى بطن السفينة، إلى ذلك الباب الذي يفصل بينه وبين حجرة الشيخ الكبير وما حوته من كتابات وذكريات.

أكمل إلى المخرج الجانبي ليهرول على سلم ممتد إلى جسد المركب الذي تم تحضيره بالرجال والسلاح.

ركب «جاسر» وترك «وهدان» يتولى مهمة القيادة وإدارة الرجال، ألقى ناظريه في المدى الذي اقترب من الإظلام، وانطلق تاركا السفينة والرجال غارقين في ضيق اللحظة ومراراتها. يأخذه الأمل والرغبة الجارفة في زهرته، يجره حنين الانكسار صوب البلدة التي ركبها

الغرباء وحكمتها الخسة.. في داخله شيء من التفاؤل لا يجد مبررا له سوى ميلاد «سيف» الصغير، هذا الميلاد الذي جاء في لحظة فارقة، هي لحظة الإقرار بالهزيمة وتوقيع اتفاق التنازل عن البلد للفريق الآخر.

قطع «وهدان» هذا الفيض بسؤال انطلق كطلقة:

- ناوي تعمل إيه مع زهرة؟

لم يكن «جاسر» يعرف كيف يجيب، أو من أين يبدأ في عد العقبات الواقفة في حلق الموضوع، من أخيها «راغب» الزفر، ومن أبيها، الشيخ «داود» المختفي.

حيرة لا فكاك منها.

ترك «وهدان» مقود قيادة المركب إلى أحد الرجال، أخذ «جاسر» وصعد به إلى السطح.

صمت «وهدان» قليلا ثم تحدث:

- في عز غرامك هذا لا تنسَ حق سيف الكبير وسيف الصغير..

بادره «جاسر»:

- هل قصرت؟!

- إطلاقا.. أنا لا أقصد التقصير، بل أقصد الأيام القادمة، يجب أن يُربى «سيف» الصغير بمعرفتك، وتحت عينيك، ولن تستطيع تربيته إلا إذا تزوجت جميلة.

جاء كلام «وهدان» كسيل بارد مفاجئ في وقت شديد الحر، كلام جعله يخرج شهقة تحيل عقارب المزاج من الحب إلى شيء آخر.

- كيف؟

أطلقها «جاسر» ليستريح من عناء وجع الاقتراح، صمت «وهدان».

أكمل «جاسر»:

- كيف أتزوج مَن كانت زوجة أخي؟ كيف ألمس لحمه؟ ومن قال إنها ستقبل؟

التقط «وهدان» رذاذ الكلام:

- انظر إلى الأمام، لن تستطيع أن تبقى معها في بيت واحد لتربية سيف كما تريد إلا إذا تزوجتها، لن تستطيع أن تكون كأبيه إلا إذا كنت أبا له وزوجا لأمه، سيف ووالدته حزمة واحدة، إما أن تقبلهما معا أو...

أدار «جاسر» ظهره، فتركه «وهدان» وحيدا وغادر إلى مقود القيادة.

أحس «جاسر» أن كثيرا من الحفر تنبت في طريقه المؤدي إلى «زهرة»، حبيبته.

هل يمكن أن تقبل به زوجا لو عمل بنصيحة «وهدان» وتزوج «جميلة»؟

وهل «جميلة» يمكن أن تقبل بالفكرة أصلا؟

أحس بأنه مقسم بين مسئوليته صوب أخيه وابن أخيه وزوجة أخيه؛ وبين حبه.

***

13

لم أستطع أن أميز تلك اليد التي تلمسني برفق، فقد أخذني «جاسر» إلى حيرته، بين حبيبته «زهرة» ومسئوليته تجاه «جميلة»..

فتحت عيني قليلا بعد أن أسلمت نفسها للنوم، هو ذلك الوجه الأمنية، وجه يغرقك في حيرة التفريق بين القديم والحديث..

لملمت من على صدري بعض أوراق حكايتي التي تأسرني دائما، أراحتهم على طرف السرير كي يناموا.

وجلس ذلك الوجه في مقابلتي:

- شكلك مرهق، أو أصابك شيء حزين.

عليَّ ألا أترك بندول رأسي يطن كثيرا حتى لا يفنى الرأس في الجنون، تركت سؤالها وشخوص حكايتي القديمة الذين خرجوا من ضيق اللفافات إلى بعض البراح المتاح في طرقات الشقة وحجراتها.

رحت أتأمل «فاطمة» الجديدة، البشر حين يفنون يكونون قابلين للبعث والعودة من جديد للحياة كالنهار المقتول على مقصلة الليل.

لكن الأوطان والبلاد حين تفنى وتزول فهل تعود؟

استحضرت صورة أبي النيل فشعرت بالاطمئنان..

ابتسمت وقلت ممازحا «فاطمة»:

- أنت أي من الفاطمتين؟ فاطمة الجديدة أم فاطمة القديمة؟

كرمشت وجهها قليلا كأنها تريد أن تلقي بيانا هاما:

- أنا فاطمة الجديدة، ولن أكون مثل فاطمة القديمة.

لملمت تمددي من على السرير، آخذا وضعا يمكنني من مواجهتها:

- لكن فاطمة القديمة كانت ملاكا من الحب والجمال.. فاطمة القديمة جمعت الحياة في ضحكتها البريئة، وأنوثة العالم في غمزة من طرف عينيها.

- وماتت تعيسة ومحرومة، حتى من أن تنظر إلى عيني مَن أحبته قبل وفاتها.

خرجت تلك الجملة من فم «فاطمة» كرصاصة طائشة، بعثرت شظايا بارودها على روحي المفتتة:

- كيف؟

وقفت «فاطمة»، تركت غرفتي إلى الصالة، ربما أرادت أن تختار مكانا يلائم ما ستقوله، وقفت مترنحا أزيح نتف النوم العالقة بي، جلست في مواجهتها في الصالة التي غرقت أطرافها في ظلام مصطنع:

- كيف؟ قولي لي كل شيء؟

أخرجت تنهيدة ممطوطة:

- أمي كتومة، تخبئ الأحزان في خزائن روحها وتغلق عليها تماما كما كانت تخبئ أشياءها الخاصة، لم تبح بشيء، منذ صغري كنت أسمعها في عمق الليل تسرب بعض نهنهات مرة، وفي الصباح تكتسي عيناها بحمرة وذبول فتبدو لمن يعرفها امرأة أخرى، سألتها كثيرا علها تحكي، وتفرغ بعضا من صديد جرحها المتورم، لكنها رفضت.

لم أستطع أن ألجم السؤال الجامح:

- هل أنا سبب حزنها وعلة بكائها المكتوم؟

أدارت وجهها قليلا ناحية زجاج الشرفة وكأنها تبحث عن بعض زخات الهواء النقي، أو كأنها تستعد لخوض سباق طويل من الجري المستمر.

- نعم، كنت أنت، وأيضا أبي، وربما كل الرجال.. كانت أمي في خطة حياتك مرحلة وطويت دونما أي اعتبار لحب أو لقلب، كانت أمي في حياة أبي أمنية ولما امتلكها صارت متاعا، ولما ألفها ركنها على رف أشيائه القديمة..

أحسست وهي تدلق بوحها أن «فاطمة» القديمة هي التي تدير تلك الجلسة، كأنها عادت لتترافع أمام محكمة لم يجرؤ رجل على عقدها.

آثرت الصمت، أشرت لها بيدي أن تكمل، فمع التدفق والاندماج حتما سينكسر تحفظها، وستبوح بما هو مخفي.

وقفت «فاطمة»، تناولت زجاجة ماء كانت قريبة، أخذت شربه سريعة، ووضعتها بالقرب منها وجلست، متخذة نفس الوضع:

- حين أصيبت أمي بالمرض الخطير كانت تزور أهلك كثيرا لتتصيد أخبارك، حتى أنا سألتني عن المنصب الذي تتولاه، أذكر ذات ليلة حين أخذها أبي إلى القاهرة لتبدأ جلسات علاجها الكيماوي، فرحت، ذهبت إلى ابن أخيك، وطلبت منه رقم هاتفك لكنه رفض بحجة سفرك الدائم، فعادت حزينة.. ومع مرور الوقت، تدهورت حالتها، نقلناها إلى مستشفى الجامعة في المدينة، بدأت تدخل في غيبوبة بين الحين والآخر، أذكر ذات ليلة سبقت موتها بثلاثة أيام، استيقظت من غيبوبتها، وطلبت مني صراحة أن أبحث عن صورة لك في الإنرنت، وأصرت على طلبها، فأخرجت لها بعضا من صورك ورحت أقرب لها ملامحك.

- ماذا قالت؟

- تريد أن تعرف حقا ماذا قالت؟ قالت إنك لست أنت، أنت شخص آخر غير ذلك الذي تقصده.. نظرت إلى عينيك كثيرا وقالت: لماذا الناس حين يصبحون شخصيات مهمة وناجحة يتغيرون؟ ثم راحت تحكي لي قصتها معك، وحبها لك، وتخليك عنها.

عليّ أن أوقف ذلك الفيض، رغم أنني أعرف ما ستقوله عني، لكن لا أدري لماذا حين نسمع حقيقتنا المرة والسيئة من لسان آخر تؤلمنا؟! نشعر أننا انكشفنا.

غـادرت إلى غرفتي، جلسـت على ذلك المقعـد الصغير المتجمد أمام المرآة الكبيرة، ظهر ذلك الوجه المختفي بنضج لحيتي واكتمالها، وحدهمـا العينـان ظهرتا غارقتيـن، زائغتين، تبحثان عـن مكان مرتفع تعلنان من فوقه راية الاستسلام، لا أدري لماذا تذكرت شوق «جاسر» وهـو يحمل لهفتـه ويطير إلى الجزيـرة المعزولة ليروي عطشـه برؤية «زهرة»؟! نفس الإحسـاس، كم تمنيت أن أكـون هو وتكون «فاطمة» حية لم تمت حتى لو كانت في أبعد جزيرة معزولة.

***

الورقة الثانية عشرة

هدأ المركب، اقترب من صفرة الشاطئ الممتد على حافة الجزيرة المعزولة.

وقف «جاسر» يتأمل، يحدق في آثار الأقدام المنتشرة على الشاطئ، فهي تعني له الكثير.

استدار «جاسر» ناحية «وهدان» وقد كساه رعب وذهول:

- أخاف أن يكون الغرباء قد وصلوا إلى زهرة؟

- اطمئن.. الرجال لم يبرحوا المكان، ثم حتى لو دخل الغرباء إلى الجزيرة وفتشوها فلن يصلوا إلى المخبأ الذي تختبئ فيه زهرة.

- في النهاية علينا أن نعرف أن الجزيرة ما عادت آمنة.

انطلقت مجموعة من الرجال تؤمن الطريق ولحق بهم «جاسر» و«وهدان».

تتحرك الذكريات أمامهما، منذ أن جيء بهما وهما صغيران ومعهما «خلدون»، مضت طفولتهما بين التعليم وبين التدريب وقطع الأشجار وتقليم الأخشاب وقصها.

كل يوم يدرك فطنة الشيخ الكبير وحكمته، رغم أنه في طفولته كان يستغرب كثيرا تصرف أبيه.

في الليل تكسو تلك الجزيرة قداسة، وهيبة، وغموض، ورهبة.

سـار من طرق عدة للتمويه، توزع الرجال على المداخل يرصدون «جاسـر» و«وهـدان» حتى وصلا إلى فتحة السـرداب، أزاح «وهدان» جذع الشجرة العجوز بكل ضخامته، نزل «جاسر» ومن خلفه «وهدان» وشد الجذع ليغلق المنفذ مرة أخرى.

سـارا في السرداب الذي ازداد رطوبة وظلمة في الليل حتى وصلا إلى باب الكوخ الذي تسكنه «زهرة» ووصيفتها «ملوك».

حيـن تدخل من بـاب الكوخ السـفلي يصعد بك إلـى الأعلى قليلا ليظهر الكوخ بغرفه الملتوية التي تستقبل النور عبر فتحات ضيقة، يسكن الكوخ في منتصف مرتفع لا يبصره أحد مهما أوتي من قوة الإبصار.

فزعت «ملوك» في البداية، سألها «جاسر» عن سيدتها، أجابته وقد تورد وجهها برغم سمرته الداكنة..

دقائق وأطلت «زهرة» من حجرتها كالشـمس بعد المغيب الطويل تجبرك على إغلاق عينيـك من فرط بهائها، تجبرك على فركهما لتعيد تعديل زوايا التأمل من جديد:

- تأخرت كثيرا.

قالتها وهي قابضة على يد «جاسر».

خـرج «وهـدان» ومن خلفه «ملـوك»، تركا تلك اللحظـة لتكتمل، هما يعرفان رهبة اللحظة وانخطافها.

أمسك «جاسر» بكلتا يديها، ضمهما على صدره عله يهدأ، لم يعبأ كثيرا بدقات القلب المتتالية ولا بانكسـاره وقلقه، تعرى من حسـاباته

ومـن كل مـا يحزنـه، وقف أمامهـا بكامل حقيقتـه، اعتـرف لها بذلك الشوق الدفين تجاهها رغم كل الصعوبات..

اقتربت منه، ارتمت بكامل جسدها على صدره، تركت نفسها لتلك الجاذبيـة ناحية الروح المتوهجة، أسـقطت كل الحسـابات والتقاليد، امتلأت برغبة في أن تعيش اللحظة بكل أبعادها.

من خبرتها لا تثق في الحياة ولا في تصاريف الزمن، فمنذ ولادتها والأحـداث تـدور عكس حظهـا رغم أنهـا ولدت لأب حنـون وثري وهو الشـيخ «داود» لكن أخاها «راغب» عكر وافسد كل شيء بمرضه وعقده، حبسـها عمرا في قصور من ذهب، تارة بحجة الغيرة والخوف وتارة أخرى حين كان يعاقبها.

ومنـذ أن اختفـى أبوهـا أو أخفاه وهي محبوسـة كعبـدة في حجرة ضيقة في قصره.

لذا قررت أن تتعامل مع تصاريف الوقت بمبدأ سآخذ كل شيء ثم أعيد حساباتي بعد ذلك.

حيـن فاتحها «جاسـر» في الـزواج، وافقت، حين قال لها سـنرتب الموعد قالت:

الآن، نتزوج الآن.

هو يعيش نفس الإحسـاس، المتشـبث بأي أمل يحييـه من جديد، يخلصه من كابوس الانكسار.

صرخت «زهرة» على «ملوك» وعلى «وهدان».

حين دخلا، بادرتهما هي:

- أريد منكما أن تكونا شاهدين أمام الله على زواجي من جاسر.

لم يترك «جاسر» فرصة لكي يندهش«وهدان» و«ملوك» بل أطلق صيحة الفرح، حضن «زهرة»، دار بها، قبلها، صفق، ضحك، دمعت عيناه فاختلط الأمر إن كانت الدموع للفرح أم دموعا للحزن.

أحضرت «ملوك» بعضا من الطعام والفواكه وأقامت وليمة الزواج.

حين انتهى الضحك والطعام والشراب، انسحب «وهدان» ليطمئن على رجاله في الخارج وليتفقد الطرقات المؤدية إلى فتحة السرداب.

لما خلا الكوخ، أطفأت «زهرة» بعض المصابيح الكبيرة، تركت واحدا فقط في الممر المؤدي إلى مكانهما لينثر شعاعا خجولا.

اختفت في الداخل ثم عادت مرتدية ثوبا ملوكيا طويلا أبيض وشفافا، يظهر كامل كتفيها ومنتصف الصدر، بدت كإلهة يونانية قديمة، مصنوعة من رخام مُرمر أبيض مشوبة بحمرة الدلال، تركت كامل شعرها ينسدل على الأكتاف.

لم يتخيل «جاسر» أن «زهرة» المختفية دائما خلف أناقتها ستكون بهذا الجمال المستفز، وقف أمامها يلمسها قطعة قطعة، كأنه يريد أن يتأكد أن التي أمامه ليست حورية تظهر لتختفي، ولا سرابًا من خيال عاشق، يريد أن يتأكد أنها محض حقيقة، ومحض واقع.

ضمها إليه، وقال:

- تحدثي، قولي أي شيء، لأعرف أنني لست في حلم جميل.

قالت:

- أعشقك..

ضمها أكثر ثم دخل في نوبة من القبل التي أشعلته، فأسقطت ما علق به من نتف الخذلان والانكسار والهزيمة.

توهجت المشاعر، وصلت إلى أقصى درجات الغليان، ثم تدرجت في الهدوء تاركة طعما لذيذا في شرايين الروح.

في الصباح الباكر استيقظ «جاسر» على نداء خفيف من «وهدان»..

لم يرد أن يستجيب له في البداية حتى لا يقطع ذلك الإحساس بالتصاق «زهرة» على صدره العاري، لم يرد أن يتخلص من بقايا نشوته، قبلها كثيرا، ضمها كثيرا، حدق في عينيها، أطال التأمل في تلك الروح الممتلئة بالحب والتوق والشهوة.

خرج متثاقلا إلى «وهدان»، الذي اعتذر له، ثم اقترب من أذنه هامسا:

علينا أن نغادر، فثمة تحركات مريبة في المكان لم نعتدها منذ المساء، أنا لم أنم ولا الرجال ناموا.

استعاد «جاسر» حالة الفارس، ونحى العاشق جانبا:

علينا أن نأخذ زهرة معنا، لن أتركها هنا.

وافقه «وهدان» الرأي دون نقاش.

رجع «جاسر» إلى «زهرة» ثم عاد بها ومن خلفها «ملوك» وقد حملت أغراضها.

أصر «وهدان» ومعه الرجال أن يغيروا مكان الخروج، فصعدوا إلى أعلى الكوخ الذي يؤدي إلى بداية قاعدة الجبل المتعملق..

ساروا بهدوء حتى ظهر البحر جليا، تحرك الرجال الباقون في المركب صوبهم، لكن فجأة وبلا أي مقدمات خرجت جحافل من عمق غابات الجزيرة، وأخرى من البحر وأخرى جاءت من الشاطئ، خيول ومقاتلون مترجلون، وحاملو رماح.

الكل كان يصرخ، ويأمرهم بالثبات، صرخ «وهدان» في رجاله فشكلوا دائرة حول «جاسر» و«زهرة»، وبدأ «وهدان» يلقن رجاله تعليماته السريعة، لكن هيهات من المقارنة بين عشرين رجلا يحمون «جاسر»، وبين أكثر من خمسمائة مقاتل بخيولهم يلتفون حولهم..

لحظات وأطل «راغب» من داخل الغابة، يحتمي بعبدين أسودين، ممتطيا فرسا أبيض، رافعا سيفه، اقترب من «جاسر» ورجاله:

- هل وصلت بك الخسة يا جاسر أن تخطف أختي وتقتل أبي؟!

صرخت «زهرة»:

- جاسر لم يخطفني.. بل أنقذني منك حين سجنتني. ثم أين أبي؟ هل قتلته يا راغب؟

صرخ «راغب»:

- اصمتي أيتها العاهرة، سأقطعك إربا وأرميكِ هنا للذئاب، لن أعود بكِ إلى البلدة، ستدفنين هنا بعارك.

صرخ «جاسر»:

- زهـرة زوجتي، ولـن تقترب منها، أنت تعـرف لو أن معك آلاف الرجال سأقتلهم وسأقتلك..

صرخ «راغب» في رجاله:

- اقتلوهـم، أريد زهرة حية، أريد أن أقتلها بيدي أنا، وأريد جاسـر حيا لأقتله بنفسي، أريد الثأر لأبي. أحضروا جثته.

خرج الرجال من داخل الغابة، حاملين جثة الشيخ «داود» مضرجة في دمائها، أراحوا الجثة على الشاطئ بعيدا عن «جاسر» ورجاله.

بمجرد أن رأت «زهرة» جثة أبيها، انطلقت من بين رجال «جاسر»، ارتمـت فوق جثة أبيها، لكـن فورا حملها رجال «راغـب»، واقتادوها إلى حيث يقف «راغب»، أراد «راغب» أن تكون جثة أبيه طعما يصطاد به أخته «زهرة».

انطلق «جاسر» ومن خلفه «وهدان» ورجاله، دار قتال شديد، لم يرَ أحد «جاسر» بهذه الشراسة، وبهذه القوة والجبروت، من قبل.

دخـل وسـط مائة فـارس وحيدا غيـر عابئ بطعنات السـيوف ولا طعنات الرماح، كان سيفه يقطف الرؤوس.

«جاسر» هو الموت بعينه.

مـع ارتفاع وطيـس المعـارك اختفت «زهـرة» وبقـي «راغب» في البعيد يتابع سير المعركة.

استطاع «وهدان» أن يقتحم الصفوف ومعه الرجال وأن يدخل إلى حيث يقاتل «جاسر» ليحمي ظهره وشكلا معا ثنائيا أرعب رجال «راغب».

في عز الاقتتال ولهيب المعركة ظهرت العديد من السفن والمراكب الآتية نحو المكان.

حين وصلت نزلت صفوف المقاتلين وشكلت ممرا طويلا يؤدي لأرض المعركة، ثم ترجل الشيخ «هادي» ومن حوله الحراس والجنود.

صرخ الشيخ «هادي»:

- ليقف القتال فورا، ومن لا يستجيب سأطحنه برجالي.

صرخ «راغب»:

- لن يقف القتال يا شيخ هادي، أخوك قتل أبي وخطف أختي واغتصبها وقطع لسانها حتى لا تشتكي منه، أريد الثأر لأبي ولشرفي منكم يا أبناء الشيخ الكبير.

صرخ «هادي»:

- هناك قانون أنت الذي وضعته يا راغب، قانون يعطي للناس حقوقهم.

لم يستطع «جاسر» أن يتحدث، كل شيء خارج التوقع، خارج التصور والإدراك، لم يكن مهتما إلا بزهرته، التي اختفت، إلا بتلك الكلمة العابرة التي خرجت من فم «راغب» الزفر، «قطع لسانها».

صرخ «جاسر»:

- زهرة زوجتي، والشيخ داود لم أره، راغب هو الذي قتله..

أشار الشيخ «هادي» إلى الجنود فشكلوا صفين متقابلين فصلا بين «راغب» ورجاله وبين «جاسر» و«وهدان» ومن بقي معهما من الرجال وأمر بالقبض على «جاسر» و«وهدان».

صرخ «وهدان»:

- إذا اقترب مني أو من جاسر أي شخص سأقتله وأنت تعرف يا هادي أنني قادر على ذلك، ولو بقيت أنا وجاسر فقط نقاتلكم سنهزمكم، سيروا أنتم وأنا وجاسر سنكون على السفينة، ومن يريد أن يتحدث أو يحقق معنا، فنحن هناك.

أومأ الشيخ «هادي» لرجاله بالابتعاد، غادروا، ومن خلفهم «راغب» بعد أن حمل جثة أبيه ولم تظهر «زهرة» إطلاقا.

صرخ «جاسر» في الشيخ «هادي»:

- أريد زوجتي، احذركم جميعا، لو أصابها مكروه، ستكون الحرب التي لن تنتهي.

غادرت سفينة الشيخ «هادي» ومن خلفها قوارب «راغب» وبقي «جاسر» و«وهدان» والرجال متسربلين في دمائهم، وفجيعتهم واندهاشهم.

***

14

لـم يطل جلوسـي مع القديم سـوى مسـاحة تأمل، وصـدى عبرة، وامتداد غموض يتساوى مع غير المعلوم في الحكاية.

خرجـت إلـى «فاطمـة» المتربعة في الشـرفة تنظر إلـى القاهرة من أعلى، مسـتلقية على كرسـي هزاز شـاخ من الإهمال، سـحبت بهدوء كرسيا وجاورتها في الجلوس والتأمل، ثم قلت لها:

- بدلـي ملابسـك، سـنخرج الآن إلـى أرقـى مكان نأكل ونسـهر، وأريكِ القاهرة حين تختلي بنفسها في الليل ويزول عنها ضجيج أهلها المزعجين.

لا أدري مـا الـذي دفعني مرة أخـرى إلى ارتداء البدل الأسـمنتية، وخصوصا تلك السـوداء البازخة الأناقة، شـيء ما يدفع المشاعر نحو الاحتفال بشيء مجهول.

حين جاورتني لفت نظري ذلك الفسـتان الأسـود الطويل المتهدل علـى جسـدها، وفوق كتفيها شـال مفـرود ومتدلٍ من الأمـام، ظهرت كملكة إغريقية خرجت في خلسة تعربد مع عشيق.

انطلقت إلى شوارع القاهرة أفتش عن بقاياي.

توازيت في السير مع أبي النيل، ألقيت عليه السلام، فلوح لي بكلتا شاطئيه، قدمت له فاطمتي الجديدة، فتبسم، وأوصاني بها، سرب لي عبر نسائمة: «أن الأرواح لا تموت، فلا تفرط في تلك الروح مرة أخرى».

النيل أبي حين يرضى عني يرسل إليّ وحيه، فيرتل عليّ آياته.

وصلت إلى واحد من أفخم الفنادق، صعدت إلى الطابق الأعلى حيث ذلك المطعم المعلق فوق النيل، أو أن النيل فرد ذراعيه ليحملنا على أكف أبوته، جلست أتأملها وفي ركن الذاكرة زوجتي فريدة عزيز الراوي التي ثبتت لديَّ أن الأناقة، والأرستقراطية، والشياكة هي سر الجمال.. وفاتني أن المادة الخام للجمال هي البساطة، والفطرة، وعدم التكلف.

الفرق بين فاطمتي وبين «فريدة» زوجتي كذلك الفرق بين عصير تفاح معبأ في كأس كريستال وبين تفاحة على الشجرة، «فاطمة» هي تلك التفاحة بكل طبيعيتها وفطرتها وبساطتها.

- هل ستصمت كثيرا؟

أخرجني سؤالها من تضبيط حساباتي الخاطئة.

أمام انحناءة النادل، طلبت مني أن أتولى أمر العشاء.

طلبت نوعا من الأستيك وسلمتها مفاتيحي:

حين أنظر إليكِ أشعر أن فاطمتي لم تمت.

- لكن الواقع يقول لك إنها ماتت.

- الأرواح لا تموت، فاطمة عادت إليَّ روحا فيكِ.

- أنا فاطمة مختلفة تماما، ولن أكون مثل أمي.

- هل تكرهينني؟

- لا إطلاقـا، لكنني أكـره الضعف، والطيبة الغبية التي كانت عليها أمي.

- مع العمر، وتجارب الزمن، والخبرات، تتكشـف أمامنا كثير من الأمور.. والمحصلة فيما ننتهي إليه.

- تسـير في طريق أحلامك، تجرح، وتصيب، وتقتل أحيانا أناسـا، غير عابئ سوى بالمحطة التي تريد الوصول إليها، ولما تصل وتستمتع بنجاحك، تلتفت إلى الوراء، تقول آسف.

- أنتِ قاسية.

- إطلاقا، كل ما أحتاجه أن تساعدني في أن أصل إلى محطتي التي أريدهـا دون أن أجـرح أو أقتل أحدا، أريد أن أعمـل في الخارجية بلا تنازلات، وبلا أي حوادث.

- تريدين أن تعيدي الزمن، تريدين أن تكوني رشدي الشيخ.

التلميذ النجيب، الفلاح البسيط الذي أصبح سفيرا شهيرا.

- الاقتداء بالناجحين ليس عيبا.

- لكن أكملي المقرر، ستقفين في نفس الموقف الذي أنا فيه الآن، أنظر إلى مَن جرحت في طريق الوصول معتذرا، الأصعب أنظر إلى نفسي التي أخفيتها، أبحث عنها فلا أجدها، ذابت في تجاويف الروح.

- التجربة حق للجميع..

- ولماذا الخارجية؟

- أمي كانت مريضة بها، وأريد أن أتخصص في علاجها.

- تكرهينني.

- إطلاقا، أحيانا أحببت حب أمي لك.

- أنتِ صغيرة، في هذا العام أنهيتِ تعليمك الجامعي، فمن أين لكِ بهذه الحكمة؟

- منك أنت، أقلدك في كل شيء، ابن أخيك وزوجته صديقاي، أذهب إليهم كل مساء، يقصان عليَّ حكاياتك القديمة، كيف كنت تقرأ طيلة الليل، مكتبتك المكدسة بالكتب، إصرارك على أن تكون شيئا.

إذن تعرفين عني أشياء كثيرة.

أعرف عنك كل شيء.

بدأت رائحة الأستيك تخرجنا من هذا الاشتباك، أحسست بلذته تجري على لساني وكأنني أتذوقه لأول مرة، ثمة بهارات جديدة بنكهة «فاطمة»!

أنهيت وليمتي، وقفت استعدادا للمغادرة، كان النيل كتنين استكان وتركنا جالسين في أمان فوق ظهره.

حين وصلنا إلى البيت، دخلت غرفتها، تركتني أصارع ذلك المتربص بي، وهو يأتي من القديم بكل نزقه.

عدت إلى أوراق حكايتي القديمة، وكأني أتابع شيئا من قصتي رغم علمي بكم الاختلاف بين الاثنين.

****

الورقة الثالثة عشرة

ارتمى «جاسـر» في القارب، راح «وهدان» يجدف ناحية السـفينة، لم يسـتطع جسد «جاسـر» أن يتحمل تلك الزلازل المتتالية والفجائع المتعاقبة، سقطت دمعات كثيرة على خديه.

تمنى لو أسـعفه الوقت قليلا لينهل مزيدا من السـعادة التي عاشـها مـع «زهرة»، ادرك حينها كم كانت «زهـرة» ذكية في تعاملها مع الحياء حيـن أصرت على إكمال الزواج في نفس الليلة عندما طلب «جاسـر» يدها.

حيـن وصلا السـفينة وقف الرجال يتقدمهم الشـيخ «رياض» على أهبة الاسـتعداد للقتال، ارتدوا بزاتهم العسـكرية، تسـلحوا بسـيوفهم ورماحهم، حملوا «جاسر» و«وهدان» ومن بقي من الرجال، أدخلوهم إلى بطن السفينة، واستدعوا الأطباء.

ذهـل الأطبـاء مـن حجـم وكـم الإصابـات في جسـد «وهـدان» و«جاسر»، قال أحدهم:

- لو كانت تلك الإصابات في جمل لسقط ميتا.

اقترب الشـيخ «رياض» منهما وراح يكمل لهما الجزء الناقص في خطة «راغب»:

في المسـاء انطلق رجـال راغب يفتشـون كل مكان فـي البلدة، يبحثون عن جاسر وعن زهرة وعن الشيخ داود، خرج راغب في موكبه يصرخ وسط البلد: جاسر خطف زهرة، جاسر هو الذي خطف الشيخ

داود.. جاسر هدد الشيخ داود إما أن تزوجني زهرة وإما أقتلك. منذ الفجر والبلد مستيقظ، يفتش رجال راغب جميع البيوت إلا السفينة. أرسلنا إليكم رجالنا لكن للأسف كان راغب أسرع ووصل قبلنا.

أدرك «جاسر» أن المُراد هو التخلص منه نهائيا، فلو نزل البلد سيحاكم وليس أمامه سوى أن يعيش عمره المتبقي على ظهر السفينة.

***

دخل «خلدون» إلى بطن السفينة حيث المكان الذي كان يعتكف فيه الشيخ الكبير وقت الأزمات فاردا أمامه دفتره الكبير المصنوع من جلد الغزال، ناظرا إلى محبرته المكورة على نفسها.

فتش «خلدون» حتى عثر على الدفتر الكبير ومن فوقه ذلك الدفتر الصغير الذي حوى خططا ورسوما تؤرخ لمرحلة تأسيس البلد الكبير، أسماء الشوارع، مساراتها الممتدة، أحاديثه مع الشيوخ المؤسسين، أفراحه، انكساره..

أما الدفتر الكبير فكان مليئا بالشجن والوصايا، خصوصا صفحاته الأخيرة التي دون فيها الشيخ الكبير وجعه حين اكتشف خيانة ابنه «هادي» و«راغب» الزفر، كتب فيها ما يشبه وصيته التي حاول «جاسر» تنفيذها وفشل.

فرد «خلدون» أمامه ذلك الدفتر الكبير غير عابئ باهتزازت السفينة في سيرها ولا بمرجحتها على وقع الأمواج، وراح يخط عنوانا لتلك المرحلة التي دخلها البلد الكبير.

في صفحة جديدة كتب:

(هذا ما كتبه خلدون في يوم... بتاريخ ...)

كتب تاريخ يوم التدوين ثم أكمل:

حُرِّم البلد على الذين بنوه وورثه اللصوص والقوادون والشاذون والفاسدون.

سمعنا البلد الكبير يستجير منهم واعترفنا بعجزنا في تخليصه، بكى الرجال كالنساء على مُلك ضيعوه وبلد تم سَبيه منهم.

هو زمن عكس الزمن ومسار آخر غير مسار انطلاق التأسيس.

أصبح «راغب» الزفر هو الذي يخطط بمكره ودهائه والشيخ «هادي» مجرد منفذ، كومبارس في مسرحية هزلية يخرجها وينفذها «راغب».

ومن خلف الاثنين يحرك الغرباء «راغب» ومن بعده «هادي» كدُمى في مولد مزدحم بالأطفال.

لم تهدأ فرق «راغب» في تهييج الناس على «جاسر»، المغناوتية والطبالون يدورون في الطرقات يتحدثون عن الوحش الفاجر الذي خطف «زهرة» الجميلة وقطع لسانها واغتصبها وقتل أباها..

يتحدثون عن «جاسر» الذي قتل الشيخ «داود» أحد مؤسسي البلد، في كل طريق ينساق الناس وراءهم، يخرجون في تظاهرات يسبون «جاسر» ويطالبون بالقصاص، تحول المقاتلون الذين كانوا يتحدثون

الرعب في قلوب الغرباء إلى مجرد حراس يقفون على مدخل السفينة يمنعون المتجمهرين المطالبين بالقصاص.

الشيخ «رياض» يعلم بوجود «خلدون» في بطن السفينة، كما يعلم أن «جاسر» أسير لألم جسده ولوجع روحه.

لكن حين كان يسمع هتافات الناس على الميناء تطالب بقتله والقصاص منه يزداد ألما ووجعا وتأوها، حين يسمع صوت الراوي يتحدث عن «زهرة» التي قُطع لسانها يضج، يطلق صرخة مكتومة..

هو على يقين من أن «راغب» قطع لسانها حتى لا تفضحه، حتى لا تقول إن «جاسر» لم يخطفها، لم يغتصبها ولم يقتل أباها الشيخ «داود».

أمام هذه الصيحات حاول أن يتحامل على جراحه، يقاوم، يقف، يتوجه إلى هؤلاء الناس يتحدث معهم يقول لهم أنا بريء، يقول لهم إنها المكيدة والمكر والدهاء، يقول لهم أستحلفكم بحياتي معكم أن تتذكروا لو كنت يوما من الضالين أو المسيئين.

لقد تربيت فيكم صغيرا، ما خرجت مني العيبة يوما.

دخل الشيخ «رياض»، جلس بجواره، منعه من الوقوف حتى اكتمال العلاج، أقنعه أن محاولة النزول إلى هؤلاء هي انتحار، فكلهم جواسيس لمصلحة «راغب»، ومن انساق خلفهم غوغاء لا تعي ما تقول، قال له:

- فـي زمن الرداءة والانحطاط، الصمت والعزلة أفضل، من الغباء أن تقـف في وجه جموع الخونة لتقنعهـم بقيمة الوطن، ومن الغباء أن تذهب إلى خمارة لتحض مَن فيها على الفضيلة.

صمت قليلا، قبل أن يضيف:

- جئت أستشـيرك في أمر جميلة وسـيف الصغيـر، أخاف عليهما وعلى بقية عائلتنا، أريد أن آتي بهم إلى السفينة هنا.

فكر «جاسر» قليلا قبل أن يقول:

- وهـل نغلـق بيوتنـا ونحـرم أطفالنـا من السـير في شـوارع بلدنا وتنفس طينها ورائحتها، هل نحرمهم من أن يشموا عطرها في الصباح حين يجيء من مدخلها الجبلي؟

رد عليه الشيخ «رياض» بألم:

- نعـم، نحرمهـم مـن ذلـك فـي سـبيل أن نحافـظ علـى حياتهـم وبخاصة سـيف الصغير، وأنت تعلم جيدا ماذا يعني وجود سـيف آخر غيـر الذي قتلوه، إنهم يخافون من تلك البذرة، ولن يترددوا في قطعها واجتثاثها.

وافق «جاسر» قابضا على دمعة كادت تسقط:

- شـرط أن يبقى بيت الشـيخ الكبيـر مفتوحا، يسـكنه رماح ابنك وزوجته.

أومأ الشيخ «رياض» بالموافقة وهو يقول:

- سأتحرك فجرا مع بعض الرجال لنحضر جميلة ومعها سيف الصغير ونترك «رماح» هناك هو وزوجته ومعهم بعض الرجال.

***

أصر «خلدون» على النزول في المساء حاملا دفترا صغيرا مُخبئا نصف وجهه بشال أبيض، رافضا تحذيرات الجميع من النزول إلى البلدة في هذه الأيام وقد انتشر الغرباء كالجراد في كل مكان، باتوا يتحركون جهرا وعلانية بملابسهم السوداء وملامحهم المتجهمة.

أمام إصراره لحق به «وهدان» متخفيا، لكن الجميع ابتسموا لأن قامة «وهدان» التي تزيد على المترين وجسده الذي يشبه أسدا وقف على رجليه الخلفيتين لا تنفع معه لعبة التمويه، صرخ «وهدان»:

- كيف أقبل أن أحرم من السير في شوارع بلدتي التي بنيناها؟ كيف أقبل الضيم والظلم والإبعاد والنفي وبلدي على مرمى خطوتين من قلبي؟ دونها أو أموت!

خرج «خلدون» ومن خلفه «وهدان»، سارا قريبين من بعضهما، «وهدان» ناحية الميناء والكورنيش الممتد على البحر، وخلدون في موازاته على الجانب الآخر.

الفوانيس المعلقة بطول الطريق متوهجة، ترمي نورها على أبواب المحال والدكاكين، انتشر السكارى في الطرقات، ونساء الليل، شُوه ذلك الطريق الذي رسمه الشيخ الكبير على ورقة طويلة ذات يوم وراح يمررها على الشيوخ المؤسسين، يشرح لهم أن هذا الشريط الممتد

سيحوي ورشا لتصليح المراكب، وتنشيط الصيد وتجارة الأسماك وغيرها.

الآن تحولت إلى خمارات وبارات وسكارى ونساء ليل.

الغرباء يرتعون في البلد وهم الذين تمنوا يوما أن يقتربوا من حدوده، لم يبقَ في البلد سوى مَن رضي بالوضع أو أُجبر عليه، أما الرافضون له القادرون على الرحيل فهجروه حين رأوه محتلا.

حين مر أمام المطعم الذي كان يحبه الشيخ «صامد»، ذلك المطعم الذي شهد موته أو اغتياله، اشتاق إلى روح أبيه، أحس بغيظ شديد وروحه ما زالت حائرة تبحث عن قاتلها، اشتاق إلى أن يشارك روح أبيه وجبة من طاجن السمك، وأحس أنه قصر في البحث عن ذلك الطباخ الأسود الذي اختفى إثر موت أبيه الشيخ «صامد».

خبأ وجهه ودلف إلى المطعم الذي كان متكظا عن آخره بالرجال والنساء بعد أن انقسم إلى مكانين، واحد لتناول الطعام وآخر لتناول الخمور، ومربع خلفي للمؤانسة حيث يجلس الرجال الذين يطلبون المتعة مع نساء الليل.

أخذ ركنا قصيا وطلب وجبة من طاجن السمك، جلس يستعيد ذكريات طفولته، وهو ملتصق بساق أبيه، يتأمل جبروته وصوته الذي كان كالر عد يزلزل المكان إن تحدث أو عطس.

تذكر حين دعاه أبوه إلى المطعم، لم يمضِ وقت طويل إلا وهبت روائح طاجن السمك ونزلت الأطباق تتهاوى على الطاولة، راح

يلتهمهـا التهاما، كان «وهدان» يأكل الذكريات، يمضغ الأيام الخوالي بحلوها ومرها، يشعر بأنفاس أبيه وهي تتلاحق حين يضع لقمة ساخنة في فمه، أحس بيد أبيه تهدهده إن تعثر في المضغ أو كح.

حين انتهى من الطعام قال للفتى الذي يلملم الأطباق الفارغة:

- اشكر لنا الطباخ.

وذكر اسـم الطباخ الأسود، محض حيلة دارت في خلده علها تدله عليه.

أجاب الفتى على عجل:

- اشكره أنت بنفسك.. سيخرج بعد قليل ليحيي الناس كعادته.

كاد يصرخ فرحا لولا رباطة جأشه وتأنيه:

- إذن سأنتظره..

بدأ «وهدان» يتخيل شـكله وهيئته بعد هذه الأعوام، يفكر في خطة لقتله.. الأهم أن ينجح في أخذه معه إلى السفينة.. لكن كيف؟

أكيد هناك حراس كثر ينتشـرون في المكان، رجل بدهاء هذا العبد الأسـود لن يعود إلى البلدة بعد فعلته إلا وقد احتاط لنفسـه، أو يكون «راغب» نفسه سخر له مَن يحميه.

«وهدان» كأبيه لا يعرف تلك الحسـابات، جسـده العملاق، قوته، شجاعته، جبروته، يجعلونه دائما مقداما لا يخاف ولا يهاب أحدا.

لحظـات وأطـل الطبـاخ الأسـود، يحيـي الحاضريـن، ويصافـح الأصدقاء.

كاد «وهدان» أن ينطلق نحوه، يجز رقبته، لكنه تماسك مرة أخرى، أراد الأهم، أراد أن يأخذه معه، حتى لو أن هناك ألف مقاتل سيأخذه.

كان «خلدون» جالسا في ركن بعيد، يراقب ما يحدث، يسجل في دفتره الصغير بعض ملاحظاته، أشار له «وهدان»، فجاء إليه وسط الزحام والإضاءة المتأرجحة.

قال له «وهدان»:

- امشِ الآن إلى السفينة، وبلغ بعض الرجال الأقوياء ينتظرونني هنا في الخارج على مقربة من المكان، لقد وجدت قاتل أبي وسآتي به إلى السفينة.

انطلق «خلدون» مسرعا، دقائق وأبلغ الرجال وعاد بهم متنكرين يتوزعون على الكورنيش الموازي للمطعم.

ظل «وهدان» يراقب تحركات الطباخ الأسود حتى اقترب من باب الخروج، يوزع تحاياه ومن خلفه بعض حراسه.

تحرك «وهدان» ببطء منحنيا بعض الشيء للتمويه حتى اقترب منه، جذبه من ذراعه، جره إلى خارج المطعم، وسار به مسرعا.

التف حوله خمسة رجال أشداء بعد أن صرخ الطباخ الأسود، فأرداهم «وهدان» صرعى وأكمل السير..

نقدم نحوه «خلدون» ومعه الرجال، أخذوا الطباخ الأسود، وبقي «وهدان» ومعه أربعة رجال، نجحوا في مواجهة أكثر من عشرين

مقاتـلا شرسـا، تركوهم مضرجين فـي دمائهم وغادروا مسـرعين إلى السفينة ليكون «وهدان» في مواجهة مع قاتل أبيه لأول مرة.

***

حيـن ثبـت «وهـدان» عينيه في عينـي الطباخ الأسـود وقبض على كتفيـه ورفعـه إلى أعلـى انهار الطبـاخ وبكى، أطلق «وهـدان» صرخة مكتومة مؤجلة في وجهه:

- بأي يد دسست السم لأبي؟

راوغ الطبـاخ وبكـى أكثـر، قبـض «وهـدان» بعنف علـى كف يده اليمنـى وضغـط عليها فأصـدرت طقطقة كفرع شـجرة جاف وعجوز هشمته الريح.

انهـار الطبـاخ مصدرا صوت اسـتغاثة فابتلع البحـر الصوت وكتم الصدى.

وقف «جاسر» ومعه بعض الرجال، أخذوا الطباخ الأسود من يده، تقدم «خلدون» ناحية الطباخ وما زال الدفتر الصغير في يده:

- قل لي الحقيقة، أخبرني بكل شيء وإلا ستموت!

التف الجميع حول الطباخ الأسـود وراحوا ينصتون باندهاش كبير وهم يسمعون ما يقصه، قال:

- كنت أطهو كل خميس في بيت راغب حيث اعتاد أن يقيم الولائم لأصدقائـه وكان الغربـاء يحضرون تلـك الولائم ويشـاركون بها، في

نهاية المساء تتحول تلك السهرات إلى عري ومجون وشذوذ، لم يكن راغب يخجل من ارتداء ملابس النســاء والرقص وسـط عبيده السـود ومعه ومجموعة من أمثاله الشـاذين، حاولت ألا أحضر هذه السهرات المقززة، لكنه أصر، بل توعدني لو غادرت دون علمه، فظللت حسبما أراد حتى الصباح، أقدم الطعام والشـراب مع الصبية والخدم.. هو لم يكن يبخل عليَّ بالمال إطلاقا ولا بالمساعدة في احتياجات المطعم أو إرسال الزبائن بين الحين والآخر.. وفي إحدى الليالي ناداني وبجواره واحـد مـن الغرباء كان ملثما، أعطاني زجاجة صغيرة بها سـم، قال لي وقتها: لو شمه جمل سيموت في الحال، وطلب مني وضعه في طاجن الشـيخ «صامد» حين يجيء، خفت فـي البداية، فهددني بالموت، لأن مَـن يعرف سـره لا يبقى حيـا لو رفـض الطاعة. خفت، أخذت السـم وعدت إلى المطعم، لم أنم ليلتها فأنا أحب الشيخ «صامد»، هو الذي بنى لي المطعم بعد أن قدمني للشـيخ الكبير، كان يحب الطعام، متعته الوحيدة كانت الطعام. ساعدني كثيرا، بكيت، لكن «راغب» أرسل مَن يراقبنـي، قيـل لي لو اختليت بالشـيخ «صامد» سـيقتلونني في الحال. فكرت في أن أرسـل للشـيخ «صامـد» أحذره، أو أفتعـل معه خناقة أو معركـة أو خلافـه حتى لا يجيء إلـى المكان، لكننـي أعرفه جيدا، هو لا يغضب و لا يُغضب أحدا.

ابتلع ريقه الذي جف من فرط تأثره، ثم واصل الحكاية:

جاء الشـيخ صامـد أكثر من مـرة وحين كنا نعـرض عليه الطعام كان يرفـض، كنـت أفرح واللـه، حتى جاء اليوم الموعـود، دخل علينا

باشًا فرحا ومتهللا، بعد إحدى معاركه التي سحق فيها الغرباء، طلب الطعام بصوت مرتفع على غير عادته. خرجت إليه.. رحبت به، تمنيت أن أقول له غادر.. لكنه أصر على طلب الطعام.. بمجرد أن دخلت إلى المطبخ لا أدري من أين جاء رجال راغب، أخذوا مني السم وهم الذين وضعوه في الطاجن بعد أن طهيته جيدا، أخذوني إلى أحد المراكب في البحر وأبعدوني إلى أحد البلاد المجاورة. عشت هناك منفيا، مراقبا، عرفت بعدها بموت الشيخ صامد، بكيت كثيرا، تقطع قلبي، تمنيت الموت مرارا. مرت الأيام وحدث ما حدث في البلد وأعادني راغب مرة أخرى، أغدق عليَّ العطايا وأعاد ترميم المطعم وافتتاحه من أجلي.

وقف «جاسر»، توجَّه نحوه بضيق، وسأله:

- هل أخي هادي له علاقة بمقتل الشيخ صامد؟

أجاب الطباخ الأسود بلا أي تفكير:

- لا، إطلاقا، ولم يكن يعرف، بل طلب راغب مني ألا أخبره بأي شيء حتى لو سألني.

سأله الشيخ «رياض»:

- هل كان هادي على علاقة بالغرباء مثل راغب؟

- نعم كانوا يلتقون مع الشيخ هادي في غرفة خاصة في قصر راغب، ثم يغادر هادي لأنه كان لا يحب شذوذ وتصرفات راغب في نهاية المساء.

اندفع «وهدان» صوب الطباخ الأسود، جرجره من عنقه بعيدا عن الملتفين حوله، أعطاه سيفا، وهو يقول بغضب جامح:

- دافع عن نفسك إن استطعت.

رفض الطباخ الأسود الإمساك بالسيف، ألقاه بعيدا، توسل إلى «وهدان»، و«جاسر» والشيخ «رياض» أن يرحموه، لكن «وهدان» أصر، وأبعد الجميع عنه، أصر على أن يمسك الطباخ الأسود السيف، فور إمساك الطباخ السيف هجم عليه وقطع رأسه عن جسده بضربة واحدة.

رفع رأسه إلى السماء وأطلق زئيره:

- إليك يا أبي، فلتسترح قليلا حتى أكمل القصاص وأقتل راغب.

كان «خلدون» يسجل اللحظة في دفتره:

- لم يرد وهدان أن يقتص لأبيه من قاتله وهو ليس في يده سيف، حتى لا يقول التاريخ إنه قتل شخصا أعزل.

تقدم «وهدان» نحو الرجال وهو يقول:

مهمتي الآن قتل راغب، مَن ينضم معي منكم؟ مَن لا يريد لن أغضب منه وسيبقى صديقا وحبيبا، ومَن ينضم إليَّ سيكون أخي.

رفع عدد كبير من الرجال أيديهم ووقفوا بجوار «وهدان».

أطرق الشيخ «رياض» برأسه ناظرا إلى الأرض، غطاه حزن غريب وهو يرى مَن بقي من الرجال ينقسمون على بعضهم، يرى

ركنا ركينا ومهما ينجر خلف قضيته الشخصية، يرى «وهدان» ينذر نفسه للقصاص وقتل «راغب»، الشيخ «رياض» والجميع يعرفون أن قتل «راغب» ليس سهلا، بل يكاد يكون مستحيلا، ومن خلفه الغرباء وجيوش جرارة تحميه.

أخذ «وهدان» الرجال الذين انضموا إليه، ونزلوا إلى بطن السفينة ليبدأوا التدريب والتحضير ووضع الخطط لقتل «راغب».

أما «جاسر» فنظر إلى القلة التي بقيت من الرجال وتنهد في حزن وصمت.

***

15

شيء مرعب، لأول مرة يصلني صوت الدكتور «عبد النبي الهادي» بكل هذا الانهيار والضعف والانفجار:

- الدكتور «فراج البيومي» مات في السجن.

انقطع الاتصال، أو هو الذي أغلق الخط، أو ربما لفظ نفسه الأخير فلـم يكمل جملته، بت لا أعرف، دار رأسـي فـي كل الاتجاهات، وأنا الخارج للتو من فرحة «وهدان» بالقصاص لأبيه من الطباخ الأسود.

أبلغت «فاطمة» وخرجت مسـرعا ألح على الهاتف في طرق أرقام مَن أعرف حتى وصلت إلى مسـئول كبير، كان بـاردا، ربما عرف أنني الآن بـلا منصـب، أو مغضوب عليَّ كمـا بات يردد الزمـلاء في أروقة الوزارة.

دلنـي على المـكان الذي يحتوي جثـة «فراج البيومـي» والأوراق المطلوبة لاستلامها.

ذهبـت إلـى هنـاك، أبلغوني أنني يجـب أن أعود فـي الصباح معي واحد من أقرباء الدرجة الأولى أو أحد أبنائه.

أبلغت الدكتور «الهادي» بكل التفاصيل وجلست أنتظره في مكان قريب لآخذه إلى بيتي لننطلق في الصباح نطوي سجل حكاية لواحد من أبرز علماء مصر في علم المخطوطات والتاريخ الحديث، مات في سجن دخله ذات صدفة سيئة.

لم يطل الانتظار، وصل الدكتور «الهادي»، إلى بيتي، جلست معه و«فاطمة» التي استيقظت وظللت ألملم دموع الرجل، قال كلاما كثيرا، عن إنهم قتلوه، طلبت منه أن يصمت فالحالة وصلت من الارتباك حدا مزريا، الدكتور «فراج البيومي» مريض بالضغط والسكر واغتياله ليس صعبا، يكفي أن تمنع عنه الأدوية فيموت، يكفي أن يعرف أن بلده الذي نذر نفسه له قد سُرق.

لكل منا طريقة سهلة لاغتياله لا يعرفها سوى الخبراء في القتل..

بعد لزوجة الحزن، تمدد كل منا مستسلما لبندول رأسه، خفت على الدكتور «الهادي» وقد كبر مائة عام بعد فراق صديقه، لولا الخجل لطلبت منه ألا يموت قبل أن يكمل فك شفرة بقية حكايتي.

***

في الصباح سرت خلف سيارة الإسعاف التي تحمل جثة الدكتور «البيومي» بجواري الدكتور «الهادي» و«فاطمة» التي أصرت على اصطحابي إلى المدفن.

لم يكن للدكتور «البيومي» أبناء، فهو رجل جرب الزواج مرة واحدة ولما ماتت حبيبته دفن معها كل شيء، هو نوع من الناس باتوا نادرين في كل شيء، قال لي الدكتور «الهادي» ذات لقاء:

- الدكتور البيومي منذ ماتت زوجته تزوج مصر فباتت بالنسبة له لحمه، شرفه وعرضه، لذا كثيرا ما ألتمس له العذر إن تهور في التعبير عن خوفه على البلد..

المقابر عالم غامض، مقلق وثقيل على النفس، عالم لو سمح الله لسكانه بالبوح لشابت الرؤوس من هول حكاياتهم.

أصر الدكتور «الهادي» على أن نصلي عليه صلاة الجنازة في مسجد قريب من المقابر، ارتفع أذان الظهر فترجرجت أرواحنا.

أراقب الناس وهي تردد تكبيرات صلاة الجنازة كأنها تلطم وتندب حظها.

فم اللحد أشرس من كل أفواه الوحوش، فم بلا أسنان، فم يبتلع ويذيب الأجساد في عصير ماء الأرض.

انهار الدكتور «الهادي»، جثا على ركبتيه، وأطلق تنهيدة مصحوبة بوداع مرير.

أحسست أن كثيرا من الأموات استيقظوا، وراحوا يرددونها، فبدت ترنيمة للمستضعفين.

حين أغلق الحفارون القبر، استدرت إلى المشيعين، كانوا لا يتخطون العشرة أشخاص.

يااااااه، كيف لقامة مثل هذا العالم الجليل ألا يُكرم حيا ولا يُكرم ميتا.

- العزاء غدا في مسجد عمر مكرم في التحرير.

جملة أطلقها الدكتور «الهادي»، لكن هناك من رد عليه جملته:

- العزاء على المقابر وفقط، شكر الله سعيكم.

غادرت القبر مع الدكتور «الهادي» و«فاطمة» يغطينا تراب الوداع، عند سيارتي اقترب مني شخص أنيق، أعطاني الكارت الخاص به، وطلب مني أن أهاتفه في الخامسة مساء.

نظرت في الاسم الجالس على الكارت، كان مسئولا كبيرا في الأمن.

في الساعة الخامسة وبعد وجبة غداء موقعة بأصابع «فاطمة» انتحيت جانبا وطلبت رقمه، بعد كثير من المقدمات واللطف المصطنع، قدم تعازيه واعتذاره عن عدم السماح لهم بعمل عزاء للفقيد يليق به:

- عمل عزاء في مسجد عمر مكرم في التحرير، دي دعوة للتظاهر، مصر لا تحتمل والعملاء كثر.

لا أدري ماذا قلت!

عدت إلى الدكتور «الهادي» متعمدا إخراجه من حالة حزنه، رحت أسأله عن المخطوطات، بكى صوته، قال:

واضح أن الزمن الذي وقعت فيه الأحداث سيبقى سرا، لأن الذي كان قادرا على إكمال فك شفرته قد مات.

طلب مني أن أدعو له حتى يكمل فك خيوط الحكاية.

لكنه كرر رجاءه بضرورة أن تصدر في كتاب يقرأه الناس، لأن فيها من الوجع ما يولد آلاف العبر.

***

الورقة الرابعة عشرة

بعـد أن انتهـى «خلـدون» من تدويـن قصة مقتـل الطباخ الأسـود وانقســام الرجال في السـفينة إلـى فريقين، واحد انحـاز إلى «وهدان» للثأر من «راغب»،و الآخر بقي مع «جاسـر» الذي ما عاد له هم سـوى البحث عن «زهرة».

جنـد جـزءًا كبيرا مـن رجاله في البحـث عنها، أرسـلهم إلى البلاد المجاورة مستعينا بعلاقاته القديمة.

راح «خلدون» يسـجل كل ما توفر له مـن معلومات عما يخطط له «راغب» و«وهدان» من توقيع اتفاقية مع الغرباء مجهولة البنود.

شُوهدت الكثير من الوفود تحط رحالها كل مساء في قصر «راغب» ثم تنتقل إلى قصر الشـيخ «هـادي»، وتدور أحاديث مطولة في الغرف المغلقـة، ثم ما تلبث أن تخـرج وفود من البلد بقيادة «راغب» متوجهة إلـى عمق البحـر ليلتقوا بالغرباء على متن إحدى السـفن الكبيرة، تقام الولائم والاحتفالات التي يظل طنينها حتى خيوط الصباح.

بـات واضحا للعيان أن الغرباء سـيطروا على المدخل الصحراوي للبلـد وامتلكوا كل البســاتين وتحول مُلاك هذه البسـاتين إلى أُجراء. الحـال تبدل واصفرت الأشـجار اعتراضا على ما آلـت إليه الأحوال، جفت الأغصان وعقمت الأشجار.

تغير اسـم جبل الشـيخ «صامد»، وأصبح اسمه جبل الحارس، كل شيء يتآكل ويضيع.

أزيح التمثال الذي أشرف الشيخ الكبير على صناعته ووضعه في منتصف البلدة، لشاب مفتول العضلات، وحل مكانه تمثال لعروس البحر نصفه العلوي لامرأة عارية ذات نهدين نافرين تنتهي بذيل سمكة كبير.

انتشرت دكاكين العشابين على الجانبين في الطريق الرئيسي، تبيع كل شيء، لا شيء في البلدة بات ممنوعا، كل أنواع المخدرات، أهل المكان يهمسون في المساء أن البساتين تحولت إلى حقول للماريجوانا والبانجو وغيرها..

كل شيء يضيع بالتدريج..

كل شيء يبور..

ويجف.

***

منذ أن سكنت «جميلة» السفينة ما عاد الرجال ينزلون إلى الطابق السفلي إلا بإذن من «جاسر» وإن نزلوا نزلوا حذرين.

سكنت «جميلة» الجناح الخاص الذي صنعه الشيخ الكبير لنفسه ثم استخدمه من بعده الشيخ «رياض».

صالة ممتدة بها نوافذ يتقافز الماء بجوارها، تنتهي بحجرة كبيرة وحمام.

لم تكن تخرج منها كثيرا، طوال الوقت تجلس مع «سيف» الصغير تعلمه القراءة والكتابة، تقص عليه حكاية جده وأبيه.

رفضت اقتراح أبيها الشيخ «رياض» بأن يأخذوه إلى الجزيرة المعزولة ليمر بفترة التأسيس التي مر بها أبوه وعمه وأبناء ذلك الجيل الثاني.

قالت:

- أخاف عليه من عيون راغب، سيف هو الأمل الأخير، لو ضاع سنضيع.

ألح عليها كثيرا الشيخ «رياض» في مسألة زواجها من «جاسر»، أكد لها أنه زواج صوري ليس أكثر، كرر لها أنه يُقدر تلاقي الأرواح بينها وبين المرحوم «سيف» الكبير.

كانت دائما ترفض.

كرر عليها طلبه:

- لا تفكري في نفسك، حيدي مشاعرك قليلًا.. تذكري ابنك، تأكدي أنه يحتاج أبًا بغض النظر عن أنك لا تحتاجين زوجًا.

بعد إصرار أبيها وأخيها «رماح» أومأت بالموافقة وفي العين دمعة تحمل مرارة داكنة، قالت:

بشرط ألا يقترب مني، زواج بعيد عن الجسد.

رد الشيخ «رياض»:

- يا بنتي لا تصعبي الأمر على نفسك، الزمن سيجبرك على الاحتياج إلى رجل، ولن تجدي مثل جاسر.

أمـام إصرارهـا، أومأ بالموافقة وغـادر هو و«رماح» إلى «جاسـر» الذي افترش سطح السفينة يراقب حركة الطيور في السماء، يستحلفها أن تنقل سلامه لحبيبته «زهرة»، وتعود إليه بخبر يريح قلبه المكلوم.

جلـس الشـيخ «ريـاض» و«رمـاح» بجـواره لفتـرة دون أن يعـي وجودهما، اقترب منه الشيخ «رياض»:

- يـا ولـدي مـا تفعله رفاهيـة ليس أوانهـا الآن، التفكير فـي حبيبة ضاعت في وقت الوطن كله ضاع فيه يصبح رفاهية، واسمح لي يصبح سفها!

تدخل «رماح» ليخفف من حدة حديث أبيه مع «جاسر»:

- نحـن في احتياج إليك، الرجال والجميـع ينتظرونك أنت، ليس من مصلحتنا جميعا أن يراك الرجال بهذا الضعف.

صرخ «جاسر»:

- اتركاني، أنا الضعيف والسفيه، توليا أنتما ومعكما الرجال شئون كل شـيء، انتظرا.. لم يعد هناك شيء تتوليانه، كل شيء ضاع وانتهى، بلدنـا وحبيبتي وأبي وأخي وكل شـيء، حتى وهـدان تركنا وراح يثأر لأبيه.

وقف «رماح» واقترب منه:

- أريد أن أطمئنك على زهرة.

لم يكد يكمل الحرف الأخير من اسمها إلا وقد قفز «جاسر» قابضا على كتفيه:

- أرجوك، قل لي، هل عرفت شيئا عنها؟!

رد «رماح»:

- نعم ورأيتها أيضا.

- أين؟

رد «رماح»:

- رأيتها بالأمس تقف بجوار راغب في عربة مكشوفة تجرها أربعة خيول مزينة بالورد، ويلف بها الشارع الرئيسي في البلدة.

- كيف كانت؟

- كانت كما هي، جميلة!

- هل كانت تتحدث؟ هل قطع لسانها فعلا؟

- لا أعرف، لم تكن تتحدث، لم تكن تنظر للناس.

صرخ الشيخ «رياض» في وجه «جاسر»:

- أرجوك اهدأ، ليس هذا القصد في إخبارك بما رأينا. عليك أن تعرف أن راغب، سيستعمل زهرة، طعما لاصطيادك، هو يعرف جيدا حالتك النفسية، يعرف ضعفك الآن، وسيحاول أن يجعل الناس تعرف أن زهرة موجودة وتطل كل مساء من شرفة قصره ومن خلفها وصيفتها ملوك. يعرف أنك ستتهور وستحاول الذهاب إليها، وقتها سيمسك بك، ويقتلك، ويعلقك على باب قصره، ليصبح في نظر غوغاء البلدة بطلا، نجح في قتل جاسر البطل، وسيجوب الرواة والمغنون الشوارع والطرقات يروون للناس بطولات راغب يوم قتل جاسر.

اقترب من «جاسر»، هدهده:

- أرجوك أشفق على نفسك، وعلينا، اسمع.. جئنا لنعرض عليك أمرا مهما.

نظر «رماح» إلى أبيه الشيخ «رياض»، الذي أكمل:

- يا ولدي تعرف أنك ابني، ومنذ أن مات الشيخ الكبير أصبحتم أبنائي بل وجميع جيلكم أبنائي، وتعرف أن جميلة مهما طال الزمان أو قصر ستحتاج رجلًا ليكون لها عونا، وأن ابنها يحتاج أبا يربيه ويشرف عليه، فالزمن يتحرك بقسوة قد لا تحتملها جميلة ولا يحتملها سيف؛ لذا تشاورنا جميعا ورأينا أنه يجب أن تتزوج جميلة.

نظر «جاسر» إليهما، وصمت.

صمت الشيخ «رياض» في حزن وهو الذي ما توقع أن «جاسر» يتردد أمام أمر كهذا، تدخل «رماح» مسرعا يخفف وطأة الوضع، حتى قطع «جاسر» صمته المرفوض قائلًا:

- لكن كلكم تعرفون أنني تزوجت زهرة.

رد «رماح»:

- نعم والأمران لا يتعارضان، زواجك من جميلة سيكون زواجا صوريا وهذا طلبها، يعني لن تقترب منها.

وافق «جاسر» طالبا أسبوعا فقط ليستعد لإعلان الخبر.

نزل الشيخ «رياض» ومن خلفه «رماح» يجمعون الرجال، ويشحذون همم فريق التجديف لإعلان تحرك السفينة في رحلتها الشهرية لتجوب البحر، تمشط شواطئ البلدان المجاورة، تعلن عن هيبتها التي طالما فر أمامها الغرباء وتحطم على عزتها جبروت لصوص البحر.

***

16

كأن الهاتـف كان متصـلا ببالوعة من المجـاري، بعد إغلاقه ظلت فوهته تشنقني برائحتها النتنة وتغتال صلابتي:

- هتطلقنـي غصـب عنـك، وهاتجوز بعـد انتهاء شـهور العدة. لا أحـب أن أرتبـط بالمهزومين المستسـلمين والضعفـاء. ارجع بلدكوا ازرع فدانين وعيش.

كيـف لهـذه البالوعة أن تنجـب وردتي «ملك»، ابنتـي التي أخذت توكيل بقائي في الحياة ووقعت عقد سعادتي مع الله؟

فريـدة عزيز الراوي هي بنـت أبيها في تعاليـه وعجرفته، والتصاقة بالأنظمـة والسـلطة حتى لـو بدا للنـاس أنه مثـل الذبابة التـي يجذبها العفن.

تركـت «فاطمة» تنفرد بالدكتـور «الهادي» وتعارضـه بطريقتها في الحوار، خرجت إلى المقعد المسـتكين في الشـرفة، أسـلمته نفسـي، أحـدق في صفاء السـماء في تلك الليلـة الرائقة، أحدق أكثـر علَّ الله يرسـل لي ملكا يدلني على طريق أسـلكه مع تلك البالوعة التي اسمها زوجتي.

كل النجوم منفردة في السماء، وفكرة الارتباط متلاشية.

حضرت ابنتي «ملك» بكل جلال براءتها.

- وما ذنبها إذن؟

طغى الاشتياق أكثر وكبر في القلب، لم يفصلني عن سماع صوتها سوى ضغطة زر على هاتفي المحمول، ليجيء صوتها مثل أبي النيل حنونا، تفضفض لي عن كل ما تفعله أمها، عن كل ما تسمعه منها تجاهي، قالت لي:

- ماما ها تتجوز. الراجل اللي هاتتجوزه هايدفع بقية ثمن شقة باريس.

بنت عزيز الراوي لا تضيع الوقت، قبل أن تغلق صفحة زوج تفتح صفحة جديدة وهذه المرة صفحة بدرجة بنك لرجل قادر على إكمال بقية ثمن شقة في باريس لم يدفع من ثمنها سوى الثلث، لماذا لم أسأل «ملك» عن اسمه؟

قطع الإجابة رنين هاتفي..

زياد الحسين، يطل من على شاشة هاتفي، رجل الأعمال السوري، المزاج ليس جاهزا لاستقبال مكالمة معلبة، تعزف على ريش منصب زال..

صمت الهاتف، ثم عاد صياحه من جديد:

ألو.

أطلقتها مجاملة.

- أنا في القاهرة ولازم أشوفك ضروري جدا.

بعد إصراره غادرت إلى فندق الفور سيزون في حي جاردن سيتي، حيث تمنيت ذات حلم أن يكون لي بيت هناك، لكن مع الوقت تغير ذلك الحي العريق وشاخ وبدا باهتا..

جلست وحيدا إلى طاولة حنت ظهرها وحملت عليها أطباقا بها من كل ما يستفز..

بعد مقدمات طويلة صرح بما يريد:

- أريد أن أقدم شيئا لهذا الارتباك الذي يمر به الوطن العربي بعد كل هذه الثورات والاحتجاجات، أنا قبل أن أكون رجل أعمال، حاصل على الدكتوراه من بريطانيا في إدارة الأعمال، أحلم بعمل مركز دراسات سياسية واقتصادية على أعلى مستوى، تصدر عنه صحيفة أسبوعية ثم تتحول إلى يومية في المستقبل، وممكن يكون لنا قناة فضائية رزينة.

- وما دوري في هذا الموضوع، أنا لست صحفيا ولا إعلاميا، أنا سفير ومهنتي تمنعني من مزاولة أي من هذه الأشياء.

توازى حديث «زياد» في دسامته مع تلك الأطباق التي راحت تتهاوى أمامنا، قال صراحة:

- أنت عملت اسما وسمعة وهيبة كسفير، آن الأوان لأن تتحرر، يكون لك رأي ووجهة نظر تعلنهما بلا أي حسابات، آن الأوان لأن تهتم بأمورك المادية.

تلفحت باستغراب كبير وأنا أحدق في سيجاره الذي يعبئ فمه، الرجل يقرأ أفكاري، أو ربما تجسس عليَّ فعرف ما يدور في خلدي، أو ربما هي مهارة التاجر حين يصطاد زبائنه.

طلبت مهلة للتفكير، وانطلقت راجعا إلى مرارة الدكتور عبد النبي الهادي التي راحت تزداد يوما بعد يوم وفي كل لحظة تتبدى رغبته في إنهاء فك شفرة حكايتي، أعطاني بعضا من أوراق بيضاء، وقعت بخط يده، وطلب مني أن أبقيه نائما على أريكة فخمة كانت ممددة في الصالة في مواجهة التلفزيون.

من غرفة «فاطمة» استقبلت صوتا مبلولا بالنوم، وغارقا في رقة مثيرة، تركتها لنومها، وعدت إلى غرفتي حاملا بعض بقايا رائحة حديث زوجتي العفن، وأوراقي وفضولي..

أغلقت باب غرفتي، وفتحت بقية الحكاية.

***

لم يكن أمام الشيخ «رياض» من بُدٍّ سوى الإبحار بالسفينة ومَن عليها بعيدا عن شاطئ البلد الذي شكّل استفزازا للجميع..

هو يعرف أن الآفة الكبرى حين ينشغل كل إنسان بهمه الخاص وقضيته الشخصية وينسى ضياع البلد وانقسامه.

تحرك الشيخ «رياض» في هذه الليلة التي سبقت الإبحار على عكس عمره وشيخوخته، أوقف فريق التجديف في طابور منتظم، سار بهم ذهابا وإيابا في خطوات منتظمة وهم يرددون صيحات الاستعداد التي طالما هزت الشاطئ، قفزوا دفعات متوالية إلى البحر يشقونه بأجسادهم عوما ثم يعودون.

أراد الشيخ «رياض» في هذا اليوم أن يعيد إلى السفينة طقسها المفقود والضائع.

صعد إلى أعلى، كان «جاسر» منعزلا حزينا، قانطا، مستلقيا على ظهره ووجهه يلملم نجوم السماء.

صرخ فيه معنفا:

- دع أحزانك الخاصة وقم إلى عملك.

أمام إصراره تحرك «جاسر» في كسل حزين، وقف أمام طابور الرجال الممتد على سطح السفينة، تركه الشيخ «رياض» وغادر إلى الجانب الآخر من السفينة حيث يقف «وهدان» مع رجاله يمضغون جراحهم بعد أن فشلت محاولتهم في قتل «راغب»..

أمسـك «وهدان» من ذراعه التي شُـقت بضربة سيف مجهولة وهو يحاول الوصول إلى «راغب» وقت القتال المسـتعر، جرح الذراع كان أهون من جرح القلب المكلوم، القلب الذي اشتعل ثأرا.

مع الفجر أطلق الشيخ «رياض» صرخة الانطلاق.

لملم الرجال الخطاطيف الكبيرة التي تثبت السـفينة أثناء الوقوف، يفكـون عقد الحبـال التي صلبها على شـاطئ الميناء حتـى لا تجرفها الريح.

اعتلى خفاف الرجال الصواري العالية، يفكون بعضها لتعبئ الريح فضاءها فتدفعها صوب المسير.

أخذ الشـيخ «رياض» ابنته «جميلة» ومعها «سـيف» الصغير، سـار بهمـا إلـى المقدمة، أوقفهمـا بجواره، تركهما يسـتقبلان ريـاح البحر الآتيـة مـن بعيد، ريـاح غير محملـة بالهزيمة أو الانكسـار، اقترب من «سيف»:

- يوما ما يا ولدي سـتقف هنا وتقود هذه السفينة، إنها أمانتك التي تنتظرك فاعمل لها بقدر استطاعتك.

سقطت دمعة من عين «جميلة» فرمتها الريح المهرولة بعيدا.

السـفينة بدت هذا اليوم مختلفة، ظهرت كحصان عربي أصيل ظل مربوطا، مسجونا دهورا طويلة، وفجأة أفرج عنه، فأطلق للريح سرعته وانطلق..

البحر صفحة ملساء، تنزلق عليها السفينة كأنها في فسحة ممتعة، تحضنها موجة فترفعها إلى أعلى ثم تستقبلها أخرى لتهدهدها إلى أسفل..

مرجحة المحب وتدليل المشتاق بين الماء وخشب السفينة.

أذرع المجاديف الخشبية تتحرك بانتظام، تجر الماء إلى الخلف وتدفع الجسد الكبير إلى الأمام.

ترك الشيخ «رياض» حفيده «سيف» الصغير مع أمه «جميلة» وانسحب ناحية «جاسر» و«وهدان»، أخذهما إلى أعلى سطح السفينة، اكتشف الاثنان أنهما لم يلتقيا منذ فترة رغم وجودهما على مركب واحد، قبض «جاسر» على ذراع «وهدان» المجروحة، ضم «وهدان» «جاسر» بالذراع السليمة إلى صدره، طأطأ كل رأسه إلى الأسفل، كأنهما أرادا الهروب من نظرة يملؤها الانكسار.

صرخ الشيخ «رياض» مناديا على «خلدون» الذي صعد مسرعا إليه وكأنه كان ينتظر تلك الصرخة.

اقترب «خلدون» وأسفل إبطه مجلدان، أحدهما كبير والآخر صغير، أشار إليه الشيخ «رياض»:

- افتح يا خلدون دفاتر الشيخ الكبير، وذكرنا بوصاياه؛ لأن ذاكرتنا صدأت، وقلوبنا انشغلت بما ليس لنا.

تربع «خلدون» على الأرض، فرد الصفحات أمامه، وبدأ يرتل بصوت جهوري بعضا من وصايا الشيخ الكبير:

• الأحلام الكبيرة تستوجب هموما كبيرة.

• الهمم الكبيرة لا تحملها سوى عزائم الرجال.

• عزائم الرجال تقوى في الملمات، وتزداد صلابتها وقت المحن.

• ليس أشد محنة من تلك التي تتعرض لها الأوطان والأهل.

• احذروا الفتن.

• الفتن تبدأ على يد الأعداء، لكن لا يتحقق ضررها إلا في حالة واحدة، تلك الحالة تحدث حين ينشغل كل فرد بهمه الشخصي.

أشار الشيخ «رياض» بيده، فتوقف «خلدون» عن الترتيل، استدار إلى «وهدان» و«جاسر»، وراح يعيد ترتيل الجمل بطريقة أخرى، كأنه يشرح درسا لتلاميذ بلداء، يتحرك بظهره المحني، وشيخوخته البادية، يحدق في عيونهما، فيأخذ صوته حدة عنيفة:

- لن أسمح لكما بضياع ما تبقى من حلم الكبار.

أطلق «وهدان» جملة كأنها قفزت من حنجرته عنوة:

- ثأر أبي جزء من حلم الكبار.

كان رد الشيخ «رياض» حاضرا:

الثأر لأبيك ليس بقتل راغب، الثأر الحقيقي لأبيك أن تبقى السفينة موجودة، أن نعمل على استعادة بلدنا من أيدي راغب وهادي والغرباء.

- كيف؟

قالها «جاسر» وخبأ وجهه من رذاذ البحر المتناثر.

سار الشيخ «رياض» بعيدا عن رشرشات مياه البحر، وكأن البحر أراد أن يبرد سخونة النقاش، أو أراد أن ينعش الهمم المستسلمة.

جلس الشيخ «رياض» على مكان مرتفع قليلا، أدار ظهره لهما، كأنه يكلم أناسا آخرين:

- لو سأل الشيخ الكبير نفسه هذا السؤال قبل أن يؤسس هذا البلد ما فعل، وما فعلنا. الفرق بين جيلنا، وبين جيلكم، أن الأسئلة المستحيلة حين تولد أجوبة مستحيلة تخلق لدينا إرادة كالديناميت تفجر المستحيل وتخلق من رماده قصورا وأحلاما، أما أنتم فتستسلمون، تهزمون عند أول محطة للاستحالة. لو كنتم ما زلتم مؤمنين ببلدكم وبأحلام ودماء المؤسسين الكبار فأكملوا الطريق، لا تنكسروا، لا تجعلوا السارق يستريح، اجلعوه يشعر دائما بأن للحقوق أصحابا يسعون لاسترجاعها.

أثناء تلك الفضفضة علت زمجرات الرجال وهتافهم.

اندفع «جاسر» إلى حافة السفينة، ليرى قاربين من قوارب الغرباء يقتربان من السفينة وعليهما عدد من الرجال الذين يرتدون السواد، وهم يلوحون في حركات بهلوانية كالقرود، ليستفزوا الرجال.

- دونها الموت!

أطلق «وهدان» صرخته المدوية، بعد أن رأى أحد الغرباء يبول باتجاههم وآخر يبصق عليهم.

قفز «وهدان» في أحد القوارب المعلقة على جانب السفينة وتركه ينزل إلى صفحة الماء ببطء غير عابئ بتحذيرات «جاسر»، أكمل النزول، وحين لامس قاربه الماء اندفع ناحيتهم لكنهم ذابوا بين طيات الأمواج المتتالية.

طاردهم «وهدان» لكن الشيخ «رياض» أمره بالرجوع لإحساسه بأن هناك كمينا لاصطياده.

عاد «وهدان» مزمجرا غاضبا، وبدا في رجوعه كالأسد العجوز الذي بات لعبة لقرود الغابة.

لم يمض وقت طويل حتى لاحت في الأفق مشارف بلد الشيخ عدنان، هدأ الرجال من سرعة السفينة وتركوها ببطء تستدير ناحية الميناء.

وقت قليل واندفعت ناحيتهم ثلاثة قوارب عليها بعض من رجال الشيخ عدنان، لاحظ الشيخ «رياض» ومعه «وهدان» و«جاسر» وجميع الرجال اختفاء تلك المراسم التي اعتادوها إذا ما اقتربت لسفينة الكبيرة بجلالها ناحية واحدة من البلاد الملضومة في شاطئ لبحر.

لم تكن هناك فرقة موسيقية تعزف نشيدها الوطني، ولا أطفال العصافير يرتدون الملابس الغارقة في خضرتها يلوحون بأعلامهم.

شاطئ الميناء صامت وحزين.

أحس الشيخ «رياض» ومعه الجميع بشيء يؤدي إلى مزيد من القلق.

لم يستمر ذلك القلق طويلا، فقد كانت القوارب الثلاثة التي وصلت إلى السفينة بها الإجابة!

نزل الشيخ «عدنان» من القارب الكبير، صعد إلى السفينة، صافح الشيخ «رياض» وبقية الرجال، وبهدوئه المعتاد، وابتسامته الصفراء، أطال كعادته في مقدمة غير مفهومة، حتى وصل إلى الجملة التي انتظرها الرجال:

- الزمن تغير ولسنا في حاجة إلى خدمات السفينة، الاتفاقيات التي وقعت مع الغرباء تضمن لن سلاما دائما، إن جزءا من تلك الاتفاقيات يستوجب عدم دخول السفينة إلى مينائنا.

لحظات صمت قاتلة.

حين استدار الشيخ «عدنان» مغادرا، عاد وكأنه نسي جملة مقطوعة فأراد وصلها:

- على فكرة.. هذا الاتفاق مع كل البلاد، فلا تكملوا جولتكم لأنكم ستجدون نفس القرار.

بدت السفينة من بعيد وهي عائدة كحصان عربي هارب من معركة خاسرة، ولما اعترف بالهزيمة أجبروه على جر عربة للموتى.

حين رست في بيتها على الميناء في البلد الكبير، ظل الرجال جميعهم منكسي الرؤوس، نزل الشيخ «رياض» إلى الغرفة السفلية التي اعتاد الشيخ الكبير الاختلاء بنفسه فيها وقت الملمات الكبرى.

استلقى على فراش الشيخ، وغير بعيد منه جلست «جميلة»، وقد حبست «سيف» الصغير بين ذراعيها وحدقت في وجه أبيها الذي اكتسى بشحوب لا يختلف عن شحوب الموتى..

في الأعلى راح «وهدان» يقطع سطح السفينة ذهابا وإيابا، يصل إلى حافتها اليسرى، يحدق في البعيد ويطلق زفيره، ثم يعود إلى حافتها اليمنى وهكذا، كأنه أسد محبوس يبغي الخلاص، أما «جاسر» فثبت ناظريه باتجاه البلد..

وصمت.

قطع هذا الفيض من القلق والحزن، صوت أحد الرجال:

- الشيخ هادي يستأذن في الصعود.

لحظات من الصمت القاتل، اندفع «جاسر» إلى أسفل، الشيخ «هادي» ومعه بعض من رجاله يقفون على الشاطئ، نظر إليه «جاسر» من أعلى ولم يكلمه، بل غرس ناظريه في قلبه وتركهما يربكانه.

بعد فترة من القلق قال الشيخ «هادي»:

- لا بد أن أتحدث معكم، سأصعد بدون رجالي وبلا أي سلاح.

أشار «جاسر» بالموافقة، صعد «هادي» وحيدا، بعد أن فتح عباءته أمام رجال السفينة ليثبت لهم أنه لا يحمل أي سلاح.

وقف «وهدان» و«جاسر» في انتظاره.

قال «جاسر» وهو يشيح بوجهه ليعطيه ظهره:

- قل ما عندك وغادر.

وقف الشيخ «هادي»، ملتحفا ببشاشة مصطنعة:

- جئت إليكم جميعا ولم آتِ لأخي فقط، جئت لأنه ليس هناك عداء دائم، جئت لأن روح الشيخ الكبير لا تريدنا هكذا متفرقين، أدعوك يا جاسر أن تأتي لتكون نائبي في الحكم.

جاء صوت الشيخ «رياض» من الخلف كالسيف الذي قطع انسياب حديث الشيخ «هادي»:

- في مقابل ماذا يا هادي؟

استدار «هادي» مصافحا الشيخ «رياض» ببشاشته المصطنعة:

- مقابل أن نكون واحدا. أن نقف بجوار بعضنا بعضا.

- كيف؟

قالها «جاسر».

- بعد عودتكم عرفتم أن زمن السفينة انتهى، وما عاد الجيران يحتاجونها.

تقدم «وهدان» نحوه:

- أتريدنا أن نترك السفينة، نغرقها في البحر، ونأتي إليك لنكون خداما في بلاطك؟!

تقدم «جاسر» نحو أخيه كأنه يريد أن يقتله:

- ألا تتعب من المكر والدهاء؟ من أي طينة خلقك الله؟ ماذا تريد؟ أرغمتنا على قسمة ظالمة، أخذت البلد وسلمته للغرباء يبولون على جسد أبيك، ينتهكون روحه الطاهرة كل يوم أمام عينيك، وضعت يدك في يد راغب الزفر، النجس، وشاركت الشيطان، غدرت بأبيك وبنا، وجئت الآن لتحيك مؤامرة جديدة لانتزاع ما بقي لنا.

صرخ الشيخ «هادي»:

- من أجل كل ما تقوله جئت إليكم، إن لم تأتوا معي سيضيع كل شيء، صحيح، أنا وضعت يدي في يد راغب وفي يد الغرباء، لكنني أعرف أنه لا أمان لهم، أعرف أن الخلاف قادم، وهم يعرفون أنني وحدي. صدقوني.

دفعه «جاسر» بعنف إلى خارج السفينة، طرده وهو يصرخ مستحضرا روح أبيه.

يروي «خلدون» فيما سجله في تلك الليلة، نقلا عن آخرين، أن الشيخ «هادي» حين نزل من السفينة مطرودا ركب حصانه وانطلق بعيدا عن رجاله، شاقا البلد نصفين في اتجاه المدخل الصحراوي، تبعه الحراس حتى نقطة التفتيش الأخيرة التي أقامها الغرباء ليفصلوا بينها وبين ما احتلوه من طرف البلد ما بين الجبلين، لم يستطع الحراس أن يلحقوا به إلى داخل مناطق الغرباء، فالاتفاقية التي وقعت بينهما لا تجيز مرور أي قوات أو رجال.

بعد تفتيش وتمحيص سمحوا للشيخ «هادي» بالمرور، بعدما خصصوا مجموعة من المقاتلين يتبعونه.

عند منطقة البساتين وقف، نزل من على حصانه، وصعد رويدا إلى جبل الشيخ «صامد»، الذي تغير اسمه بعد أن تم احتلاله، استمر «هادي» في الصعود حتى وصل إلى مكان مرتفع يجعل البلد مفرودا أمامه، يراه من جميع أطرافه، ظل الشيخ «هادي» جالسا يتأمل سواد تلك الصفحة، غارقا في دوامة لا يجد لها مسمى، دوامة للندم، أو دوامة لبداية الرجوع.

تشققت تلك الروح، تفتتت، انهار الجسد وتحطم بعد أن مات «عدنان» ابنه الوحيد، غادره خلسة بعد مرض لم يستمر سوى يومين فقط، «هادي» يشعر أن قطار الأحلام انتهى وتوقف نهائيا، ما فائدة مُلك ليس له وريث، ولا ولي عهد ولا خليفة، أي ملك سيتأسس وليس هناك من وريث له سوى «راغب» الزفر.

قبل أن يموت ابنه «عدنان» بليلة رأى الشيخ الكبير يحمل كرباجا غارقا في السواد، يلسعه به، فيحترق الظهر من الألم، ثم أخذ «عدنان» من يده وغادر قائلا له:

- عدنان خسارة فيك، سآخذه معي.

كوابيس «هادي» لم تفارقه ليلة واحدة حتى باتت مرضا عضالا غير قابل للعلاج، لولا أشياء كثيرة لصرخ من قمة الجبل يعلن للناس ندمه على ما فعل، بل يطالب الجميع بأن يطهروه من ذنبه.

- الحنين للماضي مضر.

جاءه ذلك الصوت من عمق الصمت، استدار بفزع، اقترب منه «راغب»، جلس بجواره:

- أتعرف أن أكثر ما كان يخيفني ليس جاسر ولا سيف ولا حتى الشيخ الكبير ولا أبي ولا مكر الغرباء!

نظر إليه الشيخ «هادي» بقرف.

ابتلع «راغب» تلك النظرة وراح يكمل:

- أكثر ما كان يخيفني هو أنت. خوفي منك هو الرعب والكابوس، كلما نظرت إلى عينيك، رأيت فيهما ضعفا، ندما، دائما كنت أتوقع أن ثمة لحظة ستجيء يحن فيها هادي إلى الرجوع لتعاليم أبيه الشيخ الكبير، لحظة يملؤه القرف مما فعلناه.. لذلك أنا قلق منك.

نظر إليه «هادي»:

- وبعقلية راغب أكيد أخذت كامل احتياطاتك، وأحكمت تدبيرك، قل لي ماذا رتبت لي؟

صمت «راغب» في مكر، ثم أجاب مبتسما:

- رتبت لك الحماية والحفظ، نحن الاثنان يربطنا مصير واحد، غير قابل للقسمة، القسمة بالنسبة لنا تساوي صفرا. ليس صفرا فقط بل تساوي دمار وضياع البلد، أو ما بقي من البلد. دع هذا الشجن العاطفي وقم لتدبير أمور حكمك.

- أعطني ذراعك اليمنى.

نظر إليه «هادي»، حدق في الخنجر:

- تريد قتلي إذن!

ابتسم «راغب» بسخرية:

- ليس بهذه الطريقة يكون القتل والاغتيال! فقط أريدك أن ترى دمي وهو يسيل.

كشف «راغب» ذراعه، وجرحها بالخنجر فانبجس الدم منها، قرب ذراعه الجريحة ناحية فم الشيخ «هادي»:

- عليك أن تبتلع شيئا من دمي.

- لم أفهم مقصدك يا راغب.

- حين يسير دمك في عروقي ودمي في عروقك نصبح إخوة، إخوة في الدم، وفي الاهتمام والمصير.

اقترب «هادي» من ذراع «راغب»، مص بعضا من دمه، كرمش وجهه باشمئزاز.

سحب «راغب» ذراع الشيخ «هادي»، أزاح عنه ملابسه الحريرية، سحب الخنجر تاركا خطا قاتما ينزف، قربه إلى فمه وراح يمص دم الشيخ «هادي» كأفعى.

ضمه في ارتياح السارق:

- الآن بات لك أخ يشبهك في كل شيء، اليوم نتعاهد على الدم، لا خيانة، لا تراجع، لا ندم، لا مشاعر ليس وقتها بعد، طريق الأحلام ما زال ممتدا، ما زلنا في أوله يا صديقي.

***

17

أمـام إلحاحهـا فـي الرجـوع إلـى بلدتهـا كان علـيَّ أن أختلق كل المبررات التي تجعل «فاطمة» تبقى في القاهرة أطول وقت ممكن:

- قد يحتاجونك في مقابلة جديدة. يجب أن تبقي قريبة منهم.

أكـدت لها أن إجراءات الوظيفة لم تنتـهِ بعد وأنهم قد يطلبونها في مقابلـة جديـدة، أكملـت تلك المبررات فـي مكالمة طويلـة مع أخيها وعمها وسربت بين الجمل أن «فاطمة» تقيم مع ابنتي وزوجتي.

أحسسـت أحيانا وهي تحملق في بؤبؤ عيني أنها تكشـف تحايلي، بل وتشاركني إياه.

ألقيت جملة علها تكون فاتحة لمرور طوابير المشاعر:

- اعذرينـي إن عاملتـكِ علـى أنـك فاطمـة القديمـة، فأنـا مريض بالماضـي، أحيانا يطفو شـوقي المؤجل منذ سـنين، يتوحش فتعتريني رغبة القرب إليكِ باعتبارك الفاطمتين معا.

كانـت صامتة، تزيح عينيها بعيدا كأنها تداري ضعفا أو انسـياقا ما، تقول بابتسامة شقت طريقها بصعوبة:

- أنـا فاطمـة الجديدة وفقط، أنا لـن أؤدي دور غيـري في الحياة، فكن معي إن شئت.

كيـف لهذه الفتاة التي تصغرني بربع قـرن أن تأتيها الحكمة علانية وليست من وراء حجاب؟

اقتربـت منهـا، حدقت في ذلـك الأثير الآتي من خلـف ملامحها، كل شـيء في فتوته جميل، خصوصا الأنوثة الباحثة عن مجرى يشكل نهرها الممتد وسط جفاف الجسد.

- أنتِ هي.

ردت عليَّ بحدة ناعمة:

- أنا أنا وفقط. فاطمتك ماتت، فلا تبحث في داخلك عن غيري.

أدرت عيني إلى الوراء علني أستدرك الجملة:

- ما أريده روحكِ أنتِ وفقط.

صمتـت، وغادرتني إلى غرفتهـا، تاركة على المقعد بعضا من رذاذ رغبة نصفها الأسفل.

لـم يأتني فارق العمر ولا في سـرحة خيال واحـدة، كيف لنضجها لخفي أن يزيح ربع قرن من بيننا؟

كيف لروحها المكتملة أن تصعد ربع قرن وتقف فتصبح في موازاة عمري وتجربتي دون ادعاء أو هتاف؟

مرة أخرى رنين هاتفي المتسلط، عدوي كما قال أحد المسئولين وهو ينظر إلى هاتفي:

- انتبه! أنت تحمل عدوك!

ابتسمت مرتين:

- لا شيء نخفيه.

***

- آلو.

ألقيتها وصمت، ليأتيني صوت «سليم» ابن مدينة رأس غارب، ذلك الذيْ يطل فجأة من أركان الماضي بلا أي إنذار أو إذن، يظهر ويختفي فجأة كأننا نمارس لعبة «الاستغماية».

- أنا عدت منذ ثلاثة أشهر إلى مصر، وغدا افتتاح المقهى الجديد.

ابتسمت كثيرا بعدما عرفت أنه أطلق على هذا المقهى اسم «الشلة»، ابتسمت أكثر بعد أن أخبرني بأن كل رفاق الجامعة وزملاء الدفعة سيكونون في الاحتفال.

هو صاحب مفاجآت كبيرة، اندهشت لأنه لم يسألني عن صندوقه الذي قلب حياتي رأسا على عقب.

لم أترك خيالي يغرق أكثر في استرجاع زملاء الدفعة وأسمائهم، بل لملمت خيوطه التي بدأت في الانتشار، عدت إلى غرفتي أكمل

تدوين بقية ما تركه الدكتور عبد النبي البيومي، قبل أن يغادر شقتي إلى الإسكندرية، راجيا أن أزوره مرة كل أسبوع، كأنه يسرب لي خوفه من أن يموت وحيدا.

***

- أحكموا ربط الحبال وضاعفوها فإن وقفتنا ستطول.

قالهـا الشـيخ «رياض» وهو يراقـب العمال الذين يقيدون السـفينة بحبالهم ويصلبونها على الشاطئ.

غادر «الجداف» كابينة القيادة، صعد إلى أعلى سطح السفينة، ينفخ دخان غليونه، يستقبل بصدره العاري رماح الريح المتهاوية نحوه.

أحس رجالـه الذين رافقوه منذ أن خطت السـفينة خطوتها الأولى أن الجداف لبس ثوب اليأس والقنوط، ما عاد يتباهى بصدره المزروع بالشعر، ولا بجسده الذي يشبه المصارعين.

وقف الجـداف وحيدا، انـزوى بعيدا عن عيون الرجال، شـاهدوه وهو يمسح بكفه دموعه، يحدق في المدى المفتوح على الغيب.

حيـن صعد إليـه أحد رجالـه، طلب منـه بطانية خفيفـة، لأول مرة يغطـي نصف جسـده الأعلـى وهو الذي لـم يفعلها في عـز قهر البرد، ظهر الجداف متدثرا ببطانية سوداء كأنه أسد عجوز يحتضر.

***

لـم يكن قصر «راغـب» هادئا هـذه الليلة، كان مشـتعلا بالزائرين، متشـحا بالقلق، صرخات «راغب» تشـرخ الليل نصفين، يتوافد رجاله وهم مدججون بأسلحتهم.

الأطبـاء يدخلـون إلـى القصـر زرافـات، ثمة إشـارات تشـي بأن الخطب مرعب وخطير.

ظهر «راغب» وهو يمسك «ملوك» جارية أخته «زهرة» يجرها ناحية القبو السفلي للقصر، كانت تقاوم وملامحها تشي بأنها ذاهبة لتموت.

رجال «راغب» وحراسه احتلوا جميع الشرفات والمداخل، حركة الأطباء لم تهدأ.

لم يمضِ وقت طويل حتى انطلق «راغب» ومن خلفه مقاتلوه ورجاله في أعداد كبيرة، وكأنه ذاهب لمعركة مع جيش كامل العتاد، فرسان ومشاة وحملة رماح وخيول تجر آلات المنجنيق الحارقة..

سار بجيشه في الشارع الرئيسي للبلد، فأطلت الرؤوس بفضول من الشرفات لتستكشف الأمر..

أُغلقت الأبواب، فرد التوتر عباءته على كامل المكان، اتجه «راغب» وجيشه ناحية الميناء..

حين وصلوا إلى السفينة بدأ المقاتلون يأخذون وضع الاستعداد، المشاة في المقدمة يحملون الرماح والسيوف، وبجوارهم فرقة الفرسان، على الأطراف الرماة..

نُصبت آلات المنجنيق في مواجهة السفينة..

اعتلى «راغب» الميناء، موجها حديثه في اتجاة السفينة المصلوبة، أطلق صيحاته المجلجلة:

- جاسر.. أنا هنا، اخرج لي، كن رجلا واخرج لمواجهتي.

بدأ سكان البلدة يحتشدون على أطراف الميناء، ظهرت فرق المغناواتية والمداحين، يرددون أكاذيبهم عن «جاسر» الذي أراد أن يخطف الأميرة «زهرة» الجميلة، وحين رفضت وقاومته طعنها في بطنها وحاول قتلها، لولا أن «ملوك» الجارية صرخت.

يؤكد «راغب» بصياحه ما يقوله الرواة والمداحون..

يتوجه ناحية أهل المكان ليحيلهم إلى شهود وليسوا متفرجين:

- ماذا تقولون في رجل دخل متخفيا إلى قصري، يريد الاعتداء على أختي، وحين رفضت أراد قتلها؟ ماذا تقولون في القصاص والعدل؟!

وقف «جاسر» ومعه جميع الرجال مبهوتين، يستمعون إلى ما يقوله «راغب»، ويحكيه الرواة كأنه محض خيال وفقط.

صرخ «جاسر»:

- راغب، أيها المعتوه، أنت كاذب، لم أدخل قصرك، ولم تطأ قدمي البلد منذ وقت طويل، راغب أيها الزفر، النجس، أحملك مسئولية أي ضرر يقع لزهرة. يا ناس، يا عقلاء الدنيا أشهدكم أن زهرة زوجتي أمام الله، وحبيبتي، ومعشوقتي، فكيف لشخص أن يقتل نفسه، وروحه، إنها الخدعة التي احترفها راغب.

لاحظ الجداف وبعض رجاله عددا غير قليل من القوارب الصغيرة تلتف حول السفينة من كل الاتجاهات كأنها ضباع جائعة أحاطت بفريسة في البراري، اقترب بعض من رجاله يحطمون جسد السفينة بسيوفهم.

انطلق حراس السفينة برماحهم يصطادون المعتدين الواحد تلو الآخر.

هجم «راغب» ومعه رجاله على السفينة، وهم يصرخون:

- نريد جاسر، أخرجوا لنا جاسر.

قفز «جاسر» ومن خلفه «وهدان» و«رماح» وبقية الرجال، استقبلوا رجال «راغب» ينزعون بسيوفهم الرؤوس، لم ينجح أحد في الوصول إلى السفينة..

اندفع «وهدان» كطلقة مدفع يريد النزول من السفينة صوب «راغب» وهو الذي ظل ينتظر تلك اللحظة، لم يكن «وهدان» يرى سوى وجه أبيه طالبا الثأر وفقط.

صرخ الشيخ «رياض» في «جاسر» و«رماح» وبقية الرجال:

- لا تتركوا وهدان ينزل من السفينة، امنعوه ولو بالقوة.

بدأ رجال «راغب» يجهزون طلقات المنجنيق، يدفعون الأذرع الممتدة بكرات النار ناحية جسد السفينة.

في عز القتال والدم، ظهر الشيخ «هادي» من الخلف برجاله وقواته، انطلق مسرعا مشكلا حائطا يحول بين رجال «راغب» وبين السفينة ورجالها، صرخ في «راغب»:

- توقف فورا، فورا.

اقترب «راغب» منه:

- أخوك اعتدى على بيتي وأراد خطف أختي وحين رفضت طعنها.

لأول مرة ينفجر الشيخ «هادي» في «راغب»:

- كفى يا رجل! من أين لك بهذا الخيال الشرير؟! ماذا تريد؟ كل شيء ضاع واحترق، كفى يا رجل!

أثناء الحديث طوق رجال الشيخ «هادي» جميع قوات «راغب» وأجبروهم على التراجع بعيدا عن الميناء، لكن «راغب» أشار خلسة لأحد رجاله فترك ذراع المنجنيق الطويل يحلق في الفضاء دافعا كرة النار صوب جسد السفينة التي ما لبثت أن اشتعلت من حافتها اليسرى.

•

في المساء عرف «خلدون» بطريقته أن «زهرة» أرادت الانتحار حين حاولت أن تقفز من شرفة القصر العالية فمنعها رجال «راغب»، فلم يكن أمامها سوى أن سحبت خنجرا من أحد الحراس وغرسته في بطنها.

ولما عرف «راغب»، أعاد إخراج الأمر بما ظهر عليه وقلب الأحداث لخدمة أغراضه.

مَن ذلك الذي يتبرع بإطفاء الحريق المشتعل في قلب «جاسر»؟

أي ماء يمكن أن يخمد جذوة النار فيه؟

هو يتأوه الآن وحده في ملتقى الريح حين تعربد في عتمة البحر، ينعصر قلبه بين أضلعه، يتمدد محاولا تكسيرها رغبة في الخروج من سجن الصدر الضيق إلى الفضاء عله يحظى برؤيتها.

يريد أن يتحول إلى فراشــة تهفهف، أو يمامة تحلق، أو حتى نســمة هاربة.

يريـد أن يصــل إليها، يضمد جراحها، يقول للســان المقطوع قل ما شئت من ألم..

ويقـول للبطن المطعـون كفى نزفا واحفظ دمـاءك، فالوقت ضنين بعطرك المناسب في زفارة قصر «راغب».

كيف يسـتطيع «جاسـر» الآن أن يتكيف مع العجـز والمكر واللف والدوران وهو يصارع قردا يتقافز من شجرة إلى أخرى؟

«راغـب» يلاعبـه بكل شـيء، يريـد أن يعصـره إلى آخـر حبة أمل ونفحة حياة.

حاول أن يسـتحضر بعضا من وصايا الشـيخ الكبير علها تنجيه من وجعه، لم يأتِ شـيء سـوى الصمت، كل صفحاته فارغة، سـوى من «زهرة» حبيبته الموجوعة هناك، يقف في مواجهة رجولته، في مواجهة وعوده لها يوم لقاء الأرواح والزواج في ليلة العمر، كيف ينقض عهده ويتخلى عنها بحجة أنها طُعم لإبعاده عن السفينة؟

نزل مسرعا من سطح السفينة إلى حيث اعتاد «خلدون» أن يجلس للتدوين والكتابة في قبو السفينة السفلي..

غـرق «خلـدون» فـي دفاتـره المتناثرة، يجمـع منها ما يسـتقيم من حكاياتـه التي بات يتعب كثيـرا في تجميعها خصوصا تلـك التي تأتيه عن البلد ومنها..

نجح «خلدون» في زرع أو استخدام الكثير من العاملين في قصور الشيخ «هادي» و«راغب» ودكاكين البلد وحوانيتها، يشتري منهم الأخبار والحكايات.

لذا جاء «جاسر» إليه راجيا، أن يسخر تلك الشبكة في الوصول إلى حبيبته «زهرة»..

لم يعد أمامه سوى قرار واحد وهو تخليصها من «راغب» وبأي ثمن.

رفض تحذيرات «خلدون» بأن «راغب» يستدرجه، صرخ في وجهه:

- تتساوى الحياة والموت أمام المحبطين وأنا واحد منهم، حلم استعادة البلد الذي ضاع، حلم التحليق بالسفينة في البحر انتهى، حلم الحياة بالنسبة لي انتهى. على الأقل إن مت، أموت محققا شيئا أحبه، زهرة بالنسبة لي هي كل ما بقي من الحياة.

صمت «خلدون»، وأخفى وجهه بين صفحتي أحد دفاتره الكبيرة، وكأنه يخبئ دمعة تجرأت على السقوط.

***

18

رغم كل هذا الزحام، لماذا العيون تصوب ذخيرتها صوب لحيتي التي ملأت وجهي، وصوب فاطمتي الجديدة بفستانها الأسود الطويل؟

الناس لا يشدها السائد دائما!

يافتة كبيرة حضنت كلمة «الشلة»، وراحت تبعثر فوق حروفها حبات نور بكل الألوان، وفي الممر إلى المقهى الأنيق، وقف «سليم» بقامته الطويلة وانحناءته التي زادت، ورأسه الذي قشره عن آخره فبدا لامعا.. بجواره وقفت سيدة أجنبية بشعرها الأصفر ووجهها المرسوم بعناية وعليه قليل من تجاعيد الزمن التي تجيبك عن سؤال العمر: خمسينية كانت، تلف جسدها بفستان غارق في السواد، تاركا للأكتاف والصدر مساحة للتمرد. قدمها لي على أنها زوجته وفقط، باترا أي سؤال قد يدور في الأذهان.

قدمت له «فاطمة»، أخذها من يدها إلى زوجته، واستدار بي ناحية حزمة من الواقفين، وحين وصلنا عاد بقفزاته وصوته إلى «سليم» القديم، بكل حماقته وألفاظه النابية..

يااااه!

أي زمن ذلك الذي يترك أظافره بكل هذه القسوة في الوجوه والأجساد، كل واحد من تلك الشلة حمل جرحه، وجعه وألمه..

«طاهر» الصعيدي النحيل الأسود حمل أمامه كرشا تحتاج إلى عشرة رجال لمساعدته على حملها، و«عبد العزيز» كست وجهه صفرة وأصابه نحول لافت، عرفت فيما بعد أنه يعاني سرطانا في الكبد وحالته صعبة، أما «هويدا» التي كنا نطلق عليها لقب: «أم شعر وعيون»، فقد انتفخت وتحجبت ولم يبقَ من ملامحها شيء.

لم يعد أحد كما كان.

تمنيت أن أسألهم كيف رأوني؟

أين ترك الزمن مخلبه فيَّ؟

عدت إلى «فاطمة» أجرب طعم أن تكون على يميني، منذ نقاشي السابق باتت تتصرف بطريقة تشي بأنها تعرف قدرها في القلب.. لذا راحت تمدد رجليها وتحتله كاملا.

في الطريق إلى الشقة، دارت مكالمة هاتفية أجابني «سليم» فيها عن أسئلتي المؤجلة.

لقد سافر إلى إحدى دول الخليج، وهناك تعرف على هذه السيدة الأوكرانية، يقول إنها أحبته، وهو أيضا ارتاح معها، لم يقل لي إنه أحبها.

أما هذا المقهى فهو شراكة مع رجل أعمال خليجي عمل معه فترة ثم أصبحا صديقين.

قبل أن ينهي المكالمة أكد أن هذا المقهى سيكون مكان تجمعهم كل ليلة.

ابتسمت أمام رومانسية سليم، فثمة صحبة تعود من جديد، ثمة حب ينبت من جديد، وكأن الماضي يفيض عليَّ بفضلة.

ملأني تحفز كبير أن أنتهي بسرعة من تدوين بقية حكايتي، حتى أتفرغ لكثير من المشاريع التي بدأت تشق طريقها في ثنايا الروح لتقفز إلى الواقع.

***

الورقة السابعة عشرة

لماذا تترنح السفينة بهذه الطريقة؟

جملة أطلقها الجداف ورجاله وهم يتابعون من أعلى سطح السفينة الليل وهو يلملم عباءته من على الماء ليترك ممرا لخيول الفجر.

حين وصل الرجال إلى بطن السـفينة وجدوا الماء يتفجر من أفواه بعض الثقوب المتفاوتة، تاركة أثر المعول الذي أحدثها..

انطلق الرجال يغلقون تلك الأفواه التي تطلق وحوش الماء، ونزل آخرون على لسان الميناء يشدون السفينة من لجامها، يلملمون الحبال لتكون أكثر التصاقا بالشاطئ فيتيح لهم إصلاح ما بقي من جروح.

ركب الشيخ «رياض» قاربا صغيرا مع رجاله، يمرون بجوار جسدها يحـددون أماكن الثقوب، يتدلى سـلم من الأعلى، ينـزل على درجاته رجال يحملون قطعا خشبية كبيرة يرقعون بها الجسد المثقب.

الأمر مفهوم بالنسبة للجميع، فقد تأكدوا أن تلك الثقوب من فعل «راغب» ورجاله حين افتعلوا معركتهم وأطلقوا كرات النار.

أكد الشـيخ «رياض» أن خطة «راغب» القادمة ستكون هي تحطيم السـفينة بالكامل، ولا نجاة سوى بأن يتكاتف الجميع لحمايتها، وقال وكأنه يصدر أمرا واجب التنفيذ:

- علينا أن نعالج جرح السفينة ونبحر بها صوب الجزيرة المعزولة لنعيد ترميمها هناك.

التفت الشيخ «رياض» فلم يجد «جاسر»، أخبروه بأنه غادر السفينة فجرا في صحبة «وهدان»، نزل في حذر إلى الميناء ليتيح لعينيه معاينة جسد السفينة المتعب، وجدها تغرق من جانبها الأيمن كأنها حصان غاصت إحدى أرجله في حفرة وعجز عن انتزاعها فاستسلم ووقف محنيا.

***

ما الذي جعل «راغب» الزفر يغلق الطريق الرئيسي المؤدي إلى قصر الشيخ «هادي»؟

سؤال ردده أهل البلد وهم يتابعون الدوريات المتتالية التي تتفقد الطريق وتفتش المارة، دوريات راجلة وأخرى راكبة.

خرج الشيخ «هادي» في موكب لم يظهر فيه منذ أن تولى حكم البلد، تتقدمه سرية من الفرسان البيضاء، وأمامهم حاملو المزامير والبيارق، وفي المنتصف عساكر بزيهم الرسمي يحملون حرابا، وعلى الجوانب، مربعات من الخيول، كل مربع يحمل لونا، والشيخ وموكبه في المنتصف، حين وصل إلى مدخل الطريق الذي احتلته دوريات «راغب» انفلت عدد من هذه السرايا والجنود الغلاظ ناحيتهم، طاردوهم حتى فروا جميعا.

سار «هادي» ناحية الطريق المؤدي إلى قصر «راغب» الزفر، توزعت تشكيلات موكبه في اتجاهات مختلفة، أنزل الحراس محفة عالية كخشبة مسرح، نزل بكامل هيئته السلطانية، انتصب فوقها، موجها صوته ناحية قصر «راغب»:

- أعلنهـا للجميع، إن بلدنا الطيب له سـلطان واحد وحاكم واحد
.شيخ واحد، وليعلم الجميع أنه والله لو نازعني فيه ابني لقاتلته عليه.
لا أوامـر إلا مـا أقـول، ولا فعـل إلا بإذن مختـوم مني، ليـس في بلدنا
لطيب مكان للغدارين ولا للخائنين، من اليوم الأمور الأمنية تخصني
نا، سأشرف عليها بنفسي.

غادر الشيـخ «هادي» تاركا جنوده بكامل تشـكيلاتهم على مدخل
صر «راغب»، حط الرعب والخـوف على البيوت، أغلقت الدكاكين
.المحال، تهامست الألسن بأن حربا قد بدأت بين «راغب» الزفر وبين
لشيخ «هادي».

لـم يمضِ وقت طويل حتى تحرك الغرباء من المدخل الصحراوي
لذي احتلوه يوم أن ضاع البلد..

تحركـوا ناحيـة المنتصف، وزعـوا دورياتهم في جميع الشـوارع،
.لما حدث اشتباك معهم أرسلوا إلى الشيخ «هادي»:

- لن نتدخل في معاركك مع راغب، لكن من حقنا أن نحافظ على
حقوقنا التي ارتضيناها في اتفاقيتنا.

أرسل الشيخ «هادي» رجاله يبحثون عن «جاسر» أخيه و«وهدان»،
حس أنه في احتياج شديد لدعمهما، بل ذهب أكثر من مرة إلى الشيخ
ريـاض»، يطلـب منـه الدعم فـي معركته مـع «راغب»، لكن الشـيخ
رياض» قال له بغضب:

- قتلت فينا كل شيء حتى الأمل، فكيف تأتي لتستنجد بحطام مَن قتلت يداك.

كان الشيخ «هادي» يعرف أن المعركة بينه وبين «راغب» قادمة لا محالة، خصوصا في اللقاء الأخير حين طلب «راغب» أن يقسم البلد بينهما تقسيما جغرافيا، فيحصل «راغب» على ناحية الصحراء، ويترك للشيخ «هادي» ناحية الميناء.

لكن «هادي» أحس أن ما ضحى من أجله يضيع..

دماء أبيه وأخيه «سيف»..

أحلام الشيخ الكبير وعظامه في قبره أكبر من أن تنتهي بحكم جزء من البلد.

هو لم يستطع أن ينام ليلة واحدة منذ تفريطه الكبير، وهو يرى الشيخ الكبير يجلده كل يوم عاريا.

***

19

لـم أتردد لحظة في التوقيع علـى عقد العمل الذي فرده أمامي زياد الحسين، كان المسمى الوظيفي هو: المدير العام، نائب رئيس مجلس الإدارة لتلـك المجموعـة الإعلامية الكبيرة التـي تحوي مركز أبحاث ضخمـا وموقعـا إلكترونيـا، على أن يتـم إصدار صحيفـة ورقية تكون أسـبوعية في البداية ثـم تتحول إلى يومية بعد ذلـك، وفي مرحلة تالية يتم إطلاق قناة فضائية تكون عربية التوجه ومعتدلة وراقية.

«رشدي الشيخ»

كتبت اسـمي أول مرة بدون أي ألقاب تسبقه، أحسست أنني أعود إلـى أصلي المقطوع منذ زمن، أو المقسـوم على لقب «السـفير»، هي الحرية إذن، الانطلاق، أن أكون أنا وفقط بلا أي حسابات..

جـاءت إلـى ذهنـي فريـدة عزيـز الـراوي، تلـك الزوجـة النزقـة، المتحوصلة خلف قشـرتها التافهة، أحسسـت أنها ما زالت تشـكل لي عبئا يثقلني، حجرا يمنعني من التحليق.

أنهيت مراسم التوقيع على أن نكمل الاحتفال في المساء، انطلقت وبجواري «فاطمة» التي ما عادت تفارقني لحظة واحدة بعد أن وقعت عقد عملها معي كمديرة لمكتبي ومساعدة لي.

إلـى أقـرب يافتة مكتوب عليهـا «مأذون شـرعي»، دخلت لأخرج
ورقـة طلاق فريـدة الراوي وبالثلاثـة حتى لا تكون هنـاك مراودة من
ي نوع للرجوع.

عليَّ أن أرسلها لها بالبريد.

انطلقت في شـوارع القاهرة وكأننـي أراها لأول مرة، أنا العائد إلى
فسه من جديد.

***

لم يستطع «هادي» أن يحول دون انفضاض رجاله من حوله، الكل ضعف أمام إغراءات «راغب» الزفر، نشر فتنته وأحدث وقيعة في صفوف جيش «هادي» الذي انفرط كحبات المسبحة المقطوعة.. لم يبقَ معه سوى قلة من قادته الكِبار، وبعض الجنود الصغار..

في المقابل تعملق جيش «راغب» الزفر، وتمدد ليقطع البلد نصفين، تولى القيادة مرتزقة بسحناتهم الغريبة ولكناتهم غير المعروفة.

ما عاد الغرباء يخفون موقفهم الذي يدعم «راغب»..

غادر «هادي» سرا ومعه أهله إلى بلد الشيخ «عدنان» والد زوجته، تاركاكل شيء ليرتع فيه «راغب»..

تاركا دماء الشيخ الكبير، و«سيف» أخيه، والشيخ «داود»، والشيخ «صامد».

تاركا خيانته وخيبته تبحث عمَّن يداري سوءتها.

وقف «راغب» منتصرا مطلقا صيحاته في فضاء البلد.

«دونها أو نموت»!

تلك الصيحة التي أطلقها الشيخ الكبير المؤسس ومن خلفه رددها المخلصون، هو الآن يسرقها، يحتلها كما احتل كامل البلد.

صرخ وقال:

- المُلك الذي بناه الشيخ داود المؤسس الأول لن يزول.

بدأ في تغيير التاريخ واصفا الشيخ «داود» بأنه هو المؤسس الأول، رئيس الشيخ الكبير، سار في موكب مهول غارق في الترف، وأمامه أسراب من الخيول حتى وصل إلى قصر الشيخ الكبير.

اعتقد الكل أنه سيدخل القصر ليتخذه مقرا للحكم، لكن لم تمضِ سوى ساعات قليلة، ووقف سكان البلد مبهوتين وهم يرون السُّياس يُدخلون الخيول إلى قصر الشيخ الكبير بعد أن أعلن «راغب» أن هذا القصر سيكون الإسطبل الخاص لخيوله، أما مقر الحكم الجديد فسيكون قصره الخاص.

حطت على رؤوس الناس طيور الانكسار والفجيعة وهم يراقبون حوافر الخيول تدوس على هيبة المكان الذي يمثل رمزا للبلد كله.

حين دخلت الخيول إلى ساحة القصر تسمرت في أماكنها، رفضت أن تكمل تدنيس المكان أو تدوس بحوافرها البهو الذي تصدره كرسي الشيخ الكبير.

أطلقت صهيلا وصل إلى آذان الناس بكاءً كأنه اعتراض منها على ما فعله «راغب».

خرج «راغب» من شرفة القصر الكبير يلوح لرجاله مرتديا شخصية المنتصر.

أشار بسيفه ناحية ساحة النصر الملتفة حول القصر باتساع يتيح للجميع فرصة متابعة شرفاته، صممها الشيخ الكبير لتكون مكانا يحتفلون فيه بانتصاراتهم وأفراحهم، صرخ «راغب» في فرق الطبالين

والزمارين والأراجوزات والراقصات والعجر فتحركوا ليحتلوا ساحة النصر.

بعد ساعات قليلة تحولت تلك الساحة إلى عدة دوائر، واحدة نصب فيها السيرك بكل قروده وحيواناته، وأخرى تصدرها مسرح خشبي حمل راقصات عاريات يرجرجن أجسادهن.. وعلى الجانب الآخر كان الرواة بربباباتهم يقصون على الناس بطولات «راغب» وانتصاراته الوهمية.

***

اتجه بعض سكان البلد إلى الميناء وقد ملأهم الحزن على ما آلت إليه أحوالهم، أولئك الذين لم تنجح حيل «راغب» في تغيير أفكارهم، فظلوا محتفظين ببعض يقين الشيخ الكبير.

الكل وقف على ذراع الميناء ورمى هلب عينيه ناحية السفينة التي لم يبقَ منها سوى رأسها بعد أن غاصت مؤخرتها بالكامل في البحر، الجنازير التي شدت الرأس المرتفع ظهرت مشدودة عن آخرها كأنها تقاوم للاحتفاظ ببقية الجسد من الغرق.

وقف الشيخ «رياض» وبجواره ابنته «جميلة» و«سيف» الصغير وابنه «رماح» ينادون على الجداف ورجاله الذين رفضوا النزول وأصروا على أن يلاقوا نفس مصير السفينة:

- اذهب يا شيخ رياض، اهتم بسيف الصغير علّه يكون بذرة النجاة.. أما أنا ورجالي فنحن هنا باقون، نلاقي نفس مصير سفينتنا.

وقف الجداف شامخا ومن حوله رجاله يلوحون للقلة الواقفة على الميناء، وخشب السفينة يرتج أسفل أقدامهم، يرتعش كجسد يحتضر.

ركب الشيخ «رياض» ومَن معه قاربا بالكاد يكفيهم، واتجهوا صوب الجزيرة المعزولة، كانت «جميلة» تحتضن «سيف» الصغير وهي تلقي نظرة على السفينة التي راحت تغرق أكثر، ونظرة أخرى على البلد وهو يغوص أكثر وأكثر في وحل «راغب».

أما الشيخ «رياض» فترك كثيرا من الدموع تنهار على لحيته البيضاء..

تكور على نفسه وهمس في أذن «رماح»:

- لو مت ادفني بجوار الشيخ الكبير، احمل جسدي ليلا وضعني بجواره.

ثم اقترب من «سيف» الصغير، ضم رأسه، وهمس في أذنه:

- إياك يا ولدي أن تنسى ذلك المشهد، إنها ذروة الانكسار والانهزام واليأس، احتفظ به في رأسك حتى لا تجربه مرة أخرى، أنت يا ولدي الذي سترث كل هذا العار واليأس، وأنت يا ولدي الذي ستمحوه، يوما ما ستعيد إحياء ذلك البلد. يوما ما ستطهره من راغب ومن أمثاله.

***

20

لمَن أهدي هذه الأوراق التي سجنتها بين غلافين سميكين وكتبت على غلاف الوجه عنوانًا هو محض خوفي:

«خريف البلد الكبير».

هل أهديه إلى صديقي القديم الذي أهداني ذلك الصندوق؟

هذا! الصندوق الذي دار بي عكس حلمي فأعادني إلى ما كنته، أعادني إلى «أنا» القديم؟

أم أهديه إلى الدكتور فراج البيومي، الذي سكنت مصرُ في عروقه فأصبح عاريًا من كل شيء سوى منها، ولما مات في السجن ودُفن أنبتت فوق صدره من الناحية الشمال صبارة يُسمع لها صوتُ بكاء في المساء.

أم أهديها إلى الدكتور عبد النبي الهادي، الذي حينما انتهى من فك رموز تلك المخطوطة لملم حاجياته وأغلق شقته في الإسكندرية، خلع بدلته وارتدى جلبابًا ريفيًا، عاد إلى قريته في محافظة الشرقية، فتح بيتهم القديم، جلس على المصطبة في مدخل الدار يعد أنفاس الصباح ويتدفأ بونس الفلاحين في المساء؟

أم أهديها إلى فاطمتي القديمة، التي بعتها مقابل منصب سفير وزوجة كقشرة البيضة لا بد أن تزيلها إن أردت الاستفادة منها؟

فاطمتي القديمة التي بخلتُ عليها بقبلة وضمة قبل أن تموت.

أم أهديها إلى فاطمتي الجديدة، التي نكشت في خميرة الروح فأخرجت ما بقي من حياة، وحفرت في طين النفس فأورقت الشجرة من جديد، وأثمر القلب وأينع؟

أم أهديها إلى «ملك»، ابنتي المقسمة بين «أنا» القديم، و«أنا» الجديد، وبين أمها المتوارية خلف قشرتها النتنة؟

أم أهديها إلى شخوص البلد الكبير جميعهم.

الشيخ الكبير ومعه الشيوخ المؤسسون.

حين اكتلمت مخطوطة الرواية، ضممتها إلى صدري متذكرًا تلك اللحظة التي ضممت فيها ابنتي «ملك» أول مرة، حامت في العين دمعة لزجة وثقيلة، اقتربت «فاطمة» مني، التصقت بي، وألقت رأسها على كتفي.

عدت إلى بهجة الإحساس القديم أيام الصبا البريء، حين قبّلت فاطمتي القديمة أول مرة، أوقفت تدفق ذلك الإحساس المنساب بين جلدي لأميز مصدره.

هل خرج من فاطمتي القديمة؟

أم خرج من فاطمتي الجديدة؟

أمام أي من الفاطمتين أنا الآن؟!

حدقت إلى وجهها المشرق وإلى خريف عنوان روايتي..

وصمت.

«انتهت»

الخميس 11/ 8/ 2016

"عليَّ ألا أترك بندول رأسي يطن كثيرًا حتى لا يفنى الرأس في الجنون، تركت سؤالها وشخوص حكايتي القديمة الذين خرجوا من ضيق اللفافات إلى بعض البراح المتاح في طرقات الشقة وحجراتها.

رحت أتأمل فاطمة الجديدة، البشر حين يفنون يكونون قابلين للبعث والعودة من جديد للحياة كالنهار المقتول على مقصلة الليل.

لكن الأوطان والبلاد حين تفنى وتزول فهل تعود؟".

***

بين بلد يعيش واقعًا مُربكًا، وآخر يأتي من أعماق ماضٍ غامض.

تدور أحداث هذه الرواية، من خلال أداء درامي أجاد الكاتب في طرحه، بلُغة بسيطة، وأسلوب بعيد عن المباشرة الفجّة، مؤسِّسًا عالمًا خاصًّا به، في زمان ومكان غير مُحدَّدَين، وأحداثٍ ترتبط بطبيعة المكان وخصوصية الزمان، حيث يؤسس الشيخ النجار، ومعه آخرون، بلدًا جديدًا، ويُرسي مبادئ وقيمًا راقية، لا تنال منها ومن بلده الكبير، إلا خيانة أقرب الناس إليه!

محمود الورواري.. إعلامي، روائي، مسرحي.. صدرت له أعمال عدة تنوعت بين الرواية والقصة القصيرة والمسرح، أبرزها رواية "حالة سقوط" التي وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر.